مجموعة
قصصية
وحدة
فريق
متميزون
E-BOOK
محمود توفيق
دار التشير

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

ودَّة

(مجموعة قصصية)

محمود توفيق

ريحُ الهيمان

تعْوي الرّيح في الليلة الحالكة في مشارفِ الصّحراء كعواء الذّئاب الجائعة، تهبُّ أنتَ معها محمومًا هائجًا، تهزّك الحسراتُ والأمنيات الفائتة والعطشُ المرير، وذكرى الحبيبةِ التي ماتت في سريرها فجأة في ليلة الحنّاء. وتمرّ فوق حقول الشّعير التي استيقظتْ فجأة وتماوجتْ مع العاصفة، وفوق الطيور التي ضلَّت وأصابها الرّعب، وما عادتْ تعرفُ الجنوب من الشّمال، وفوق المصابيحِ المسْرَجة على الطّرقات الكئيبة النائمة، وهي تكاد تتحطّم من الريح كأنّها أرواح أصابها الصّرع في ليلة الخسوف، وكانت تلك أيضًا ليلةَ خسوف عندما ذهبتَ مع الناس تدفنها، فيما كان الأطفال يدقّون الصّفيح ينادون على القمر كي لا يغيب. وتمرّ بهدوء، بالسّلام والأشواق الدافئة والدموع، على البيوت الهاجِعة في حيِّك العتيقِ المنغمس في الصّمت والرطوبة، ويحطُّ بك الهوى الأعمى عند زجاج نافذة فتلتصقُ به، وأنت تكادُ تجنّ من السّعادة، وأنت تنظرُ للفتاة المشرقة التي تنامُ على سريرها ولم تشعر بالريح وعوائها ولا باختناق القمر، هنا كانت ترقدُ حبيبتك بعد أنْ رسموا لها الحنّاء، فيما كانوا يدعَكونك بلوفِ النّخيل، وأنت في الطّست، وأنت تذكرُ هذا جيدًا، وتمكثُ ملتصقًا بالزّجاج في قمّة ولهك وشوقك، إلى أن يبزغ نورُ الفجر وتهدأ العاصفة، وقد صرتَ فيما أنت فيه عليلًا من الحبّ والأنين، وتجدها تستيقظ مثل غزالةٍ مبتهجة، وتقوم مبتسمة، كأنها هي، وتقتربُ منك فتضطرب، وتقترب أكثرَ فتكاد تنهارُ وتخرّ من عند النافذة التي التصقت بها.

وبكلّ وداعة، ترسم بأصبعها الرّقيق على الزجاج من الداخل، وفي مواجهتِك تمامًا، ترسم قلبًا صغيرًا، وقد ازدادت ابتسامتُها تألقًا وطفولة، يغمرك الفرحُ والأنغام والرّضا، وترمقها بنظرك عندما تستديرُ فجأة وتذهب بعيدًا، وتخاف ألّا تعود، لكنّها تعود وبيدِها منفضةٌ من الريش، وأخذتْ برفق تمسحُ الزجاج من الداخل وأنت تشعر شعورًا غريبًا بالتّهديد، ثمّ تفتح الجميلةُ النافذة، فتشعرُ أنت بما يشعر به المحكومُ عليه بالإعدام عندما يُفتَح عليه البابُ في المرّة الأخيرة، وتمرّر الجميلة المنفضَةَ على الزجاج من الخارج، فتشعر أنّك في طريقك إلى الزوال شيئًا فشيئًا، وها أنت ذا تزول؛ لأنّك ميّت منذ عهدٍ بعيد، بعد أن ماتت عروسُك منذ نصف قرن، بعدها بيوم واحد، من شدّة هيامك بها، وفي الريح التي هبتْ شيءٌ من ترابك الذي هاج من عند المقبرة التي في مشارف الصحراء، شيءٌ من ترابك يحمل همّك ونجْواك وشكواك على العروس التي ماتت فجأة، وهذه الجميلة التي من أهلها، لا تدري أنّ هذا الغبار يحمل حسرةً تعلّقتْ بنافذة هذا البيت منذ نصف قرنٍ من الزمان.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

الخبء

خيالاتٌ من الظلّ والضّوء المشوَّش تهلُّ عليّ فجأة في شرودي وتغمرني، مثلما كانت تهلُّ كلّ مدَّة، تتحرّك حولي حركةٌ شبحيَّة، وتمرّ من جسدي وتخرج، محمّلة بوشيشٍ يأتي من بعيد، أسمعُ فيه ولا أكاد أسمعُ صوت هدهدةٍ، من هدهدٍ سابحٍ في خلاءٍ مرسلٍ، يَبعث صوتَه في عالم الشّهادة، وتلك رائحةٌ معتّقةٌ للماضي فيها شيءٌ من الصندلِ وحنوطِ الموت.

عُقِد قِرانُ أختي في الشّتاء القديم، أوّل شتاءٍ أعيه، هناك خلف سور البيت العتيق. هذا خفيت دَردابِ الدُّفوف يأتي من داخلٍ، أقتربُ، أدلف مع الذّكرى، في البيت فرحٌ ونساءٌ كثيرٌ يباركْنَ، يُنشدنَ الأناشيد المتوارثة في الحوش الفسيح، وقد اتّكأن على جذوع النّخل الذي يرنو للجالسات تحتَه ويهزُّ طلعَه. وفي عليّةٍ، انزوَتْ عروستُنا حياءً، حتى لا يرى الصُّبية الذين أتَوا مع أمهاتهم زينَتها، فصعد النّسوة إليها تباعًا بلا أطفالهنّ، وأحطْنَها، وصعدتْ عجوزٌ بشوشةٌ في تؤدَةٍ، ودخلت ونقشتْ على يديها أزهارًا من الحنَّاء، وهي فيهنّ كفراشةٍ بين أوراق شجرٍ كثيفة، تراها ولا تراها. ولمّا قُمنَ من على الزَّرابيّ وانصَرفنَ، وتركنَ من ورائهنّ خلوفًا من الطِّيبِ، وطنينًا ممّا يتبقّى قليلًا بعد انفضاضِ الهرج، صعدتُ أطالعُ الحنَّاء في يديها، وثوبها الحريري، وأسمعُ وسوسة حُليِّها الكثيرةِ، وقد بدت في الحِليَة خَجْلَى ومرتبكةً.

وأذكرُ كيف ارتحلتْ في الغدِ إلى المدينة الإقليمية التي كنت أنطق اسمها مغلوطًا؛ ودّعناها طويلًا عند مدخل البيت حتى استقلت سيارة (بيجو)، وهي دامعةُ العينين خلْفَ نِقابها، وخلفَ زجاج السيارةِ تُشيرُ لنا. كانت هنا، ولكنها ذهبتْ، ذهبتْ من بيتنا وأخذت معها المرحُ الهذيبَ والحنان وأمومة وُلِدت بها.

أخذتُ أبكي يومَها بَعد أن تحرَّكتِ السيارة، وأنا أكاد أنفطرُ؛ مِن أجْلِ أختي التي ذهبتْ بعيدًا، وأنكرْتُ البيتَ والنّخل والجدرانَ العتيقة، ولمْ أتوقّف يومها عن الاحتجاج وعن طلبِ الذهاب إليها حتى أضجرتُهم، وذقت مرارةَ الليلة الأولى للفراق، كان صعبًا جدًّا.

في الأسبوع الأخير من شهْر العسل، حملَني الخالُ إليها هناك، وكنت طوالَ الطريق البرّيء الطويل متحرقًا لرؤياها بعد هذه الغَيبة، ووجهُها الصّبوح يطلُّ عليّ من خلف كلّ كثيبٍ، وعندَ كلّ شجرةٍ رعويةٍ، وأستمع من عزيف الرِّمال لشيءٍ مثل وشوشَتِها. أنظرُ للهدايا التي حملناها إليها، وكأنّني أنا الذي جمع هذه الأشياءَ ليهديَها إيّاها، وعيناي دامعتانِ من الشّوقِ والفرحةِ. ولم أعدّ شيئًا ممّا يعدُّه المحبُّ من حديثٍ لحبيبهِ حين يلتقيانِ؛ كانت الكلمات عندي قليلةً، وبسيطةً، وخضراءَ، فقط عندي رغبةٌ في احتضانها، والجلوس في حجْرها، واللّعب بين يدَيها، ورؤية غمَّازتيها اللّتين تُنيرانِ وجهَها.

استقبلتْ أنا وخالي استقبالًا كريمًا، وتشبَّثتُ بها أنا طويلًا، وجعلتُ أتشمَّمُها وأبكي، حتى هدأتُ قليلًا، وخالي يسألُها: ما كلّ هذا الحبّ؟!

ووضعتْ أختي بين يديَّ كميةً من الحلوى، آكلُ حينًا، وأقبّلها حينًا. ثمّ غابت في المطبخ لتأتي إلينا بالغداء فذهبتُ معها تاركًا الرُّجلينِ لكلام الرّجال، وسألتها عن ذهابِ الحنَّاء من يديها إلّا قليلًا، فأجابتْ بأنّ الحنَّاء لطيفةٌ لا تُعمَّر.

بعد الغداءِ وشربِ الشاي، قام الخال لينصرفَ على أنْ يعود هو وأمّي بعد أسبوعٍ ليحملني، فتمسَّك به العريسُ وأختي كثيرًا، إلّا أنّه أصرَّ على الانصراف، بيْنَا أنا كنت أداري نفسي تحت السريرِ خوفًا من أنْ يطْلبَني للرحيلِ معَه، ولمّا مضى تنفّستُ الصُّعَداء وخرجتُ.

لمّا مضى لحالِ سبيله، وبدأت أتعرّف إلى المكانِ، وهذه الأسرةِ الصغيرة، شعرتُ شيئًا فشيئًا بعدها بأنّي ضيفٌ ثقيلٌ على العريس، بدا هذا في عينَيه الصّريحتين. وأنا أيضًا كنت أستثقلُه، وأغاظُ منه ومن قربِه منها وتلطّفها معَه، وأعجبُ مِن أبي كيف ترك أختي مع هذا الرّجل!

ولأنّني غِرتُ منْه وهو استثقلَني، انسحبتُ معظمَ وقتي إلى الشُّرفة ذاتِ الطرازِ العتيق، ألعبُ باللُّعَبِ الّتي قدّمتْها لي أختي، وأنظرُ إلى أطواقِ البامية الجافّة التي تخزنها في الشرفة، وواضعاً رأسي حيناً بين برامقِ سُورها، أطِلُّ على السابلة مِن الطابق الثاني وأتسمَّع لأصوات الباعة الجائلين، وأنظر للمقهى الشعبيِّ وعاملُه يحملُ الطلباتِ الساخنةَ وينادي عليها ويتبادل مع الزبائن كلماتٍ لاذعةً، أو إلى صاحب فرنِ الخبز العصبيِّ الذي لا يكفّ عن السِّباب ورمي يمينِ الطلاق، منشغلًا بهذا العالم الغريب عنّا؛ وقد اعتدْنا على أن نسكن بين أهلٍ، وهنا مدينةٌ لا نعرفها ولا تعرفنا، هذا العالمُ الغريب الموحِش لي، ولتلك التي لا تعرفُ الصّخب ولا اللّعان ولا الفظاظةَ، الكتومِ التي كانت تخبّئ فرحَها وحزنها.

ظللْتُ مؤمّلًا أن تُفيقَ أختي من غفلتها وألّا تتوازن بيني وبين هذا الغريب الذي أخذَها منّا، وأن تلفظَه والمدينةَ وتلتفتَ لي وحْدي، وتعود معي لبيت العائلة، والمصْطبة الدّاخلية، وللعُلّية، وللهداهدِ التي كانت تلتقط الغلال في حوشِنا، أتذكرينها الهداهد؟ طبعُها السُّتر والإخفاء، وكانت تألفك أنتِ وحدَكِ، ولا تهرب إذا ما خرجتِ إليهنّ حتى حين كانت تخبّئ بيضها، كأنّك منهنّ! عودي؛ فأنا أنا، وأنتِ أنتِ، ولا بيت إلّا بيتُنا، فلمَ نتغيَّر؟! وصبرتُ منتظرًا إفاقتَها طويلًا.

بعد ستّة أيام، مرّت وهي تتوازَنُ بيننا، وكلٌّ منّا في عينَيه شيءٌ عن هذا الذي يدور، وهي المسكينة كان عليها أنْ تتحمَّل صامتةً، وألّا تُغضب أحدًا، سواءٌ أنا الطّفل الصغير، أو ذاك الطّفل الكبير قرينُنا، اللّذان يتنازعانها عاطفيًّا.

حتى رضي كلٌّ منّا بنصيبه، أدركتُ أنا أنّ له منزلةً أكبر ممّا كنت أظنُّ في اليوم الأول، عندما تمنَّيت أنْ تتكره تماماً وتعودَ لي وحدي، إنّه الزّوج! وأدرك هو أنّني ضيفٌ، وأنّني طفلٌ قبل أيّ شيء. أدركَ هذا وسلَّم به بعد أن سمعتها تردّ عليه بلطف لمَّا قال لها: الولد يغار مني!

- أستنزل بعقلك لعقلِ طفلٍ! هذا طفلٌ صغير.

صفعتْني كلمةُ (طفل)، وكرهتُها هذه الكلمة،كأنّني لأوّل مرةٍ أسمعها تُقال عنّي، وشعرت بغصَّةٍ ورغبةٍ في البكاء. ولم تعطني عينايَ إلّا القليل، هناك في الشُّرفة.. ثمّ مسحتُ الدّمع، وشرعتُ في تقبُّل الأمر الواقع، وأنا على وجْه سفر.

رضينا جميعًا، وهو شعرَ بأنّي مغادرٌ بالغد، فأسرفُ في تدليلي وأُعطياته، حتى لا أحملَ معي انطباعاً سيئًا عنه قد أحملُه للأسرة. وربّما صفا لي هو أكثر ممّا صفوتُ له؛ كيف أصفو وقد أخذَها للأبد؟! وسأعود بدونها غدًا معلناً هزيمتي أمامَهُ، بل أمام زوج.

انتابتْني نوبة قلقٍ بعد منتصف الليلِ رُغم عذوبةِ النوم في البرْد الشديد، قلق المرتحلين، سمعت هسهسةً تصدر من الصّالة، كأنّها حديثٌ خافتٌ جدًّا، لكنّ الليلَ حملَهُ. غلبني الفضول، واستفزّتني شهوةُ المعرفة. وظلّ الفضول والكسل يتنازعانني، حتى قمتُ مُتثاقلًا من تحت اللّحاف الثّقيل، متشوّقاً لأعرف فيمَ الهسهسةُ بعد منتصف اللّيل. وأدرتُ مقبض الباب ببطءٍ وحذرٍ متجنًّبا أن أحْدثَ أيّ صوتٍ، وسحبت البابَ شيئاً قليلًا، وأخرجت منه رقبتي وحدَها، وأسندت خدِّيَ عليه، وزممتُ شفتيّ، ورفعتُ حاجبيّ، وشعرت بنوعِ إثارةٍ ممّا أرى:

كانت واقفةً تتهجَّد وفي يديها المصحف تقرأُ منه، وأنا عن يسارها أطلُّ من الباب المفتوح قليلًا ولا تراني، ولو كنت قبالتَها ما أظنّها قد تلاحظني. طيرٌ بريءٌ أرّقه السّهاد في الضّوء القليل والغمام، وإسدالُها الفضفاضِ واسع الكمّين، فإذا رفعتْ يدَيْها لتكبيرٍ، ثمّ أخفضَتْهما؛ كانت كأنّها طيرٌ أقام الليل يجنِّح مسبِّحا للهِ (الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ)، والصُّالة غمرها ضوءٌ غَيرُ الضَّوء، وفاحَ فيها عطرٌ ليس كالعطَر، وغشيتنا السكينة، وشعرت أنّني أغسل بالبَرَد.

انسحبتُ إلى الغرفة وأنا أنشجُ مثلَها وأكتم صوتي وبكائي كما تكتُم، وذقتُ حلاوة الإيمانِ من قبل أن أعرف ما الإيمانُ، ووضعت رأسي وأنا أشعرُ بأني خفيفٌ جدًّا ومرتاحٌ تماماً وراضٍ كلّ الرضا، وقد أدركتُ ساعتَها فيم كان يُسرَج القنديل ليلًا بالعُلِّية والنّاس نيام، الآن عرفت سرَّك، كان لله خبْءٌ واطّلعتُ عليه، وسأحدِّث به.

استيقظْنا جميعاً مبكرًا في هذا الصّباح الشتويّ. وأعدّت لنا أكوابَ الشّاي بالحليب، وأخذنا نغمس فيها (البقسماط) ونحن جلوسٌ على الأرض، وأنا أراقبُ البُخار الذي يتصاعد من أفواهنا، وأراقب الصَّمت والعيون، وهذه البسمة العجيبة التي ثبتت على وجْه أختي في هذا الصّباح، وأنا في كنزتي الصّوفية التي يكسوها حولَ الرقبة فراءٌ كثيفٌ، وتحتها طاقمُ النّوم من (الكستور)، وهذه الطّاقية الصوفية تغطي أذنَيَّ اللَّتينِ لسعَهما الصقيع.

قليلًا، ودخل هو الحمّام وخرج مسرعاً يلبسُ في عجالة لينزلَ لأوّل يوم عملٍ بعدَ زواجه، أمّا هي فدخلتْ لتستحم، وأنا جلستُ على الأرض وقد خبّأت نفسي بالبطّانية إلّا وجهي الذي يبدو منها، وقد احمرّت وجنتاي تماماً. ناداها أنّه نازلٌ الآن، وذهب إلى باب الشقّة وفتحَه، ثمّ أغلقه بعنفٍ وهو بالدّاخل محْدِثاً صفقةً عاليةً، لم يَخرج.. التفتَ إليّ، وغمز لي بعينه السَّاذجةِ، وتوجّه إلى خزانة الملابس وفتحَها، ثمّ نظر لي ووضع أصبعَه على فمه لأسكُتَ، وطلبَ منّي أن أتناومَ مكاني، واختبأ خلْف ملابسِها، وأخذ بيديه درفتَي باب الخزانة وردَّهما، وأدركتُ أنه يعدّ لها دعابةً ثقيلةً.

خرجتْ حبيبةُ القلب، تمشِي على مهلٍ، فأسندتُ رأسي على الحائط خلفي وأرخيتُ جفوني قليلًا ممثّلا للنوم.. كأنّي أراها الآن أمامي. خرجتْ ترتدي البُرْنُسَ الأبيضَ، وخرجَ معها البخارُ، أمالتْ رأسها على جانبٍ، فتجمّع شعرُها في ناحيةٍ، وأخذتْ تضربه بيدها لتنتثرَ منه الماء. كنت أودُّ أن أناديَ وأشيرَ لها لأفسدَ مفاجأته، ولكنّ شيئاً ما عقدَ لساني، فتركتُ الأمورَ تأخذ مجراها؛ خوفاً من أنْ أفسدَ اللعبة.. أخذتْ تقتربُ شيئاً فشيئاً وهي تبتسم لي، وأنا أبدو أمامها وكأنّي نائمٌ في جلسَتي، وقلبي الصُّغير يتحرُّك استعدادًا لوقْع الدُّعابة، حتى وضعتْ يدَها على باب الخزانة لتأتي بملابس، فخرجَ لها خبْءُ الشّيطان وقفز في وجهِها وقال: ها..!

فشهقتْ شهقة عظيمة، ووقعتْ على الأرض. ارتَمى عليها الرَّجل يحاول أن يُفيقها، وهو ينادي فيها بصوتٍ أخناهُ النَّدم، ثمّ أخذَ يهزُّها ويصفعُها. وأنا انخلع قلبي وتقافزَ في صدري، وبللتُ ثيابِي من الفزع، وجفّ حلقي، وثقلتْ رجلاي فلم أستطعْ أن أقوم، وحاولتُ ثمّ لم أستطعْ أن أقوم، ثمّ إني حاولتُ ولم أستطعْ، فأخذتُ أهزّ دماغي عاجزًا، كمَن ضُرِب على أمّ رأسه.. أخذَ يصرخ بعد أن وضعَ يده على مِعصمها ليجسّ نبضها:

- ماجدةُ ماتت.. ماتت.

لم أشأ أن أصدّقه، قمتُ بصعوبةٍ وخلّصت نفسي من البطّانية التي شعرتُ- من انهيار أعصابي وخوارِ أعضائي- أنّها شبكةٌ معقّدة، وأخذتُ ألمس وجهَها وأنا أبكي: قُومي يا ماجدةُ.. قومي.. حرامٌ عليكِ! قومي.. قومي.

ثمّ انهرتُ وخبّأت وجهي في وجهِها وشعرِها طويلًا. بلّل شعرُها وجهي، وبلّلتها دموعي.

غابَ الشّتاء هذا، لم يبقَ منه إلّا تلك الخيالات، وصورةُ أمّي المسكينةِ التي أتتْ ضحًى، وكادت تُجنَّ وهي تنظر لبنتِها العروسِ الميْتةِ، وتقول وهي تضحك:

- مبروك.. مبروك يا ماجدة.. اللّهم صلِّ على النبي.. قمرٌ.. قمر!!

حتى اصطكّت أسنانها، وارتعدتْ ركبتاها، فحملتها امرأتانِ من جناحيها حتى أضجعتاها وهي بين العقل والجنون.

مضَتِ السُّنون، وعاشَ معنا هذا الجرح الذي لا يندملُ مِن دعابةٍ، دعابةٍ روَّعت أختي فقتلتْها، فكسرتْ ظهورنا. وتكهَّل الأطفالُ وشابَ شعرُ الصَّبايا والفتيان، ومات مَن مات، ولازالت ماجدةُ كما كانت، تطلّ عليّ شابَّة مِن ممرٍّ يغشاهُ الضُّباب وهي تُميل رأسَها وتضربُ شَعرَها بيدِها باسمةً.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

وساوسُ الحنين

مع ضربةٍ من ضربات الحنين لمَا فات، وبسبب الصّعوبات الشّديدة التي وجدتها في مواجهة حياة العمل الجديدة وأنا شابّ حالم، شابٌّ حالم يحبّ أن يقف العالم ولا يتغيّر، نزلت وتوجّهت إلى قطعة من الماضي، إلى غرفة السطح، إلى سكن الشابّ الذي كنّا نذهب ونسمرُ ونثرْثر عنده منذ أشهر قليلة، قبل أن ننزل إلى الحياة العمليّة القاسية التي فرّقتنا في الطّرق، ولقد كنّا نشعر أثناء كلامنا معًا عنده أننا متشابهون جدًّا، لكن لمّا بدأنا في الحياة التي تقوم على الكسب قبل أيّ شيء، شعر غير المستعدّين جيدًا- وأنا منهم- بشيء من الخيانة عندما وجدوا بقية الأصدقاء منسجمين تمامًا مع حياتهم الجديدة بجميع تفاصيلها، كأنّهم عاشوها من قبْل، وكأنهم كانوا يسايروننا لا أكثر إلى أن يأتي موعد الفراق الذي كانوا يخفون أنّهم ينتظرونه؛ لذا هُرعت إلى ذلك الشابّ الذي كنت أظنّه يمكن أن يطمئن قلبي باحتقاره لهذا العالم السخيف، بمؤشرات البورصة، بِرابطات عنق مندوبي المبيعات، بدفاتر الشيكات، بالعقود، بكاميرات المراقبة في المكاتب وبصمات الحضور.

الآن أنا في شارعه، بعض عيون المارين تنظر لي كأنها تعرفني، أوَيعرفونني حقًّا، أم تلك أوهامي؟ هذا بائع الجاز حليقُ الرأس الذي كان يتبادل معي أحاديثَ سريعةً لطيفة، والسّلام عليكم، وعليكم السّلام، وهاتان ساقا الميكانيكي المنْبَطح تحت العربة، ممدّدتان للخارج دائمًا، ولا يخشى أن يمرّ عليهما عابرٌ أو سيارةٌ مسرعةٌ، والتفتُّ، فإذا به الجرس المميّز لعربة بائع الحليب، وبائعُ الحليب ينادي: هيَّا يا غادة، هيَّا يا محمّد؛ كلّ شيءٍ طازجٌ لَم يتغيّر كأني كنتُ هنا أمس مساء؛ هؤلاء المدْهشون حولي، وهذا الميكانيكي الذي لم أرَ وجهه أبدًا، وجرس عربة الحليب، جميعًا في زمن لا يتحرّك، وأنا أريد أن أكون هنا في حمى الأيام الحانية.

هذا بابُ البيت أخيرًا، رجلٌ يجلس على كرسيٍّ تحت حائط البيت يتبادل التعليقات مع الجالسين على المقهى قبَالته، يوقفني، إنّه المغني الشّعبي الذي كنت أستظرف هيئته المُلْفتة، نعم هو، نفس السّحنة التي تجمع بين علامات التخنُّث والإجرام، والشّعْر المبلَّل بالماء واللّيمون، وياقة القميص المرفوعة، والحاجب المنْتوف الذي يحيط به اخضرارٌ مُقْرف!

الحقيقةُ التي أقلقتني وأنا عائدٌ إلى هنا بغمامةٍ من الحنين على بصيرتي، هو أنّ شعوري بالاشمئزاز منه هو شعور جديدٌ لم أكنْ أشعر به، رغم أنّ الرّجل لم يتغيّر فيه أيّ شيء، فشعرتُ بقلق تجاه هذا الذي يتسرّب خلسةً إلى النّفس، هذا الذي يسمّونه النضج، الذي يغيّر رؤية الأشياء والناس.

كنتُ أرغب في الانفلاتِ من الرجل، رغم أني كنتُ قد شعرت بالحظّ السّعيد في المرّات الثلاث التي انفرد بي فيها من قبل وأنا طالبٌ جامعي ليسمعني صوته، إلّا أنني اليوم أرغبُ في الانفلات، لكن لم أستطع أن أفلت وأعتذر إليه، نادى على القهوجي فأحضر لي كرسيًّا وكوبًا من الشاي، وحكى لي مأساته مع صاحبنا ساكن السطح الذي أخذ منه مبلغًا من المال على سبيل القرض، فشعرت بالصدمة الشديدة؛ لأنّ تفاصيل حياتي الطّلابية البريئة التي انتهت كانت خاليةً من هذه النوعية من المشاكل، وكنت أظنّ أنّ كلّ مَن حولي، ومنهم ذلك الشابّ صاحبي الذي يتكلّم عنه- يشبهونني.

لقد وعدَه بأن يقوده لمُنتج شرائط غنائية؛ ليرعَى موهبتَه ويقودَه إلى سلالم المجد، ومضى من هنا ولم يعدْ ألبتّة، ولم يهلَّ وجهه على المغنيِّ قط وفي يمينه منتِج. وأخذ المغنّي ينفث سجائره في وجهي، وهو يمضغ الكلمات اللزجة بأسنانٍ صفراء، ويحكي لي بصوته النّحاسي معاناته في سبيل المجد والفنِّ، يحاول أن يبدو أحيانًا رقيقًا مهذَّبًا، ويحاول أحيانًا أن يبدو صارمًا مهدِّدًا بشكلٍ غير مباشر، وهو قد كان ودودًا وصافيًا في المرّات القديمة أكثر من هذا، لكنْ يبدو أنّنا عندما نكتسب النّضج لنحمي به أنفسنا، ينسلخ عنّا ذلك الاستلطاف الذي يكسو به الله الأبرياء، الاستلطافُ الذي يجعل الآخرين يحبّونهم ويطبْطِبون عليهم ويخرجونهم من مشاكلهم وأطماعهم وأحقادهم وثآراتهم.

لقد وقع المغنّي على رجلٍ من بطانةِ الشابّ الذي خدعه، وهو يريد أن يصل إليه عن طريقه، وعندما أخبرته أنني ما عدتُ أعرفه وما عادَ يعرفني، نظر لي نظرة مكذِّبٍ آلمتني، وأخذ منّي رقم جوَّالي، وتأكّد منه من خلال الرنِّ عليه أثناءَ جلوسنا، وآلمني هذا كثيرًا؛ لأنَّني عشت السّنوات الماضية كلّها والناسُ يعاملونني على أنني (غلبان)، على أنّني إنسان وديعٌ بلا مخالب ولا يقاتل على أي شيء.

وكلّما هممتُ بالقيام فتح لي موضوعًا جديدًا، أو عرض عليَّ كلماتٍ سيغنّيها، أو أسمعني مقطعًا من أغنيةٍ، أو ترحَّم على زمن الفنِّ الجميل، وكلَّ حينٍ يندبُ حظَّه وغفلته: الله يسامحه، تلك أوّل مرّة يحتال عليَّ أحد؛ وكلما كرّرها كانٍ ينتابني شعورٌ مخلَّط من الإعجاب والحِنق تجاه ذلك الصديق؛ لقد خدع رجلًا ثقيلًا باردًا لزجًا بكلِّ يسر، بينما تعثَّرتُ فيه أنا بغير ذنبٍ كذبابةٍ ورطتْ في شبكة عنكبوت، وكلّ قليلٍ يمرّ أحدُ المارة، ويصافحنا ويقف وقتًا ما يحكي في أيِّ شيءٍ، ولا مانع من أن يستشهدَ بي وبصوتٍ عالٍ غير مبرَّر، يستشهدُ بي على فلانٍ أو حتى على زوجتِه المصرَّة على أن تذهب يوميًّا لبيت أمِّها، يرضيك هذا يا أستاذ؟ لا، لا يرضيني.

وهكذا، حتى ألَمَّ بي الصّداع، وشعرت بأنني على وشك أن أصرخَ وأركل المنضدةَ أمامي وأطلق ساقيَّ للريح؛ والوقت يمرّ، والرجل لا شيء عنده، إنّه يعذّبني بالملل، لا شيء عنده غير أني تعرَّيت أمامه كشابٍ مهذَّبٍ يمكن ابتزازه والضّغط عليه، وبدأ يطيل النظر إلى الأرض ناحية أقدامنا، وقال لي بطريقةٍ لزجةٍ بعد أن أخذ عنواني أنه سيمرّ عليَّ بعد أسبوع؛ ليعرف ماذا صار في أمر ماله أو المنتِج، وبينما كنت سعيدًا بالفرَج والفكاك، إذ بدا لي هذا الميعادُ الذي ضربه كإذْنٍ منه بالانصراف، صدمني بطلبٍ يفتقد للذّوق واللياقة: أن نتبادل الأحذية؛ فلديه حفلةُ فرحٍ سيُحييها الليلة، وحذائي مناسبٌ جدًّا للبذْلة التي سيرتديها! وحاولت أن أردَّه بلطفٍ إلَّا أنني فشلْتُ، وخلعتُ حذائي الجديد الذي اشتريتُه من أوّل راتبٍ وأنا مغلوبٌ على أمري، وارتديتُ حذاءه الرياضي القديم الذي لا يناسب ملابسي الكلاسيكية، وقمْت مهمومًا شاعرًا بأذى وإهانة.

دخلت البيتَ طامعًا في أن أجلس في سطح البيت قليلًا، أتلذّذ بذكرى الحياة التي لم يكن للوقت فيها قيمة، ثمّ أجد الغرفة التي أحببتها مفتوحة، وأجد فيها أصواتنا وضحكاتنا القديمة عالقة؛ أنا أريد الغرفة، والمغني يريد الإنسان الذي كان يسكنها، أمّا الغرفة، والآثار التي بقيت من صاحبي في الغرفة فهي لا تعني له أي شيء.

ألقيتُ السّلام على رجلٍ في سبيله للخروج، كنتُ أراه هنا من سكّان البيت، لم يردَّ، صعدت السلمَ حزينًا من جفائه، ومن نظرته التي تتّهمني، ومن نفوره وانصرافه اللّذيْن يحرمانني من أيّ فرصة

لإثبات أنني أفضل ممّا يظن؛ ووصلت للطابق الأول، كان هناك على باب شقته يفتحها، ذلك الرجل البسيط المضْياف، ألحَّ عليَّ في الدّخول، اعتذرتُ، شدَّني شدًّا، ويبدو أنّني كنتُ بحاجةٍ إلى شيءٍ من الحفاوة بعدما عانيتُ من المغنِّي ومن جفاء الرجل الخارج وسوء ظنّه، وهناك في حجرة الاستقبال، تقاطر عليَّ أهلُ البيت جميعًا، واحدًا تلو الآخر، ثمّ دخلت ابنتهم حزينةً وقورًا، وبدأ الأب والأمّ يحكيان كيف أنّ صاحبي خطبها في الأيّام الأخيرة، وقدَّم لأبيها أوراقه ليساعده في الحصول على وظيفةٍ حكومية، واقترض منه بعضَ المال، وقد كانت تهزّ رأسها المخفض تؤكّد كلامهما، وأنا في قمة عجبي ممّا أسمع.

ثمّ حكتْ هي، وبكلِّ تلقائية، كيف شاغلها وغازلَها وعرض عليها الارتباطَ حتى تعلّقتْ به، وأبواها ينظران إليها بشفقةٍ وحنان، وأصرَّا علي أنْ آكل من الكيك الذي صنعتْه الفتاة، (أصلها ستّ بيت ممتازة)، ثمّ مشروب بارد، ثمّ شاي، وكلّما قمتُ واستأذنتُ، ضغط الرجل على كتفي وأجلسني، ثمّ أصرَّ أن يريني شريط فرح بنت أخته حتى أتعرّف على العائلة، لَم أعرف إن كان يريد أنْ أغري الخطيب الهارب فيعودَ إليهم؟ أم يغريني أنا شخصيًّا؟ وتبدَّدتْ ظنوني شيئًا فشيئًا، عندما خرجتِ المرأة للصّالة لتشاهد صورَ فرح جارةٍ لهم، تبدّدت ظنوني إذ نادت المرأة على زوْجها، فخرج متلهِّفًا ليشاهد الصور، وتلاه محسن، فحسين، فأكرم، فنادية، فعلاء، فألفت، كان مشهدُ خروجهم متتالين بديعًا وموسيقيًّا، ولم يبقَ إلّا أنا وخطيبة صاحبي، وتحرَّجتُ، وتحجَّجتُ، وقمتُ، فنادتْ أباها، فأقعدني بشدّة، وأقسمَ بالطلاق أن أمكث، بل وأنْ أرتدي جلبابًا من جلابيبه، فقلت له: كيف أرتدي جلبابك؟

قال: ماذا بها ؟! خذْ راحتك.

وتعلُّلت بصعودي لأعلى السّطح، فضحك الرّجل، وقال: ليس هنا سطحك ولا صاحبك. وعندما أكّدت له إنني أحبّ جدًّا أن أصعد إلى السطح، ومن بعد أن أصعدَ أعود إليه وأقضي معه يومي كلّه، فأصرَّ على أن ألبس الجلباب لأصعدَ به للسطح ثمّ أنزل لأقضي سهرتي معهم في هذا الجوِّ الأسريِّ، ودخل مسرعًا لغرفته، وعاد بجلباب مقلّم باللّون الأخضر أطول وأعرضَ من مقاسي، ورماه في صدري وحلف بالطّلاق مرّة أخرى. ودخلتُ الغرفة وارتديته مغلوبًا على أمري، وأخذ منّي ثيابي على ما يبدو حتى يضمنَ أن أنزل إليه مرّة أخرى، وعلّقها في خزانته، وقال: إنه سيضع الفول السّوداني واللّب، وفيلم فيديو لـ(أميتاب باتشان)، وخرجتُ وأنا أتنفّس الصعداء، تاركًا خلفي عائلة مضْيافة مسكونة بالفرح، وألفت بنت السّادسة وقد حزَّموا وسطها وشدُّوا جلدَ الطّبلة على النار، حتى علا ضجيجُهم، وأنا أرتقي السلمَ بجلبابٍ طويل واسع مقلّم باللّون الأخضر، وقد مسكتُ طرفَه بيدي، وفي قدمي حذاءٌ رياضيٌّ قديمٌ كريه الرائحة، كأني رجلٌ آخر!

خرج أحدُ سكّان الطّابق الثالث بجلبابٍ بنيٍّ قديم، واستند إلى درابزين السّلم ناظرًا إلى أسفل تجاه الشقة المزعجة في الطّابق الأول، بوجهٍ مائلٍ عابسٍ غائر العينين كأنه أسدٌ عجوزٌ في الأسر، ما كنت أعرف سرَّ هذه الوحشة في وجهه التي طالما تعجَّبتُ منها حينما كنت آتي إلى هنا، صعدت مستندًا إلى الدرابزين ناظرًا إليه، وقد توزَّع عليه الضوء والظلُّ، وهو كان يتفحَّصني، حتى تهلّل وجهُه بابتسامةٍ ضعيفةٍ عندما تعرَّف عليَّ، أخذتْ تتضح شيئًا فشيئًا، كاشفًا عن فم فقد منه سنًّا من أسنانه، وقال بصوتٍ جَهْوري: أنادت الحجرة صاحبك؟ أعائدٌ هو أخيرًا؟ طال انتظارُنا للطّقش المغربيِّ فاتحِ

الكنوز، ولكَ عندي يا وجهَ الخير وزنَك ذهبًا؛ لم أردّ، وبلعتَ ريقي، حتى وصلت إليه قلقًا، ومددتَ يدي المرتعشة بالسّلام، مدّ يده وأصبعَه بتشنج كأنه يشير به إلى كارثةٍ وقد شبَّ على أطراف قدميه الحافيتين، وأخذ يغمغمُ بشيءٍ من (البرهتية) دون أن يصافحني: (بعزة بِرْهَتِيهٍ بِرْهَتِيهٍ، كَرِيرٍ كَرِيرٍ، تَتْلِيهٍ تَتْلِيهٍ، طُورَانٍ طُورَانٍ، مَزْجَلٍ مَزْجَلٍ، بَزْجَلٍ بَزْجَلٍ، تَرْقَبٍ تَرْقَبٍ، بَرْهَشٍ بَرْهَشٍ، غَلْمَشٍ غَلْمَشٍ)، ثمّ زمجر، وسال من فمه اللّعاب، واندفع داخل شقتِه كأنه ذاهب ليأتي بشيءٍ، ففررتُ لأعلى، لا آمن أن يأتي هذا الذي جنَّنه صديقنا بسكّين، وصلتُ للطّابق الرّابع، وقلبي يدقّ بكلّ عنفٍ، وقعدتُ على الأرض، وأخذت ألتقطُ أنفاسي، وأنا لا أعرف إن كان عليَّ أن أنزل لطابق مجنونِ المال، ثمّ طابق مجنون العيال، ثمّ الشارع حيث مجنون الشّهرة، فيتصيَّدوني واحدًا تلو الآخر؟ أم أصعد إلى حيث الحجرة أعلى البناية، حجرة صاحبنا الذي خُدعت فيه.

وأنا في حيْرتي هذه فزعتُ برؤية الرّجل يخرج من الباب ثانيةً متهيِّجًا، يذرع ما بين شقق الطابق كما يفعل أسد عجوزٌ محبوسٌ في قفص، وقمتُ وظهري للحائط، وخفتُ أن يصعد إليَّ يسألني عن الطقش المغربي فاتح الكنوز المرْصودة، ويثور عليَّ ويقتلني، لكنّني اطمأننت بخروج طفلٍ صغيرٍ من داخل الشقة خلف الرجل، وصاح به ليدخل، فدخل الرجل صاغرًا مستسلمًا، فيما مشى الولدُ خلفَه بكلّ صلفٍ وكبرياء!

فانزلق ظهري على الحائط حتى قعدتُ، وشعرتُ بالإعياء والضّعف، علاوةً على شعوري بالخزْي لكوني خفتُ من رجلٍ يخيفه الأطفال، ورميت بوجهي بين كفّي.

ورغم أنّني تعبت جدًّا، لكن تذكّرت أنّني سأرتدي في الصّبح رابطة العنق، وأنزل إلى عملي في وجوم، وأغيب بين الأوْراق السّخيفة والأذونات؛ لذا رجعت مشتاقًا لأن أكملَ صعودي إلى الماضي، خلف وساوس الحنين، رغم كلّ ما عانيت، صعدتُ ببطء وأنا أنظرُ تحت قدمي، وأتخيل أنها هي الأشياء كما كانت، إلّا ما اعتراها من أثر الهجر؛ ملابسه القديمة وقد عملتْ بها العثّة، وصور المفكّرين، وجيفارا على الحائط كلّها اصفرَّت، ومرتبةٌ هابطةٌ لَم تعرض على الشمس قطُّ، ومكتبةٌ من خشبٍ رقيقٍ مليئةٌ بالكُتُب قد نسج عليها العنكبوت، الغرفة يسكنها كلّ أشيائه، حتى ضيقه بالعالم السّخيف كما كان يقول.

رفعتُ وجهي كي أستقبل الماضي ففوجئتُ: أمامي طابقٌ آخر، طابقٌ آخر؟! ورغم أنّ الأمر قد اتضح الآن تمامًا، أن كلّ شيء قد انطمس، إلّا أني في لحظة من الجنون صعدت باحثًا عن الماضي في غير مكانه، وقد ارتجف قلبي عندما لم أجدْ ما أريد في السطح الجديد، لقد انمحى كلّ شيء من ذكرى السطح وذكرى صاحبي كأنهما ما كانا.

عندما نزلت على السّلالم على مهل راضيًا بالحياة، والنّضج، وقد شفيت من الحنين، بالجلباب الواسع المقلّم والحذاء الرياضي، لَم ألقَ أحدًا أبدًا في نزولي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

رجل يرقبُ النمل في استلقائه

ذاتَ مساءٍ، اتّصل بي زميلٌ عابرٌ قد انقطعت أخبارُه منذ ثلاث سنواتٍ، بعد أن عاقبوه في العمل بإنذارٍ أخيرٍ، أُضيف إلى ملفّه المثقَل، لقد مضى يومَها وكتفه يحتكّ بجدار ممرِّ الشّركة الطويل بخطواتٍ متثاقلة، كدابَّةٍ عجوز تنسحب إلى الموت، لم أطِل النّظر إلى هذه الخطواتِ المتداعية، تواريتُ؛ أنا لا أتحمّلها، خاصَّة وقد نُقلتُ لأحلَّ محلَّه، شعَرتُ لحظتها وأنا أنظر إليه وهو يرحل أنَّه ذكرياتي الأليمة التي أعطتْني ظهرَها ومضت، شعرتُ أني أنا بذاتي تلك الحسرة منه على المكان، حسرته التي تباطأتْ وتركته، وتشبثتْ بمقعده بالشركة، أو لعلي فرصتُه الأخيرة التي أُعطِيتْ له بِناءً على الوعد الذي قطعه أمام المحقّقين، متوسِّلًا بأن يبدأ من جديد، أنا حسرته، أو فرصته، رغم أننا لم نكنْ متقاربين على الإطلاق.

حصلَ على رقمي بطريقةٍ لا أعرفها، طفحتُ على سطح ذاكرته فجأةً، فأعاد اكتشافي، وخطر في ذهني أنّ هذا الإنسانَ المنْطوي المَمْرور اختصَّني بهذا الاتّصال الغريب؛ لكوني قد حللتُ محلَّه في الوظيفة، وعلى تفاهة السبب، إلا أنه مُمكن؛ فمِن النّاس مَن لا يشعر بأيّ ضغينةٍ تجاه الأعداء الكبار، حتى ولو حطَّموه وداسوا عليه، لا تطفح منه هذه المشاعرُ إلّا ضدّ مَن هُم في حجمه؛ الكبار اعتباريُّون، والصّغار حقيقيُّون؛ لذا التفتَ إلى هذا الزحام خلفه الذي مرَّ عليه ثلاثةُ أعوام؛ من الوكلاء والإداريّين، والتحقيقاتِ والإنذارات والقرارات، وثبَّت عينيه الضّيقتين كخرزتين من تحت النظارة الطبية على مَن حلَّ محلَّه فقط.

لم تعْطني المباغتةُ فرصةً لأشرح له أنني لم أفكِّر في إزاحته مطلقًا، كلّ ما في الأمر أنهم اختاروا فيَّ موظَّفًا على عِلم بطبيعة عمله ومهامِّه، ولن يبدأ من الصّفر، ولم تعْطني المباغتة فرصةً لأبيِّن له أني أسِفت كثيرًا للإنذار الأخير، وتمنَّيت لو لم يتمَّ اعتصارُه من قِبَل اللّجنة بهذه الطريقةِ التي أخرجتْه مترنِّحًا، وأني تحرَّجتُ من الاتصال به بعد ذهابه؛ لأني عُيِّنتُ مكانه، والأهمّ من ذلك أنني تركت هذا العملَ منذ عامين، ونسيت الكبار والصغار، ولم أذهب ولو مرةً واحدةً على سبيل الزيارة.

لم أستطعْ أن أوضّح أي شيء؛ لأنّه نطق بكلماتٍ قليلة تائهة مبعثَرةٍ في فضاء التشتُّت والاكتئاب، بها شيءٌ من المؤاخَذة، بصوتٍ داكنٍ متشائم، وأنا قرأتُ هذا الصوتَ الدّاكن جيدًا، صوته حطَّ في فِناء الوَحشة المعتم في نفسي كما يحطُّ الغبار؛ وأنا شممتُ تلك الرائحةَ المكتومة لحشرجة الاضْطِرار، تلك الرائحة أعرفها، فاحت لياليَ وشهورًا من صوتي لَمَّا كنت في ضائقةٍ وحدي، عندما أدمنتُ ملحَ دمعي، وكنت أمرِّر يدي الواهنة على الجلد المقزّز اللّزج لزواحف الهمِّ التي تمرُّ من تحت إبْطي، وتلتفُّ حول عنقي، وأشعرُ من سماع صوته كأني أسمعُ صوتي، إنه صوتي المحْزون ينبعث من جُبِّ السنين الخالية.

كلّ ما طلبه منّي بصوتٍ قديمٍ له صدًى هو أن أمرَّ عليه لضرورة، ولم يزدْ على ذلك شيئًا، وارتبكتُ من هذا الطلب؛ فصوتُ المضطرّين موجعٌ ومَهيب ومعذّب، ولا أنكرُ أنّني شعرت بخوفٍ غير مبرَّر، لا مبرِّر لخوفي، وأنا لم أكن بطلًا من أبطالِ قصَّتِه؛ فلا أنا تسبّبت في إنذاره، ولا كنتُ من الشّاهدين له الذين حاولوا أن يلتمسوا له عند الإدارة، كنتُ في خلفيّة المشهد الواجم عندما حمَل أوراقه ومضى. وعرضتُ عليه بصوتٍ مرتبكٍ أن ألقاه مساء الغد، فقال بنبرةٍ فيها يأسٌ شديدُ الابتزاز: ألَا

يصلح اليوم؟ فتعذرت منه، فأعاد: حاوِلِ أن تجعلها اليوم، حاول! وهكذا؛ انجذب مَن يحبّ الاتهام إلى رجلٍ لا يتّهم إلا نفسه، وألقى عليه شبكةً من صدَى صوته.

حاولتُ أن أفرِّغ الوقتَ له، لكني لم أستطِعْ، تكالبتِ الأشياء عليَّ، لم تعْطني الفرصة، قطعتْ عليَّ كلّ الطّرق التي حاولتُ أن أراوغَ وأنْسرب فيها كي ألقاه، وكنتُ أشعرُ بخليطٍ من الأسَف والسّرور بهذا الانسداد، وبخليطٍ من تأنيب الضّمير والتذمُّر، كنتُ متذمِّرًا؛ لأنَّ شخصًا ما، صوتُه ينزُّ لوعةً، قرَّر الاستعانة العاجلة بي بشكلٍ مباغتٍ من دون النّاس، وقد كان لديه فرصة أن يقصدني قبل أن يتدهْوَر حاله لهذه الدرجةِ التي يشفُّ عنها صوتُه وكلماته، احتججت على هذه العُدوانية؛ عدوانية طلبِ المساعدة في اللحظة الأخيرةِ قبيل الانهيار، كأنه يُدينني بالتقصير، ويؤلمني بمشاهدة نهايته.

وفي مساءِ اليوم التالي، كنت هناك عندَ البيت، والمنجِّد يندفُ القطنَ أمام البيت الذي يقطُن أعلاه، وامرأةٌ كثيرة الحليِّ زاعقة الصّوت تحييه: (الله ينوِّر يا أسطى!)، ونظرتْ إليَّ مبتسمة ووشوشتْ ولدَها كأنها تشبِّه عليَّ، استحييتُ ونظرتُ للأرض مبتسمًا، صعِدتُ للسّطح، وجدتُني أدقُّ على بابه بيدٍ مثقَلَة، وفتح البابِ بعينين حمراوَيْن بهما عتابٌ أصابني بالضِّيق، ووقف برهةً بعُوده الذي هزُل بدرجةٍ مخيفة، وحكَّ رقبتَه وهو يتفحّصني، ويُميل رأسه يمينًا ويسارًا، ثمّ احْتَضنني على سبيل المجاملة، وتأسَّف على إزعاجي، وقد تألَّمتُ من حاله وأنا أربتُ على ظهره من بروز عظامِه، ومن رائحة ملابسه الكريهة.

ودخلتُ شقَّته الصّغيرة الكئيبة، التي لا تصلح إلّا لسكنى الأفاعي والزواحف، وجلسنا على مرتبته القديمة في الصالة، التي ما أن مددْنا أرجلَنا بها، حتى كادت تلامس الحائطَ المواجه، أنظرُ إلى ظلَّنا المتوتِّر مع لهب مصباح الجاز الذي أشعلَ فتيله منذ أسبوع بعد أن احترقَ مصباح السّقف، وأحدِّق في بيوت النّمل عند الحواف، والتراب الذي ألقى به النّمل من مخلَّفات حَفْره في سعيه الدّؤوب للاستيطان، وهذا المسحوق الأبيض الذي يحمله إلى الجحور، فيما كان مضيفي يطحنُ الكلماتِ بأسنانه، وهو يعبِّر عن سخطه على النّمل الذي تجرَّأ على المسحوق الأبيض واستخفَّ به وجعلَه وجبتَه المفضَّلة، راغبًا في إغاظته وتدمير أعصابه، وعَزَا ذلك لكونِ هذا النّمل بالتأكيد من نوعِ ملعونٍ رهيب المَناعة، وأخذ يطحن الكلمات أيضًا وهو يعبِّر عن ضيقِهِ من هجوم النّمل المتواصلِ المثابر، الذي يبدو به وكأنه يتصرّف بحريةٍ في مكانٍ مهجور؛ النّمل يعمل بجدٍّ بغير أن يلحظَه، حتى شكَّ في أنه ربما يكون قد تُوفِّي منذ مدَّة، خاصَّة وأنه لم تعُدْ تأتيه أيّ اتصالات في الآونة الأخيرة؛ انقبضتُ من هذا التعبير وتهرَّبت منه، وأشغلت نفسي بالنظر إلى بعض اللّفافات من ورق الجرائد، بها بقايا طعام بدأت تفوحُ منها رائحةُ عفونةٍ خفيفة، وبالتّفكير فيما يمكن أن يسترسل فيه، بهذا الصّوت الذي يُشبه الوسوسة.

وبدأ يتكلَّم ويبوح منطلقًا على بساط الحزن واللّيل والضوء الشاحب لمصباح الجاز، أخذ يتكلَّم عن العمل القديم، ويتذكَّر كلَّ كلمة إشادةٍ ولو بسيطة، وكلّ توبيخ ولو بزفرة، ورئيس مجلس الإدارة لَمَّا قابله في المِصعد وسأله عن الصّحة، وعن خيوطٍ متقاطعةٍ من المؤامرات والفِخاخ المِهنيَّة الوضيعة، ومَن كان معه، ومَن كان ضدّه، وفلان لا وفَّقه الله، وروابط عميقةٍ بين زملاء لم ألحظْها، وعداواتٍ لم أتبيَّنها، كلّ ما كان يحكي عنه لم يكن له أهميةٌ عندي على الإطلاق، بُهِتَ بهذه الحقيقةِ التي صارحتُه بها وشعَر بالحرج، فأكملت لأخفِّف عنه الحرج، بأنَّ عدم أهميته راجعٌ لكوني تركتُ العمل منذ

عامين، فسعِد بذلك، وأخذ يتكلم كأنه يخفف عني ويواسيني، وقال إنّ هؤلاء المناكيد ليس لهم في الطيِّب مثلي ومثلك، فقاطعتُه مرَّة أخرى وأفهمته أني تركت العملَ بمحض إرادتي، فكفَّ عن الوسْوسة قليلًا، وتغابيت عن ملاحظة غَيْرته أو حسرته على نفسه؛ من كونه غادر العمل بعد توبيخِه وإنذاره، ولم يتركْه بمحض إرادته مثلي.

ولأنَّ الحديث عن الشّركة التي كنا نعمل بها وذكرياتها السّعيدة والمؤلمة- لا يُهمني على الإطلاق كرجُلٍ ضعيف الذاكرة؛ إذ كان يضطرّ لتحديد علاماتٍ كثيرةٍ ليذكِّرني بشخصٍ ما أو موقفٍ ما، مثل (سعيد) الذي عمل بشكلٍ عرَضيٍّ، ولمدّة أسبوعٍ بدلًا من زوج عمّته كعاملٍ بوفيه، ولم يكن يغسل الأكواب جيِّدًا، وهيهات أن أتذكَّر (سعيد)، ولكن تذكَّرت زوج عمّته بصعوبة؛ لهذا اتَّجه للحديث عن آخر عملٍ له قَبْل البَطالة، كان حديثه غريبًا عن عمله الأخير الذي يتأوَّه لفَقده، عمِل لدى صحيفةٍ مغمورةٍ لا يشتريها أحدٌ، لها مقرٌّ في بنايةٍ قديمة، ونافذتان على الشارع علَتْهما خيوطُ العنْكبوت، ولافتةٌ خشبيةٌ قد غطَّاها الغبار، ولم تُمسَح منذ عهدٍ بعيد، بجوارها لافتةٌ أخرى لمشروبٍ غازيٍّ توقَّف إنتاجُه منذ نصف قرنٍ، ولم يهتمَّ أحدٌ برفعها، وكان قد استطاع أن يفوزَ للصحيفة الأسبوعية بعقدٍ إعلانيٍّ واحدٍ فقط، ولكنه جيدٌ وممتدٌ، تكلَّم بفخرٍ عن العقد الإعلاني الذي ظفِر به مع تاجرٍ يرتبط به بقرابةٍ بعيدةٍ من جهة الأمِّ، افتتح مصنعًا جديدًا، يصنِّع خلطةً بيئيةً لقتل الحشرات والزواحف، خلطةٌ عجيبةٌ يمكن للإنسان أن يسفَّ مسحوقَها ذا الرائحة العطرية الجميلة بغير أيّ ضررٍ؛ لأنّها من خلاصاتٍ نباتيةٍ وزيوتٍ عطرية، وكان عليه في كلّ عددٍ أن يكتب مقالةً ما عن أيِّ شيء، ويأتي على ذكر المسْحوق العجيب لقتل الحشرات، قال: إنه استمرَّ على ذلك المنوال لمدّة سنةٍ وثلاثة أشهرٍ وأسبوعٍ واحد، وتأسَّف لأنه كان يشعر أنه ما زال قادرًا على المزيد من العطاء، كان في رأسِه المزيدُ من المقالات والقصص التي يعرِّج فيها على ذكر المبيد الحشري العجيب في معرض حديثه عن السعادة الزوجيّة، أو الطُّرق العمليَّة للعناية بشقّة المصيف، أو وسائل تنمية ذكاء الأطفال، لكنّ المصنع أغلق أبوابَه بعد أن مُنِيَ صاحبُه بخسائر كبيرةٍ، وتفرَّغ لتجارته الأخرى، وانهمك فيها ونسي الأمر.

تعجّبت في أعماقي من قدرتِه على الاستمرار طيلة هذه المدّة في أداء عملٍ كهذا واندماجه فيه، ومن حزنِه على تلك الغمَّة التي انزاحت، وما زال يتأوَّه لفقده هذا العملَ الذي أدَّاه باقتدار، ولم يكتفِ بذلك، بل جاء بكلِّ أعداد الجريدة التي تحتوي مقالاته ورماها بجانبي بما عليها من غبار، وألحَّ عليَّ في أن آخذَ فكرةً عن مقالاته، وحمل مصباح الجاز وقرَّبه من وجهي، وأخذ يتابعني بشغَفٍ ونشوة، وأنا أمثِّل الإعجاب مراعاةً لمشاعره، وكلّما أبديتُ رغبةً في تغيير مجرى الحديث؛ وضعَ في حجري عددًا آخرَ وألح عليَّ في قراءة مقالته بهذا العدد باهتمام؛ لأن بها (تكَّة) لن يلحظها إلّا لبيبٌ مثلي، فأخذت أقرأ وأنا أهزُّ رأسي مبديًا الاهتمامَ والإعجاب. والأمر في داخلي كان مختلفًا، تمنّيت لو تخلَّيت عن لطفي وصارحتُه بحقيقةٍ في منتهى الوضوح: الْتهامُ النّمل للمسحوق أمامنا يُسفِّه أيَّ مقالة.

استمرَّ هذا لوقتٍ طويل، حتى ثَقُل رأسي، بفعل المقالات الرَّمادية الحشرية، والضّوء الشاحب، والظلال، وسعي النّمل اللانهائي، ورائحة الصنَّة التي تأتي من عند الحمّام، وما زفره في جوّ الجلسة من أنفاس الاكتئاب وأوجاع الذاكرة الملتهبة، حتى ما عدت أعرف إنْ كنت قد نمتُ أم لا، فتخيَّلته ممدَّدًا تمامًا، وبدأت أتخيل النمل وقد خرج من كلّ الشّقوق، جماعاتٍ جماعاتٍ بالملايين، ومضى

قدمًا إليه، تجمَّع عليه وحمله في نومه، وأخذ يتحرَّك به حركة بطيئة لا تكاد تلَحَظ باتجاه باب الشقة، وآلافٌ منه صعِدتْ على أطراف أصابعه التي نُحِلت بفعل الاكتئاب وأخذت تلعقُها، وفي ذات الوقت استمعتُ للحديث الرَّائق القادم من ناحية الشّرفة لجارتين عن دُخْلة بنت ثريا في الخميس القادم، وخمَّنتُ أنها صاحبة التّنجيد أسفل البناية، وفي وسط هذه الحالة من النّوم المتكدِّر، انتبهتُ على صوت تلفازه القديم على الأرض أمامنا، فتحَ تلفازه فجأة، كان مشوَّش الصورة والصوت بطريقةٍ تسبِّب الاضطراب، وترسخ شعورًا غامضًا بالحزنِ البليد الذي يبعثُه النَّدبُ على رأس جنازةٍ بعيدة، رجوتُه أن يغلقه فلم يستجبْ، فتحرَّكتُ أحاولُ ضبطَ الصورة والصوتِ من خلال الأزرار المتداعية، إلّا أني فشِلتُ فأطفأتُه، وعدتُ أجلس بجانبه، فأخذ ينظر إليَّ كأنه تعجَّب من أنّه طلبني للمجيء بعد أن باعدتْ بيننا الدّنيا ثلاثةَ أعوام، كأنَّ عينيه تسألني عمّن أتى بي إلى هنا، وكنت أقاسمه هذا الشّعور بالتعجُّب.

ونظرَ إلى موقد السّبرتو النُّحاسيِّ لإعداد الشّاي في الزاوية، وإلى البرطمان الزّجاجيِّ الذي به قليلٌ من السكر الملتَصِق بقعْره، واشتكى حتى من أنه لم يعُدْ لديه شايٌ ليضيّفني به؛ قال ذلك بشفتين مضْطَربتين من إشفاقه على نفسه، ربتُّ على كتفِه الواهن العظْم، وسألته عن طعامه، فقال: إنّ هذه اللّفافات الملقاة تحوي بقايا ما اشتراه من طعام، وكان آخرها منذ أسبوع، فأوجعني قلبي وخبطتُ على صدري متعجِّبا من كوْن آخر طعامه كان منذ أسبوع، فابتسمَ ابتسامة شبح، وقال إنّه في الأيام الماضية يسفُّ من العبوة الأخيرة لديه من مسحوقِ الحشرات العجيب، وبكى بطريقةٍ وحشيةٍ مُخيفة، بكى بكاءً مشئومًا على لهب المصباح، وأخذتُ أتطلَّع بذعرٍ إلى ظلِّه مفتوح الفم بعذابٍ أبديٍّ قديم، وقد شوَّش الدّمع رؤيتي، مكثتُ أتطلَّع لظلِّه، حتى صعَقتني نصفُ الحقيقة، وهو أنّ هناك ظلًّا واحدًا على الحائط، ظلٌّ واحدٌ فقط، فتوقَّف تفكيري تمامًا وأخذت أبلعُ ريقي، وأنا بانتظار نصف الحقيقة الثاني، بقلبٍ يكاد يقفزُ من صدري، سأعرف حاضري من ماضيَّ، رجلٌ واحدٌ هنا قد الْتقى ماضيَه، إما أني قد زرت فترةً من الماضي الكئيب، أو زارتني فترةٌ من الماضي السّعيد، رجلٌ واحدٌ هنا، إمّا سيذهب صوب الباب ويخرج ليتنفس الصعداء، أو يظلّ يرقبُ النّمل في استلقائه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

أرض اللواء

في أوائل الثمانينيَّات من القرن الماضي، من بعد حادثة المنصَّة، وفي صبيحة يوم خريفيٍّ مُشْرِقٍ، توقَّفتْ سيارة (بيجو) قديمة تحمل كومةً باهظةً من الحقائب الثَّقيلة، كانت تَنُوء بهاً في سيرها؛ عند إحدى العمائر السَّكنية المُجاورة، وسرعان ما ترجَّل السَّائق ومُساعده، وأخذا يحلَّان تلك الشبكة المعقَّدة من أحبال الغسيل التي تربط هذه الكومة إلى بعضها، ويَنْزِل منها العائدُ من الخليج بهدوءٍ بالنَّظارة الطبيّة الرقيقة، يفرد قامتَه المديدة بالبذلة (السفاري) الزيتيَّة اللّون، يستند على السيَّارة، وهو يقاومُ زهْوَه الذي يتفلَّت منه؛ يقاومه خوفًا من الحَسد، كلَّما شمخ منه رأسُه طأطأه مرَّةً ثانيةً، والسّائق ومساعده يُهَرولان إلى مدخل البيت بالحقائب الثّقيلة، والبطانية (جلد النّمر)، والتلفاز الملوَّن، والمرْوحة؛ ولا يزال واقفًا، ويدُه تقبض على حقيبته الـ(سامسونايت)، كلّما مرَّ بجانبه طفلٌ يجري، أو رجلٌ يسرع الخُطَى، احترسَ وضمَّ الحقيبة إليه شيئًا قليلًا.

ولمَّا تَحلَّق حولَه صبيانُ وصَبايا المنطقة، يمدُّون أيديهم بالسلام، ويطلب بعضهم قرشًا؛ وزَّع عليهم بعض القروش، وهو يبتسم ابتسامةً عريضةً متفائلةً، وراضاهم زيادةً بأن أخرج الكاميرا (البلورايد)، والتقط لهم صورةً فوريَّةً ملونةً، اندهشوا منها كثيرًا، وشعروا أنَّهم في لحظةٍ مشرقةٍ لا تُنسَى، فتلك أوّل مرَّة يتعرفون فيها على الصُّورة الفوريَّة، لا بل والملوَّنة أيضًا، وأخذوا ركنًا، وتلاصقتْ وجوههم وهُم يراجعون أنفسهم في الصّورة بأفواهٍ فاغرةٍ، بينما انسحب هو إلى داخل العمارة بنفسٍ هاربةٍ، وابتسامةٍ مقتصدةٍ!

في الأيَّام التالية من بعد عودته، وبانسحابٍ انسيابيٍّ كانسحاب القوارب على سطح الماء، أخذ وزوجتُه يبتعدان مسافةً من بَعد مسافةٍ من الأهل والجيران والأصدقاء، خوفًا من الطّمع والحسد والاقتراض بغير سدادٍ؛ خوفًا من النصْب، خوفًا من المشاريع التي يعرضها البعض، وقد تَبتلع مدَّخَرات الغربة؛ وكلَّما جاء ضيفٌ يزوره ويبارك له عودته النهائيَّة، وراح بهما الحديث إلى الأعمال والمشاريع، وأشار الضيف إلى أرباح (التاكسي) الباهرة في ظلِّ أزمة المواصلات الخانقة، أو الدخل الوافر لمحلات (الكشري)، أو العوائد التي لا تُصدَّق من محلِّ ملابس صغيرٍ في ممرٍّ (الشواربي)؛ تقلَّص وجهه، وأبدى شيئًا من التجاهل الدفاعيِّ، فيما تُنادي زوجته التي تضع أذنها عند باب غرفة الصالون من الخارج، تعلن عن حملها لمشروب الضيافة: (محسن، البارد)، بصوتٍ حادٍّ محذِّر، تمدُّ حرف السين، رغم أنّ الزوج لا يحتاج لمَن يحذِّره، وربما خَمَّن الضّيف أن (البارد) كلمة تعود عليه لا على المشروب! وهكذا شعرَ الضّيوف من أهلٍ وجيرانٍ وأصدقاءٍ قدامى، وفيهم مَن كان يتكلَّم على سجيّته، وفيهم مَن هو أثرَى منه، شعروا جميعًا بأنّ الخوف على المال، وضعف الإحساس بالثقة، وبعض التبدُّلات المحيطة في سلوك الناس، كلّها غيَّرتْ هذه العائلة، وضربت حولها سورًا من العزلة.

وهذه المسافة أخذها طفلاهما "ناهد" و"شريف" أيضًا، ركبَتْهما عنجهيَّةٌ ظريفةٌ، تليق ببراءة الأطفال، وهما يرتديان (الجينز) الحديث من ماركة F U S، وهما أوَّل مَن ارتداه في أطفال المنطقة، وإن كان المقاس كبيرًا، والحزام التفَّ على الوسط مرّتين، والبنطال مَطْوِيٌّ إلى المنتصف بين القدم والركبة، حتى يُعايش صاحبَه أطولَ مدَّةٍ ممكنةٍ.

يَنْزِلان إلى الشارع في زهوٍ؛ لتلعب ناهد بعروسٍ ببطاريةٍ، تنادي وتفتح عينيها وتغلقهما، والبنات يتملَّقْنَها ويتلطَّفن إليها؛ لتسمح لكلّ واحدةٍ منهنَّ بلعب دوْر الأمومة، حينما تأخذ العروس في حجرها، بينما شريف يذرع الشارع جيئةً وذهابًا بالدّراجة، وقد احمرَّ خدَّاه من الحماسةِ والاندفاع، لا يضع مقعدته على مقعدها، ويتركها كلّ حينٍ للأكثر توسُّلًا؛ ليأخذ جولةً سريعةً إلى أوّلِ الشارع ذهابًا وعودةً، تاركًا حذاءه لديه على سبيل الرَّهن؛ ولقد منَحا أطفال الشّارع لحظةً مشرقةً أخرى خاطفةً، حينما وضعا بين أيديهم، تلك (الكاميرا) البلاستيكية التي بها قرصٌ من الصُّور الجميلة، كلّ طفلٍ يأخذ دورَه تحت إشراف وتوجيهات وترفُّع ناهد وشريف، يلصق عينيه بالكاميرا، ويرفعها لنور الشّمس، ويأخذ في تقليب الصّور بالذراع البلاستيكية، مشدوهًا من المناظر باهرة الألوان.

وخَلْف الحيِّ بعيدًا قليلًا، كانت هناك مساحةٌ خضراء هائلةٌ، استمرَّتْ مزروعةً سبعة آلاف عام بغير انقطاعٍ، غير أنّ أصحابها الفلاَّحين الذين آلتْ إليهم من بعْد القرون، جحدوها وبوّروها وباعوها، مستفيدين من فارقٍ خرافيٍّ بين سعر الأرض الزراعيَّة والأرض السكنية.

تلك المساحةُ الخضراء التي بارت وتشقَّقتْ حتى الأفق، وهاجرتْ منها طيور الحقل، كان يزيِّن وجهَها أرضٌ تُزرَع بالورْد البلديّ، تُمتِّع أعين الصَّاعدين إلى الأسطح والشّرفات بألوانها الزَّاهية، وشذى ورْدها يتسلّل في الفجر حتى أسِرَّة النائمين، يزرعها العمُّ "خليل" النَّشِط البشوش، غير أنه جحدها ورحَل، تاركًا خلفه همهمةً عالقةً باليباب لصوْت ماكينة الريِّ، ولأطفال مدرسة (نهضة مصر) الذين كانوا يمرُّون منها إلى المدرسة، ويلاطفونه: (الدنيا برد، الدنيا برد، وعمّ خليل يسقي الورد).

ظلَّت الهمهماتُ عالقةً إلى أنِ اشتراها "محسن" في تكتُّمٍ شديدٍ، وضرب سورًا حولها.

بخطواتٍ جادَّةٍ واثقةٍ، وبوجهٍ نافرٍ يتحاشَى تحيَّة الناس، ذهب إليها بعلبة الدّهان الأحمر القاني، والدَّلو، والفرشاة، وكتب على السّور بخطِّه الجميل، وبالحجم العريض: (الأرض ملك اللواء عبد العظيم رسلان، وليست للبيع).

زوجتُه خلفه، وجهُها للأرض تضعُ نظارةً سوداء عريضةً كمَن لا يريد أن يتعرَّف إليه أحدٌ، وابْناه يعلو وجهيْهما ملامِحُ التّواطؤ والادّعاء، مرَّ بهما بعضُ الأطفال من زملاء (نهضة مصر)، وسألوهما عن علاقة أسرتهما بهذه الأرض، وعلام يكتب أبوهما على السُّور؟ أجابا بأنَّها أرضُ اللواء عبد العظيم رسلان الذي كلَّف أباهما بِمُتابعة الأرض، لواءٌ قادرٌ على أن يسجن أيَّ أحدٍ في الدنيا؛ أي أحدٍ!

الأب اخترع هذا اللّواء الوهميَّ حتى يُجنِّب أرضه أطماعَ لصوص الأراضي الذين ستصدُّهم تلك الكتابةُ الحمراء المهدِّدة، في زمن يقتل فيه الأخُ أخاه على قيراطٍ توارثاه.

وتمرُّ السّنون وراء سنين، والأطفال في صورة (البلورايد) شبُّوا، والبنطال [F U S] الواسع الطويل فُردتْ ثنيته مرةً بعد مرةٍ حتى آخرها، أمَّا هو فخطواتُه الجادَّة الواثقة نالَ منها بعضُ الوهن، وحصاره حول نفسِه يزداد مَنعةً؛ باتَ رجلًا كئيبًا يكلِّم نفسه أحيانًا في سيره، ثمّ إنَّ زياراته إلى الأرض عزَّت شيئًا فشيئًا، حتى صار يمرُّ إليها مرَّةً في كلّ موسم، والخطُّ الذي خطّه على السّور

يبهت عامًا من بعد عام، والحيُّ يتمدّد، ويزداد ازدحامًا، ويبتلع ببيوتِه الجديدة الأراضِيَ الفضاء، والزِّراعات المتبقيةَ قطعَةً وراء قطعةٍ، إلى أن أنهاها كلَّها، وصارت أرض "محسن" المسوَّرة في قلب الحيِّ بعد أن كانت من خلفه، واشتهرتْ بـ(أرض اللّواء)، صارت علامةً معروفةً توصف بها العناوين، وتُكتب على خطابات البريد.

وتمرُّ السنون، ويهاجر شريف شابًّا إلى أوروبا، متمرِّدًا على نمطِ حياة أهله، الذين يعيشون كما يعيش الموظَّفون الحكوميُّون، مُتوسِّطو الدّرجة، بينما يمتلكون أرضًا تخطَّى سعرها المليونيْن، وقلَّتْ خطاباته ومُكالَماته، حتَّى انقطعتْ، ثمّ تموت الزَّوجة بمرض السكَّر، وما زالت "ناهد" قابعةً مع أبيها بالبيت لم تتزوَّج.

وتمرُّ السنون، حتى صار محسن عجوزًا مغيبًا قليلَ الخروج، ترعاه ابنته، يلعقان أحزانهما فوق (البياضات) التي تغطِّي كلّ شيءٍ في الشقَّة، وناهد تتجنَّب النظر قدرَ الإمكان إلى جهاز عرسِها المكدَّس فوق خزانة الملابس وتحت السَّرير، والذي بدأتْ أمُّها في تجْميعه منذ كانت ناهد طفلةً في العاشرة، وتتهرَّب ناهد من عنوستها المريرة إلى عالَم مضَى، تسحب العروسةَ من خزانتها وتحتضنها، رغم أنَّه أصاب إحدى عينيها العورُ، وكفَّتْ عنَ النِّداء؛ لتضعها في حِجْرها، وتبتسم لها، فتَنْزف منها الأمومة؛ وأحيانًا ما تُشْعل الإضاءة في غرفتها من بعد منتصف اللَّيل، وترفع الكاميرا البلاستيكيَّة إلى النُّور، وتقلِّب في الصُّور البديعة، وعلى وجهها ابتسامةٌ رائعةٌ تضخُّ الدّم في وجهها الذي ذهبَتْ بمائه الأحزان، وفي أذنَيها رجاءُ طفلٍ متحمِّسٍ من أصحاب أخيها، يطلب دوره في المشاهدة.

وفي ليلةٍ نادرةٍ من فبراير ٢٠١١، يسير إلى الأرض بنظارةٍ سميكةٍ جدًّا غير التي كان يلبسها يوم أنْ كتب على السُّور، مضى إليها وهو يحمل فانوسًا، وابنته من خلفه، ليس على وجهها هذه المرَّة ذاك التواطؤُ والادِّعاء، تتأخَّر عنه قليلًا، وكأنّها تفكِّر في الهربِ للخلف، ثمّ تعود وتُهَرول لتلحقَ به، يصل، يقف أمام مكان الكتابة، يقتربُ أكثر، يتحسَّسه بيدِه، يكاد يضعُ عينيه على الحائط، راح الخطُّ وما بقي إلَّا آثارٌ حمراء لا تكاد تُرى.

يعتريه الذُّهول، يرتفع حاجباه السّميكان مغادِرَيْن إطار النظَّارة، يشهق، يسقط الفانوس من يده على الأرض، يفرك عينَيْه، ويُعيد النَّظر من تحت النظَّارة؛ مستحيلٌ، مستحيل، يَفْرك ويعيد النظر مرةً أخرى، يصيبه الدُّوار، يلقي برأسه على الحائط شبه منهار، يريد أن يعرف منذ متى- وباليوم والساعة- سقط عِفْريته من على الحائط؟ منذ متى- وباليوم والساعة- كان مكشوفًا بغير سترِ اللِّواء ولا يدري، ينام مطمئنًّا، وليس له أن ينام؟

وغاب عن كلّ شيءٍ حوله إلّا الحائط، غاب حتَّى عن ابنتِه التي استدارَتْ محرَجةً من التفاف الشَّباب خلف أبيها غريبِ الأطوار، ومضَتْ للبيت، وهي تكلِّم نفسها في طريقها، يائسةً محطَّمةً، لا تعرف أنَّ رحمةً من الله في الطريق إليها، وأنّ أحد المولعين بالاحتفاظ بالأشياء القديمة مثلها، واحدًا ممّن رهنوا حذاءهم عند أخيها في الطُّفولة، سيُقاسمها مُشاهدة الصُّور من عدسة (الكاميرا) البلاستيكية، رافِعَيْن إيَّاها تُجاه النور، بعد زواجهما عن قريبٍ.

يلتفتَ الأب على الهمهمة خلفه، يضع ظهره على الحائط، ينظر إليهم كذئبٍ عجوز أحيط به، وشباب الحيِّ حوله بوجوهٍ مبتسمةٍ متفائلةٍ، تُعاني من إرهاقٍ محبَّبٍ، تعلوهم ثيابٌ زَهِمَة الرائحة، لم يبدِّلوها منذ فترةٍ؛ بهذه الوجوه المرهقة، والرائحة الزَّهِمة، والابتسامات المشرقة، والصّدور التي تعبَّأتْ من هواء الكرامة، كانوا كجنودٍ رجعوا من الميدان منْتصرين، وهُم بالفعل كذلك؛ ومن بينِ هؤلاء المتجمِّعين حولَه شابٌّ ثلاثينيٌّ على ذراعه اليمنى جبيرةٌ، وباليد اليسرى، وأسنانه، وبكلِّ حماسةٍ يُخرج له من حافظته تلك الصُّورة (البلورايد) القديمة، ويُذكِّره بالقرش الذي أعطاه إيَّاه من ضمن الأطفال عند رجوعه للبلد، يهزُّ رأسه، يتردَّد في التبسُّم، يبتسم أخيرًا، تدمع عيناه، يأخذ نفسًا عميقًا، كأنّما أحياه أنه أعطَى يومًا ما، يضطرب أنفه كمَن يلتقط رائحةً، يغلق عينيه تحت النظارة من أثر الشمِّ، فيحرجون وينظرون لبعضهم بعضًا، يعتذرون له من رائحةِ ملابسهم الصَّعبة، فيهزُّ رأسه نافيًا، ولا تزالُ عيناه مغْمَضتان؛ (أشمّ رائحة وردٍ بلدي!).

ويربِّت الشابُّ الثّلاثينيُّ على كتفه، ويقول له: إنّه لا أحد هنا يريد منه شيئًا أبدًا، وإنهم- سكَّانِ الحيِّ جميعًا- يعرفون أنه لا وجود للّواء عبد العظيم رسلان، وإنَّ مَن فعل به هذا وجعل منه رجلًا نافرًا خائفًا مقطوعًا شكَّاكًا، قد مُسِح اللّيلة من حائط مصر كما مَسحتْ أمطارُ فبراير بقيَّةَ عبدِ العظيم رسلان من حائطه، وإنَّ عليه أن لا يبكي على ما فات، بل يبكي فرحًا كما بكَتْ مصر كلُّها، فهُم جاؤوا لِتَوِّهم من ميدان التحرير بعد أن تنحَّى "مبارك" منذ قليلٍ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

الزّحف

جالسٌ على المقهى القريب من بيتي في حيّنا الفقير، في جوّ من الطمأنينة الماكرة، أسترجع بعضَ الذكريات العزيزة ووجوه الذين غابوا، وفجأة، انتبهتُ وانتبه كلّ الجالسين إلى صراخ جارتنا أمّ حسين، التي يعمل ابنها حسين مشرفًا على النّافورات ورشّاشات ريِّ الحشائش في الحديقة العالمية، إنّها تصرخ بأنه قد جاءَها للتوِّ خبرُ مقتل ابنها في الحديقة، وأخذت تقتربُ ناحيتي بغير عمدٍ من بين كلّ الذين مِن حولها، في خطوات كابوسية وهي شبه فاقدة رشدَها، وقد فقدتُ رشدي بسيرها تجاهي بهذا الخبر من دون الناس. وقبل أن أفيقَ من صدمة الخبر الذي تولول به، كان الكلّ من حولي بدأوا يؤكّدون تباعًا على أنه قد قُتِل عمدًا، وبإصرار غريب، دونَ أن يكون عندهم أي توقعات بشأن هذا الذي قتله عمدًا، والأسباب التي دفعتْه لهذه الجريمة، وكان في عيونهم غلٌّ تجاه ذوات يعجزون عن تحديدها، وعلى وجوههم ونبراتِهم المختلفة خليطٌ من الشّراسة والتوتر، الذي يليقُ بوحوش ضاعت في جنبات غابة سرحَ فيها الجفاف.

وأفقتُ على أنّهم بدأوا في الزّحف البطيء وقد جعلوني في المقدّمة، وكنت لا أفهمُ إن كان هذا لأنّ المرأة قد اتجهت إليَّ وهي في لوثتها يسيرُ بها هولُ الخبر وهي لا تدري ما تفعل، أم بصفتي ألصقُ جيران المرأة بين هؤلاء الجالسين على المقهى، أم بصفتي واحدًا من شباب الحيّ المتعلمين الذين كانوا في الميدان أيامَ اندلاع الثورة؛ لكن في العموم كان الأمر يبدو كأنّ النّحس يحطّ في حجر صاحب النّصيب. وازداد رعبي بعد أن تحرّكنا وازداد تقاطر الناس علينا من كلّ حارة، وهُم يحملون العصيّ والمطاوي، وبعض المُسدسات الخرطوش.

ومضيتُ في المقدّمة وأنا أخفي قدرَ استطاعتي أنّني مُجبر، أخفيه هذا الشعور في ملامح حزني على الشاب الطيب الدّمث. لقد تركني شهداءُ حينا الفقير، الذين سقطوا تحت خُفّ الجمل، والذي انفجرت أدمغتُهم بقطع الرخام، ترَكوني بين هؤلاء المنكبّين على لقمة العيش، تركوني مع هذا الذي يسير عن يميني، تاجر الملابس في حيِّنا الذي وصَلتْ إليه البضاعة المسروقة من البذلات والقُمصان من محلّ (حامد عبد الخالق) في ساعات النهب الحَرِجة، فعرضَها في محلِّه، ولكي يعرف الزّبائن قدرها؛ علَّق على محلِّه لافتةً قماشية كبيرة: مسروقات حامد عبد الخالق!

تركني الشّهداء بين هذا العدد المرْعب من المراهقين الفارغين الذين لا يجدون ما يشغلهم، والذين شاهدت كثيرين منهم يجرون في شَبَقٍ حيواني في يوم الفوضى والنَّهب؛ ليلحقوا بهذا الفارس البربري، مفتول العضلات، المنطلق بدراجته الهوائية، وأمامه على الدّراجة امرأة شقراء خطَفها، لا يسترها شيءٌ على الإطلاق، عارية تمامًا، كانوا سُعداء ومُشجِّعين، ويرغبون في سؤاله على الطريقة التي خطَف بها هذه من حمَّام بيتها، وهل من مزيدٍ من الشَّقراوات؟ وعندما أدركوه لاهثين صُدِموا، للأسف كانت مجرّد (مانيكان) مما يُستخدم لعَرْض الملابس في واجهات المعارض!

ترَكني الشُّهداء، مع هذا الذي يسيرُ عن يساري، جارنا العمّ خَلَف العجوز الذي سرَق مايكرويف وزجاجة خمرٍ من أحد الأسواق الشّهيرة المنهوبة في ساعة الفوضى؛ سأل اللصوص عن الجهاز الذي في يده، ولمّا شرح له واحدٌ منهم فائدته، اتّصل ببنت أخته على الجوّال يُبشِّرها بهدية زواجها القريب: "اشتريُت لك ماكرويف، هدية جوازك.. نعم؟ لا، كاش"، ولم يصبر عمّ خلف يومَها على

الزجاجة حتى يعود لبيته، فعبرَ الطريق، وجلس في الحديقة التي في جزيرة الطريق أمام السوق، في الشّارع الراقي، وشَربها حتى أفرغها، وانبطح ونام وكرشُه يعلوه، فسرق منه أحدُ شباب حيّنا النّاهبين تلكِ الهدية (الكاش).. ليستيقظ الرجل ويقول: لا حول ولا قوّة إلّا بالله: عيال أولاد حرام، ماذا أقول لابنة أُختي الآن؟!

ما كنَّا نعرف ونحن متّجهون من أجل الثأر أنَّ الفقيد كان يَفصل بين شابّين يتشاجران في الحديقة، حتى انفضَّت المشاجرة، ومشى بعد ذلك خطواتٍ قليلةً، ثمّ انثنى فجْأةً وهو يُمسك صدره، وسقط على الأرض ميتًا، رغم أنه لم يذهب طيلة حياته قطُّ لعيادة طبيبٍ. وعيون زُملائه من بعيدٍ فزعت من سقوطه، وظنّوا أنه تعرض لإغماءة، ورشَّاش الماء يدور ويدور، ليَغمر وجهه الطيِّب بالماء كلّ قليلٍ، وهُرِع إليه طفلٌ في العاشرة من حيّنا، كان يرقب المشاجرة وهو يشمُّ الكلَّة في هذه الحديقة الرّاقية التي زحَفتْ إليها العشوائية والهمجيّة، كما زحفتْ على أشياء كثيرةٍ في المدينة، وقف على بُعد خطواتٍ من جثّة حسين، ولم يجرؤ على الاقتراب أكثر، واندفع باكيًا متقطعِ الأنفاس، بينما وصلَ زملاء حسينٍ في العمل إلى جثّته، وبعض أفرادٍ من الشرطة، وارتدّ إليها الشّابان المتشاجران وهم يضربان كفًّا بكفٍّ؛ والطفل الشمَّام يجري إلى البوّابة وهو ينظر كلّ قليلٍ إلى الجمع خلفه: "يا ليلة سوداء، قتلوا حسين، عَرقبوه بالمَطاوي، وجَرَحوه في جَنبه، قتلوه".. ووصَل بنعيقِه هذا حتى الحي، وحتى أسفل شباك أمّ حسين.

وصلنا، وأمّ حسين لا تزال تلحُّ علينا أن نأتي لها بحقِّ ابنها، وحولنا عشرات من النّسوة جِئن يُوَلْوِلْنَ ويَنْدُبْنَ ابنها، وخلفنا خمسةُ آلاف شابٍّ من شباب الحيِّ الثائرين، وهي مصرّة على رمي هذا الحِمْل عليَّ أنا أكثر من غيري دونَ مبرّر واضح، بإدامة النّظر إليَّ، حتى ظننتُ أنه ربّما اشتبه عليها شكلي في جوّ مأساتها فخلطت بيني وبين إنسان آخر مقرّب من ابنها، وأنا اتّسقت مع وهْمِها وتصرّفت كأنه لا يبدو عليَّ الدّهشة من رجائها الحارّ فيَّ، ووعدتها في هذا الاتساق بأنّ حقّه في رقبتي ولن يضيع.

وسرعان ما ضربوا العاملين بنقطة قطع التّذاكر، واندفعوا كالطّوفان للداخل، يحطِّمون الفوانيس الجميلة، ويَنزعون شتْلاتٍ لنباتاتٍ نادرةٍ، وأخذوا يضربون ويطردون روّاد الحديقة المحترمين، ويشتمونهم بأفظع الشتائم، ويتهمونهم بالقوادة، ففرّ الناس إلى كلّ ناحيةٍ يحملون أطفالهم، يبحثون عن مخرجٍ ولو من بين الأسياخ! والسلحفاة العملاقة المعمّرة التي لا يوجد على وجه الأرض آدميٌّ في مثل عمْرِها، نزل إليها بعضُ الغلمان، وقلبوها على ظهرها، فأخَذت تنتظر بسلبيَّة- تُثير الشفقة- نهايةً لوضْعها المقلوب، وأنا صرتُ بين جماعتي تلك جسدًا، أمّا نفسي فكانت مُنسحبة، متبرِّئة، أستغربُ ما أعيش فيه، فإن ما وصلنا إليه في طريق الحرية، لا يشبه أبدًا ما كنّا نريد.

وبعد هذا، دخلوا يسألون الإدارةَ المذعورة ورجالَ الشرطة المضطربين عن مكان جثّة حسين الذي تعرض للقتل عمدًا، وأمروهم بتسليم القاتلين فورًا، وإلَّا فسيقتلون كلّ مَن في الحديقة، فأفسح الطبيب لنفسه طريقًا بين رجال الشّرطة والإدارة، وأخبرنا أنه مات ولم يُقتَل، نتيجةً لهبوطٍ حادٍّ في الدّورة الدموية، ووضع في وجوهنا تقريره الطبيَّ، وأنا صدَّقته، وقبل أن أُعيد ما قاله الطبيب لها لننسحب، إذْ بها تصفع الطبيبَ على وجهه وتتّهمه بالقوادة، وحَمَدتُ الله على أنني لم أُعِد ما قاله وراءه، وإلَّا صفعتني معه! وسألتْ أمّ حسين الطبيبَ وهي باكية عن المبلغ الذي أخذه من إدارة الحديقة التي تخاف من تأثير حادثِ القتل على سمعتها ودَخْلها كي يشهدَ بالزور، ودَعَتْ عليه بأن: "يهري الله كَبِدَه على

ضناه"؛ حتى يعرف نارها، واقْتَاده رجال الشرطة بصعوبةٍ من بين الناس، ودفعوه بعيدًا وهو يضع يده على خدِّه خَزْيان مرعوبًا، وهُم يترجّون الناس أن يهدؤوا قليلًا؛ حتى يتبيّن لهم الأمر، فالجثة على أيّ حالٍ موجودة.

وأمسَك الضّابط الميكروفون، وقال لهم: إنّ الأمر يسير، فالجثّة موجودة، وليس بها أيُّ آثارٍ للطعن، فطالبوا بأن تُخرَج لهم الجثّة جميعًا، والآن، ولكنّ مدير الحديقة بكلِّ لُطفٍ وحَزْم- وهو واقفٌ بجانب الضابط- قال: إنه لا يُعقَل أن تُكشَف الجثّة لكلِّ هذا العدد من البشر المتزاحم، وقدْ تتضرّر بين أيديهم بسبب تدافُعِهم، ولكن لتدخل أمُّه وحدَها، وبيننا وبين الحقيقة دقائق.

ذهَبوا بها إلى ممرٍّ حجريٍّ ضيّقٍ طويلٍ إلى نهاية الحديقة أعلى هضبة صغيرة، يحيط به سياجٌ من الأسلاك والنباتات؛ حيث وُضِعت الجثّة هناك في استراحة كبار الزوّار أعلى الهضبة، دخلت أمّه وحدها، ثمّ عادت بعد دقائق هادئة الخطواتِ والنَّفْس، تسأل عن الطبيب لتَعتذر له، وشَكَرتْ لأهلِ الحيِّ وقْفتهم معها، وأخبرتهم أن ابنها لم يُقتَل، وليس في جسده أيُّ جُرحٍ كما قال الطّفل الشمَّام، تتكلَّم وهي على ثقةٍ بأنَّ الأمر انتهى عند هذا الحدِّ، مثلما ظنَّ الطبيب من قبلُ، لا تدري أنَّ العفريت خرج من القُمقم، فهجموا عليها وصاحوا فيها، وأسْقَط النّسوة اللواتي جِئْنَ ليُجَامِلْنَها غطاءَ شعرها، وضَرَبْنَها على رأسها بالأحذية: "بعتِ ابنك بكم يا مَرَة يا ناقصة!؟ اتفوا عليكِ"، فهربتْ مذعورةً في رعاية الشّرطة في حالةٍ من الذهول، وقد اجتمَع عليها كابوسان ثقيلان: فقَدت ولدَها، وفقَدت كرامتها، بينما صِرتُ أنا في كابوسٍ شديد السّواد، أشعر بالغربة العميقة عن هذه المخلوقات الهائجة حولي، المنكرين للحقائق، الغارقين في ظنون الخيانة، الذين يمكن أن يرتابوا حتى في الأمّ الثكلى نفسها، بل أظنّ أنّ هذا الشاب لو أقامه الله لهم ما صدَّقوه.

وطلبوا منّا أن نصبرَ عليهم لدقيقتين لا غير؛ حتى يؤكِّدوا لنا بما لا يدع مجالًا للشكِّ صدْقَ كلامهم، وذهب نفران منهم ناحية الاستراحة مُسرعين ثمّ عادا، وقرَّرت الإدارة السماحَ بدخول مجموعةٍ مختارة من أهل الحيِّ تنوب عن الجميع، ويرضَى عن شهادتها الجميع، وفَرِحتُ بهذا الحلِّ الذي ارتضتْه الجموع، هذا الحل الذي سيُنهي هذا الجنون العصبي الأحمق، لكن ما أذهلني من الجموع التي سمعت العرض الذي قدّمه المدير بكلّ ثقة- هو أنها لا تزال تحتفظ بظنّها ملتهبًا في الخيالات رغم ذلك، فهُم متأكّدون أنه قُتِل. وما أرعبني من بعد ذلك، هو أنّ هذه الجموع هتفت باسمي، فأصابني المغصُ وتحرَّكت بطني، وأخذوا يُقدِّمونني للأمام، وأنا من داخلي أبكي، كأنني بهيمةٌ تُجَر إلى المذبح.

فكَّرت ورأيت أنّ أسْلَمَ الحلول أن أنتقي أشخاصًا من أشقياء الحي، وفُتواته والمسجّلين خطَرًا، حتى إذا ما خرجنا بنفْس النّتيجة التي خرَجتْ بها الأم، نَجَونا ممّا لَم تَنجُ هي منْه، فتصديق جماعةٍ أسهل من تصديق فردٍ، وتصديق فُتواتٍ أسهل من تصديق امرأةٍ ضعيفة، واخترت ستَّة أشقياء هُم من أشرِّ أهل الحيِ سيرةً، واحدًا تلو الآخر، حتى اجتمعوا حولي واثقين من أنفسهم، راضين بهذه (الشّرعية) التي أضْفَيْتُها على نمط حياتهم، ثمّ إني رأيتُ أن أضيف للجماعة رجلًا كبيرَ السِّنِّ محبوبًا، قديم العهد بحيِّنا؛ حتى يحترمه النّاس ويُصدِّقوه؛ واخترت بالفعل واحدًا يعرفه الكبير والصغير، واحدًا سُمِّي الشّارع القديم الذي يسكن فيه باسْمه، على عادة إدارات الأحياء والمحليّات في تسمية الشّوارع باسم

أوّل مَن يسكنها، اخترته، غير أنه رفض، رفضَ ببرودٍ، ولم يقبل إلا بعد أن وعَدتَه بأن أشتري له من مالي الخاصّ جهاز المايكرويف، بديلًا عن الذي سرقه أولاد الحرام!

مَشَيْنا في هذا الممرِّ الطّويل الصاعد المتعرِّج، وأنا أتمنَّى لو أنْ لا نهاية له، والسبعة من حولي يصعدون بثقةٍ وهُم متأكِّدون أنّ الشّاب قد تعرّض للقتل، وأنَّ أمّه قبضتْ، فيما كان العمّ خلف يسألني: "كم سيدفعون للواحدِ منّا في الشّهادة الزور؟".

ها نحنُ أمام الباب، أفتحه ببطءٍ، نلتفّ حول جسده الضّخم الممدد على طاولة البلياردو، نفتِّش فيه، هنا، وهنا، لا شيء، لا شيء على الإطلاق، الجثّة سليمة لا جُرح فيها، وصُدِم العمّ خلف، الذي كان متأكِّدًا تمامًا من أنهم دسُّوا لأمّ حسين في يدها مبلغًا محترمًا، صُدِم لأنه لن يُمكنه أن يشهدَ شهادة زور ويأخذ ثمنها، وببرودٍ أكَّد بعضهم لبعضٍ أنّ الشاب لَم يُقتَل، وقالوا لي كلمةً لائمةً خوَّفتني: ورَّطتنا يا هذا معك. وكنتُ مغتاظًا منهم، أودُّ أنْ أصرخَ فيهم: وأنتم لمَ كُنتم مثل كلّ الجهلة الأغبياء متأكِّدين تمامًا؟!

وفي السرِّ، وبينما نام العمُّ خَلَف- وهو واقفٌ- كنوْم الأيائل المطمئنة، قال أكبر السّتة الأشقياء مقامًا وإجرامًا للخمْسة الأشقياء: إنه لا يُمكنكم على الإطلاق القول بسلامة الجثة؛ لأنّ هذا سيُعرِّضنا لِمَا تعرَّضتْ له أمّ حسين وأكثر، فاتّفق الستة بسرعةٍ وبضمائر مَيتة- وهم يهمسون بينهم- على أنه يجب إصابة الجثّة في البطن والعرقوب، كما قال الطفل الشمَّام، لوقتها لم أعرفْ علامَ اتّفقوا، حتى صرَّح كبيرُهم بصوتٍ ثابتٍ لي وللعمّ خلف بذلك، فأفاق العمّ خلف ولَم يُبدِ معارضةً، أمَّا أنا ففزعتُ وأصابَتْني حالةُ هيستيريَّة، وتشنَّجت وأخَذت أقول: لا، لا، لا؛ فأمْسَكوني من قميصي القطنيِّ المترهِّل، ودفَعوني للحائط؛ حتى ارتطَمتْ خلفية رأسي به، وشعرت بالدّوار، وشتموني شتائمَ مهينة، وأمروني بأنْ أهدأَ وأسكت، وألّا أكون خفيفَ القلب كالنّسوان، حتى يتمّوا عملهم؛ لأنهم الآن سيصنعون الحقيقة، فما الحقيقة إلّا ما يراه الجمهور!

وجَّهت وجهي للحائط وهُم يُصيبونه إصاباتِهم، كلّ واحدٍ من السّبعة له طعنة، والعمّ خلَف يقف آخر الصف ينتظر دورَه بهدوءٍ، حتى تقيَّأت على الشّبشب الذي في قدمي، وعندما سألتهم إن كانوا قد انتهوا، عدَلوا وجهي بعنفٍ وأعْطوني مطواة؛ لأطعن بها الشابّ المتوفى مثلهم؛ حتى نكون كلُّنا متورّطين في الأمر، فنحفَظ السرَّ جميعًا، ويكفي أنّني ورَّطتهم معي، فعاودتني حالةُ الهياج والرّعشة، وأقسَمتُ لهم أني لا أستطيع، لا أستطيع، لا أستطيع، فصفعوني على اليمين والشمال، فانصعتُ وتقدَّمتُ إليه وكلّي اعتذار، وصنعت علامةً خفيفةً على جنبه، فصرَخوا فيَّ، فطَعَنْتُه وأنا أرتعش وقد تصلَّبت رقبتي، وأخذت أصدر أصواتَ اختناقٍ كأنّ روحي تخرج، كفحيح البطّ، ووقَعت على الأرض، أسمع وأنا أنسحبُ للإغماء الأزرق ضوضاء تتّجه إلينا، تعلو شيئًا فشيئًا، ما كنا نعرف أنّ الإدارة ستنتصر في النّهاية، فبعدما حدث للأمّ، وخوفًا من أن يتكرّر التّكذيب والتشكيك معنا نحن الثمانية، فتنفلت الأعصاب ويتطور الأمرُ لما لا يحمد عُقباه، وكذلك تجهزًا لهذا الاحتمال المجنون بأن يعبث قادة الجماهير بالجثّة، فتحت الإدارة كاميراتِ المراقبة ولاقطات الصوتِ في الغرفة، فانتقلتْ للجمهور العصبي على شاشةٍ عريضة مشاهدُ الطّعن الخسيسة على الهواء مباشَرةً.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

خط العنقز

ضرَب مرضٌ وبائيٌّ غريبٌ خمْسَ بلداتٍ صغيرة جدًّا، بيوتها مبنيَّةٌ من التراب، مصطفَّةٌ على خطٍّ واحدٍ بين سهبٍ واسعٍ وترعةٍ، مثل بقعٍ رماديَّةٍ، لا يلحظها المارُّون على الطريق السّريع بسهولةٍ، وهي أيضًا غير موضوعةٍ على أيِّ خريطةٍ. يسكن هذه البلدات عددٌ قليلٌ من السكّان الفقراء المجاهيل المنعزلين، أصابهم الوباء جميعًا ببثورٍ مائيَّةٍ بسيطةٍ، سببتْ لهم حكَّةً، لكنها لم تزعجهم أو تُثِر مخاوفَهم، وقد اعتادوا على أنهم لا يزورون الأطباء إلَّا للضرورة القصوى.

أصابتهم البثور، وما مرَّ عليهم يومٌ من بعدها إلَّا وتساقطوا كجرادٍ تعرَّض لرشٍّ كيميائيٍّ عنيفٍ كثيفٍ، ماتوا جميعًا، وفي ساعةٍ واحدةٍ أو أقلَّ، هذه سقطتْ وقد كانت تعجن، فوقع رأسُها في وعاء العجين، وهذا مات وهو يسقي زرعه، وهذا مات وهو يذرِّي الحبَّ، فانطرح بجانب مذراته، وما بقي هناك إلَّا عصافير دوريَّةٌ وقططٌ، وبهائم في الحظائر تنادي مُحتجةً على الذين تأخَّروا عن رمي العليق، وكلابٌ تنعى أصحابَها بصوتٍ ذاهلٍ قد استغلق عليها فهم ما حدث.

لم ينجُ منهم إلّا بقَّالٌ عجوزٌ يبيع بضائعَ متواضعةً، كالخبز والحلوى واللبِّ والجاز والصابون، اسمه الحاجُّ عارف، غَيْرَ أنه خرف من الصدمة، عندما مرَّ على الموتى حوله في بلدته، ثمّ في البلدات الأخرى المجاورة، فخرج هائمًا حافيًا حتى وصل إلى الطريق السريع، وأخذ يتلفَّت حوله وهو يبدِّل على ساقيه من حرِّ الأسفلت في شمس الظهيرة، وأخذ يشهق كطفلٍ ضائعٍ يوشك أنْ ينفجر من البُكاء، بين السيَّارات التي تعجَّب رُكَّابها من شيخٍ مسيَّبٍ في الطريق السريع، منهم مَن تفاداه ومضى، ومنهم مَن سبَّه، ومنهم مَن توقَّف يستوضح أمره، فإن سأل عن اسمه، قال: أنا المرحوم الحاج عارف، فقد ظنَّ أنه مات!

وقد كان وحده الذي نقل مشاهدَ لا تُنسَى للناس في القرى القريبة، وقد التقطه بعضهم من الخطِّ السريع، بعد أن تجَمْهر عليه كثيرون: فوزية سقط وجهها في العجين، هكذا، وأخذ الدجاج ينقر في أقراص عجين الخبز الشمسيِّ من خلفها، وعَبَّادي- يا ولداه- وقع في جرن القمح، والعصافير أخذتْ تلتقط الحبَّ من فوق جبهته ومن فمه، ثمّ إني رأيتُ شُهدي الصيَّاد، والحوت الذي اصطاده ووضعه على الحجَر، قد تسرَّب أمامي إلى الماء، كان قاعدًا في (هيش) الترعة ميتًا، ينظر للدوائر المائيَّة التي أحدثها الحوت الهارب الفرِح، أمَّا جمل الراوي، فعجيبٌ أمره اليوم، جاع بسرعةٍ لا تُعرَف عن الجَمل، رأيته من فلق البابَ يلوي رأسه ومشفره المضطرب على عنقه، حتى كاد يكسره، إلى أن استطاع أن يلتقط الذّباذب الصوفيَّة الخضراء التي تزيِّن عنقه، وأخذ يمضغ فيها في قمَّة نهمه.

والولدُ رجب الهزيل، الذي يصبغُ شعره بماء الأوكسجين، كان أمام مدرسة البنات، يجلس في السيَّارة (الجيب) الحربيَّة القديمة الخربة، المركونة منذ أكثرَ من ثلاثين سنة، والتي لم يبقَ فيها إلَّا هيكلها الحديديُّ وإطاراتٌ فارغةٌ، والَتي يدَّعي لأصدقائه الغرباء أنَّها سيارته وسيجدّدها عمَّا قريب، ودلَّل على ذلك بأنِ اشترى لها واقيًا من الشمس للزّجاج الأماميِّ، خرج منها وفي يده الكلبُ الصّغير المدلَّل، الذي سرقه من إحدى الاستراحات، وجلس على مقدِّمتها ينتظر خروجَ البنات من المدرسة، يكشطُ في البقعة الحمراء العتيقة على مقدّمة السيَّارة ، لعلها دمُ شهيدٍ، وقبل أنْ أصرخَ فيه وأنبِّهه للموت الذي يزحف، كان قد كُبكِب على وجهه أمام السيَّارة، والكلب الذي راحت أيَّامُ عزِّه، أخذ ينظر

إليه من فوق المقدِّمة قليلًا بمشاعرَ مشتَتةٍ، ثمّ زحف وتزلج من فوقها، وانكبَّ على عظمةٍ صغيرةٍ ووضعَها بين فكّيه، ومضى لا يلوي على شيءٍ، هذا شيءٌ ممّا رأيت؛ أمَّا عني أنا، فأظنُّ أنني متُّ على الكرسيِّ في الدكّان، بعد أن بعثُ للسيِّدة ستيتة لترَ جازٍ.

انتشر خبرُ الوباء بسرعةِ البرق، من فمٍ لفم، ومن بلدةٍ لأخرى مجاورةٍ، ولأنه ترك على الوجوه بثورًا مائيَّةً، كتلك التي يتركها العنقز (الجدريّ ألمائي)، ولأنّ الحاجة الإعلاميَّة لتسمية الأشياء هي أعجلُ من الحاجة العلميَّة المتروِّية، لهذا السبب وذلك، سُمِّي الوباء على عَجَلٍ بـــ (العنقز)، وسمِّيتِ المنطقة الموبوءة التي تتالت فيها البلدات الصغيرة بين سهبٍ وترعةٍ بـ(خط العنقز)، وما هي إلّا ساعةٌ أخرى حتى انتشر الخبرُ في العالم أجمع عن خطِّ العنقز الغامض، وتحدَّثتْ به وكالاتُ الأنباء، نقلًا عن مصدرٍ موثوقٍ: المرحوم الحاج عارف، وصرَّح مسئولو الصّحَّة الدوليون بضرورةِ زيارة منطقة الوَباء في أسرع وقتٍ؛ لتقصِّي الحقائق، واتِّخاذ التّدابير الوقائيَّة اللازمة، فيما نفى المحليُّون وجودَ خطِّ العنقز، وقال أحدُ الخطباء: إنَّ هذا الخطَّ أبعدُ وهمًا من الخطوط التي يقرؤها قرَّاء الكفِّ، وإنّ الخبر لا صرف له مثل عُملة أهل الكهف؛ وقد تجاهل المترجمون الدوليُّون هذا السّجع الذي لن يفهمه أحدٌ، ويحتاج إلى حاشيةٍ، ونقلوا عن المحليِّين صيغةً مقتصدةً مفادها أن خطَّ العنقز لا وجودَ له.

في الصّبح، وبعد أن تمَّ تطعيم كلّ الحضورِ، كان المخرج الكبير الذي جاء بطاقم فنيٍّ عالٍ، يستمع للمرحوم الحاج عارف، يشرح له تفاصيلَ المشاهد الرهيبة للموت الجماعيِّ المفَاجئ، ويُفصِّل له ممارسات الحياة اليوميَّة هنا؛ قد تمَّ تكليف المخرج الفذِّ بإعداد العدَّة لتصويرٍ طبيعيٍّ حيويٍّ من البلدات المتتالية في الغد، يُعقَد بعده مؤتمرٌ ينفي وجودَ الوباء من واقع الزيارة، فاستعان بسكَّان قرى قريبةٍ كمجاميع للتمثيل، عليهم أن يَملؤوا الفراغ الذي خلَّفه الموتى.

ومع التجارب الأوليَّة، التي يتعرَّف فيها لروح المكان، وإمكانات الممثِّلين غير المحترفين، تَخطَّى حاجة التكليف، وتَمرَّد على الطَّرح القنوع، من أجل الفنِّ، الفن الذي بدوره ركع في خدمة الأوطان، وخمرتْ في ذهنه فكرةٌ جهنميَّةٌ: قرَّر أن يستعين بالموتى الذين جُمِعوا ووُضِعوا على أرض أحد الأحواش الواسعة؛ ليكونوا جزءًا من المشهد الذي سيتمُّ تأديته في ظهيرة اليوم التالي، وسيُرى غدًا من سيَّارات الزائرين، وعليه غسلوا وجه فوزيَّة من العجين ومسحوه، وربطوا رأسَها بمنديلٍ آخر مطرَّزٍ بدلًا من هذا المنديل الممزَّق، أمَّا رجب فتصلَّب معهم وثقل في أيديهم جدًّا، كأنه يفضِّل أن يتحطَّم في أيديهم كالخبز الجافِّ، ولا أن يعيد آخرَ ما خَتَمَ به حياته كشابٍّ مغازلٍ، فاحترموا اختيارَه، وجيء برجبٍ حيٍّ نَحيفٍ أيضًا، وصُبغ شعرُه بماء الأوكسجين، وأُجلِس على مقدّمة السيَّارة (الجيب)، وجيء ببنات مدارس، فيما نُصبتْ جثّة بنتٍ حقيقيَّةٍ، اسمُها ولاء، عانتْ عذابًا مريرًا من الفشل الكلويِّ، وفشلتْ في الحصول على علاجٍ على نفقة الدولة، نُصِبتْ في فناء المدرسة في خلفيَّة المشهد، تتدلّى من جانبها (قسطرة البول) وهي تَرفع العَلَم!

ثمَّ مشهدٌ لمشاجرةٍ بين أسرتين؛ بسبب لعب الأطفال، وثمَّة امرأةٌ طلَّتْ من شبَّاكٍ؛ لتُتابعَ المشاجرة، وقد رمتْ بجسمها على الشبَّاك رميًا، وقد استشهدتها الجموح الصّاخبة، وأمّ أحمد الذي أسال الدم من أنف غريمه من أسفل منها، استشهدتها فيمَن بدأ بالخطأ، وبدتِ الشّاهدة غير متحمّسةٍ لشهادة زورٍ، كالتي يضطرُّ إليها الأحياء خوفًا، فقد كانت ميتةً لا تخاف، وهناك أطفالٌ يصيحون من تحت نخلَةٍ فرحين بما تَسَاقَطَ إليهم من رطبٍ، ورجلٌ أعلى النخلة كأنه يقطع العَذْق، ويلعبُ الهواءُ بثوبه، وإنه

لميِّتٌ، وأطفال يسبحون في الترعة، قريبًا من رجلٍ ميِّتٍ يبدو كأنه يدير طنبور المياه، وهكذا مشاهد كثيرةٌ عجيبةٌ يشارك فيها الأموات بجوار إخوانهم.

لم يكن ثَمَّة اختلافٌ كبيرٌ بين وجوه الأحياء ووجوه الموتى، فكلُّهم هَزْلَى وشاحبون، غير أنَّ الموتى كانوا أكثرَ اعتمادًا على أنفسهم، وأكثر ثقةً بأنفسهم أمام المخرج وطاقم العمل، فحَثَّ المخرج الأحياء على أن يكونوا غدًا في جدِّيَّة إخوانهم الموتى نفسها، فإنّ الموتى غير مرتبكين، ولا يَخافون من زوَّار الغد، وغير متواطئين في أداءٍ جماعيٍّ، ورغمَ هذا الأداء الفرديّ الذي يغلب عليهم، إلّا أنه لا أحدَ منهم يتَّصف بالأنانيَّة ويرغب في سرقة الأضواء، والأهمُّ مِن ذلك كلِّه: هو ذلك التجاهل البارع في عيون الموتى، عيون الموتى محنكةٌ لا تنظر للكاميرا، فهل من حيٍّ يمكنه أن يتجاهلَ الكاميرا تمامًا؟

ودارتِ الكاميرا مرَّةً أخرى، وتحسَّن الأداء للأحياء شيئًا ما، ثمّ دارتْ مرةً أخرى فتحسَّن أكثر؛ وهذه الاستقلاليَّة عند الموتى فتنتِ المخرج إلى حدٍّ بعيدٍ، وأهاجتْ خياله كثيرًا، وفجَّرتْ رغبته في إتقان هذا العمل الغريب؛ حتى يكون ساحرًا حقًّا في بلاط السّلطة، وبالفعل، تعظَّم الأداء، وازدادتِ الصورة ثراءً وتفصيلًا وواقعيةً، ولم ينسَ المخرج حتى روائح الطّبخ المنبعثة من البيوت، وتصريف مياه الغسيل، والسّجائر التي يشربها (القصّر) خلسةً في الزوايا الجانبيَّة، وميعادًا حميمًا عند أعواد قصب السّكَّر بين ميتٍ وميتةٍ، قد اعترض المرحوم الحاجُّ عارف عليه، ولكنّ المخرج لا يستطيع أن يتغلَّب على عاداته الفنيَّة.

وفي التّمرين النهائيِّ، كان المخرج يتمنى من فرط ثقتِه بنفسه أن تمرَّ سياراتُ المسئولين الدوليّين والمحليّين ببطءٍ شديدٍ حينما تمرُّ؛ فخسارةٌ كبيرةٌ أن يُشاهَد هذا العمل الذي يحمل أدقَّ التفاصيل، والذي يصعُب التفريق فيه بين الأحياء والأموات، من خلف زجاج سيَّاراتٍ مسرعةٍ أثارتِ الغبار؛ فقد شكَّل بالفعل جماعةً حماسيَّةً وحيويَّةً من الأحْياء والموتى لا نظيرَ لَهَا؛ للدّفاع عن سُمعة البلد، ولتأكيد براعته في خدمة الوطن، وكان هناك أيضًا عددٌ مهولٌ مِن خلفه من رجال الدين والصحفيّين والمذيعين يفعلون ما يقدرون عليه كلّ يوم بصياحٍ لا ينقطع.

وقدِ اندمج الأحياء المَجاميع في العرض تمامًا، واختلطوا بالموتى الذين كانوا على أفضل درجةٍ مُمكنةٍ من الإقناع؛ بسبب خليطٍ رائعٍ من قوَّة الخيال، وصنعة (الماكياج)، والدّعم الفنِّيِّ الذي منح الموتى أدواتٍ للحركة إن تطلَّب الأمرُ ذلك، كهذا الذي يَبدو وكأنَّه يُدير الطنبورَ، أو هذا الذي يَبدو من بعيد ماضيًا خلف الثّور الذي يَحرث أرضَه، وذَهب عن الأحياء المجاميع هذا الخطُّ الحيويُّ الفاصل بينهم وبين زملائهم الموتى، حتى إنَّ بعضهم قد قلق على نفسه، وظنَّ أنَّه ربَّما من الأموات الذين سيُجمَعون بعد هذا العرض في الحوش، مثلما تُجمع عرائس الخشب بعد انتهاء العرض، وتُركَن في عالم السّكون والعتمة، ولَمَّا نادى المخرج في مكبِّر الصوت، ونقلتِ السمَّاعات نداءه في كلّ البلدات الخمس، نادى راضيًا شاكرًا بإيقاف العمل اليوم، ودعاهم لعشاء الكباب الذي لم يذوقوه من قبل، جروا باتّجاه الموائد العامرة، فرحين بالطعام الشهيِّ، وفرحين؛ لأن جريَهم إلى الطعام كان حدًّا فاصلًا بينهم وبين الموتى، الذين لم يبرحوا مواقعَ التصوير في البلدات الخَمْس، لقد أكَّد لهم جريُهم للطعام أنَّهم أحياءٌ يُرزَقون.

المرحوم الحاجُّ عارف وحدَه قد تردّد وقتًا ما، بين أن يذهب للكباب أو يمكث بين الموتى، حتى قام له اثنان، ومضى بينهما إلى الطعام، ولَمَّا أكل الكباب لأوَّل مرَّةٍ بعد ثمانين عاشها في الفول والعدس والكرَّاث، أيقن أنه حيٌّ وشُفي من وسواسه، وتوقَّف أخيرًا عن سؤاله المتكرّر للمخرج: متى إن شاء الله سيتمُّ غُسْلي؟

أكَل المخرج بينهم قليلًا، ثمّ وضع منشفته على منْكَبيه، ومضى يدندنُ وخلفه مساعده الشابُّ، وتوجَّه إلى طلمبة ماء عندها امرأةٌ من المجاميع، فضخَّتْ له المياه؛ ليغسلَ يديه وفمَه، فقال لمساعده متباهيًا بصنعتِهِ في الناس: أحَيَّةٌ هذه أم ميتةٌ؟

: صدقتَ يا عبقري، لقد جعلت التَّمييز صعبًا، فعشنا ورأينا ما لم نَرَه من قبل، الموتى يُمارسون حياةً طبيعيَّةً كانت حكَرًا على الأحياء.

قهقه المخرج، ثمّ قال: يا منافق، ألم يصوِّتوا في الانتخابات من قبل؟!

وزاره جماعةٌ من الإعلاميّين والمغرّدين الوطنيّين والمطربين ورجال الدين، وكانوا- رغمَ وجوههم التي تبعث على الشّعور بالثقة والاحترام- يتعاملون مع الغشّ والإخفاء والتمويه دون أيّ شعور بالخزي والتفاهة، وودّعهم بعد أن باركوا له جهدَه النبيل بأصواتٍ بدا عليها التّأثر الشديد، وبعد أن وضع الشيوخ والقساوسة أياديهم على كتفه في لحظة الوداع وأثنوا عليه بالآيات.

وقفز المخرج بعد أن مضوا إلى الأرجوحة الشبكيَّة التي نُصِبتْ له بين شجرتين، وأخذ كلبُ رجب في حضنه، فقد وجد فيه الكلبُ عزاءً وترضيةً عن أيَّام الجوع والحرمان التي عاناها مع رجب، ووعدًا بحياة تصل ما انقطع، وأخذ يَمسح وجهَه فيه، كطفلٍ ينعمُ في حضن أبيه العائد بعد غيبةٍ، وشرد المخرج في حياة الأضواء التي عاشها طيلة عمره، حتى تبدَّى على عينيه لمعةٌ وسنى من الأنسِ والتذكّر والرضا، لمعةٌ تختزل عمرًا من التصفيق والجوائز والدروع والفلاشات، حتى ثبتتْ هذه اللمعة بصورةٍ غريبةٍ على عينيه طيلة الليل.

مع ضوء الفجر اللطيف وضبابه وبرْدِه، وفيما كان الكلب نائمًا في بلهنيَّةٍ في حضن آخر أصحابه، وفيما لا زال رجلٌ على جذع الشجرة يقطع العَذْقَ، ولا أطفالَ من تحت النخلة يَجمعون التمر، وآخر يدير الطنبور بلا كللٍ، ولا صِبْيَةَ حوله يسبحون، وفوزية على عجين الخبز منكبَّةٌ، والتلميذة الميِّتة ترفع العَلَم وتتدلى منها القسطرة، وامرأةٌ تطلُّ من الشبَّاك على مشاجرةٍ قد انفضَّتْ منذ عشر ساعاتٍ، أضاء مساعدُ المخرج المصباحَ القويَّ وصوَّبه ناحية المخرج؛ ليوقظه، وصعد إلى الكاميرا العالية وأدارها تجاهه مُداعبًا، وساقها إليه بين الشجرتين وهو يراه مفتوحَ العينين لا يَحفل بوجوده وندائه الخفوت، وأخذ يضبط عدسةَ الكاميرا؛ حتى يقرِّب صورة المخرج، حتى قرَّبها كثيرًا إلى عينيه وقد باتت فيهما اللمعة منذ الليل؛ وشهق شهقةً مرعبة، فقد بدتِ العينُ في العدسة كبيرةً جدًّا وشعيراتُها الدموية نافرةً، ولونها العسليُّ زاعقًا، ونملةٌ تَمشي عليها بغير أن ترمش، وآمن الرجل بأن موجة ثانيةً من الموت قد وصلت إليهم قبيل أن يصل العالم الذي أرادوا أن يخدعوه بكلّ سذاجة، موجةٌ جاءت لتحملهم جميعًا واحدًا وراء الآخر، وتعود- بكلّ استخفاف- بكلّ هؤلاء الذين أرادوا أن يجعلوا مواهبهم تغطي على الحقيقة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

المخبرُ في فِتاقه

بعدَ منتصف الليل، وكوجهِ شبحٍ مُستتر، حريصٍ على الغياب عن أعين الفضوليّين، كان وجهه الضخم يُطِلّ بجَنبه من زاوية مُعْتمة إلى الشّارع، من نافذته الخشبية القديمة المُواربة في الطابق الثاني.

الظلّ الذي غمَر معالم النّصف الظّاهر من الوجه الضخم، والشّعر الحليق النّابت كالعُشب المقصوص الذي يَظهر من تحته جلدُ رأسه، وغَمْرُ الهالة السّوداء حول العين الغائرة، جعَل له إطلالة غريبة في عين مَن ينظر إليه بمَحْض الصّدفة من العابرين، كأنّها بالفعل إطلالة شبحٍ كبَّلته حادثة قديمة، فظلّ يَسترجعها وحْده كلّ حينٍ من مَكمنه، أو في أحسنِ احتمالٍ هي كإطلالة مجنون وَقور مُسْتَسلم، مرَّت به السّنون هنا تحت تحفُّظ أهله الذين منَعوه من النزول للضّوء والشارع.

إنّه المخبر المتقاعد عند نافذته، المخبرُ المتقاعد الذي كان إلى وقتٍ قريب أحدَ العناصر المتوحشة والمخلصة في جهاز الأمْن الرّهيب، المتوحّد هنا بعد أنْ رحَلت زوجته، وبعد أنْ أصيب بالفتاق، ترَك على الطاولة الخشبية الملاصقة لسريره كوبًا من شاي، يتصاعَد منه البخار، وقرصًا محشوًّا بالعجْوة، وترَك على حرف الطاولة دفترًا قديمًا مفتوحًا، بغلاف أخضرَ من ورقٍ رديءٍ، على صفحاته التي أصابها الاصفرار من آثار بُقَعٍ مائية، كان من ضمن ما أصابه المطرُ قديمًا في مخازن الدّاخلية، فأخذه ممّا استغْنَت عنه المخازن، وعلى الدّفتر المفتوح أنبوبة قلم جافّ من ماركة (بيك)، بسنٍّ عريضٍ تجلَّطت عليه نقطةٌ من نزيف الحبر، فقد تحمَّس حماسة طفوليّة لكتابة خواطره، مقلدًا بعضَ المثقّفين المعتقلين الذين كانوا يُثيرون استعجابه باشتهائهم لورقةٍ واحدة ولو كانت ورقة بَفْرة، وقلم رصاص في حجْم عقلة الأصْبع، ويثيرون استعجابَه بتلك اللوعة- وهُم فيما هُم فيه من هوانٍ- على ما بَرِق في أذهانهم من خواطرَ وأبيات شعرٍ طارَت، ولم يتمكّنوا من تدوينها.

ما أغراه بالعزم على الكتابة هو شوقُه الجنوني للإنجاب، فقد أثاره ذلك الحزنُ العظيم الذي عاناه هذا الكاتب المعْتَقل شديد النّحافة، أخذ يعوي عندما صادَروا بعضَ أوراقه التي كتَبها في الظّلام، كان يعوي طوال الليل ككلبةٍ نهَب الصِّبيَة القُساة جِراءها حديثة الولادة، وتركوها للدّمع وللأثداء المُمتلئة بغير داعٍ.

اقتحَم عليه حُرمة حزنه السّوداوي، واستفسَر منه بصوتٍ خفيضٍ بنَبرة مكابرة تُخفي فضوله، إن كنّا نشعر حقًّا بأن هذه الأشياء الجليلة- التي تَهبِط على رؤوسنا لنَكتبها ولوْ في الظلام- كأنها الولد من الصّلْب، فهزَّ الكاتب رأسه معترفًا، وبغير ملامح الشّكوى، فهو لا يَطمَع في المواساة من المخْبر متقلِّب المزاج، وإن فاجَأه هذا السؤال الرقيق الشّغوف، واستدار المخبرُ ببطءٍ، وفي ذهول أهل الشّوق والوَله، وانصرَف بجسده الوحشي وبغنيمة من الوعد أبى أن يَشكرَ الكاتبَ المعتقل عليها.

له أشهرٌ وهو يَفتح الدفترَ أمامَه تحت إلحاح فوْرةٍ داخلية جيَّاشة، تَضطرم فيها الصور والحكايا والعذابات، وإلهام المُراقبة السريّة، والعَفَن المُنبعث من الأحقاد القديمة المتراكمة، غير أنّ كلّ هذا لم يُسفر عن شيءٍ حي، فكلما ألقى ما عنده على الأسْطر المُتهيّئة، نزَل بغير حياة، فشطَب أغلبَه بغير أسفٍ، آملًا في أن يكون له في القادم ذريَّة من الكتابة.

كان قد ترَك طاولته التي كان يَستندُ إليها بمِرفقيْه وهو جالس على حرف سريره، وتحرَّك في جلبابه الحائل اللون، وفي آلام فِتاقه، يَرقُب المارّين في الشارع من فُرجة حَذِرة في نافذته الخشبيّة الهالكة في الطابق الثاني، باهتمام خاصٍّ بكلّ شيء عابر، فقد تعثّر بالتّفاصيل التّافهة للحياة في فراغ أوقاته الواسع، الذي يقضيه في جِلسة المقاهى منفردًا، وفي متابعة البرنامج اللّيلي الطويل للدّكتور توفيق عكاشة، وفي التّحديق في ساعة حائط قديمة ألمانية صناعة ١٨٩٠، نهَبها من بيت أحد المعْتقلين، ورمى بها من الشُّرفة هي وحذاءٌ جديد من جلد تمساح طبيعي، لم يَنتعله صاحبه، على كومةٍ من الرّمل أمام البيت الملاصق الذي ما زال تحت الإنشاء، خلف السّور الخشبي المُهلهل الذي يَستر موقع العمل عن الشارع، ونزَل وتعذّر إلى سعادة الضّابط أثناء المغادرة: (عايز أعمل زيّ الناس لا مؤاخذة)، فمضَوا بالمُعتقَل وترَكوه، واقتحَم الظّلام الكهفي القابع في البناية بكشّافه الضوئي الذي يُصدِر خيطًا رفيعًا من الضوء، وتحسَّس حتى عثَر على شيكارة أسمنتٍ فارغة، قطَع منها ورقتيْن، وفكَّ حزامه تحت عمودٍ عريض أخَذ يدقُّ عليه، مستنكرًا ذلك الإسراف فيه في الأسمنتِ والحديد، وقعَد يقضي حاجته من تحته على مَهَلٍ، وهو يتشمَّم رائحة الخرسانة الجديدة، ويَلعن هؤلاء الذين أكلوها والعةً، يَبنون الأبراج بالأسمنت المسلّح فوق العشرين طابقًا، كأنهم يطبعون النّقود، ونحن من أجل دهان الشّقق نشترك في الجمعيّات.

سكت قليلًا ثمّ بدأ في استخدام الورقتيْن وهو يَلعن الغبيّ هذا الذي أُلقِي القبض عليه منذ قليلٍ، يَسكن في مثل هذه المنطقة الرّاقية، ويمتلك زوجين من جلد التّمساح، ويُعرِّض نفسه للاعتقال من أجْل مطالب عُمَّال المحلة المشحَّمي الثّياب! حلال فيه الضُّرب والسرقة، حتى يفيق ويَحمَد ربَّه على النعمة.

خرج بكلّ نشاط إلى الجهة التي رمى فيها السّاعة والحذاء، برَك عند الكومة الرّملية الكبيرة، وجلس على رُكبتيه في الظّلام يَمسح الرّمل ناحيةً ناحيةً وهو يَبحث بكفَّيه الضّخمتين، وقَعت كفُّه على السّاعة بعد قليلٍ، فجمَعها بحفاوةٍ إلى يده وحضنه، وتولّى البحثَ عن الحذاء بكفٍّ واحدة إلى وقتٍ أطول، حتى عثَر على فردةٍ واحدة، حشَرها في حزامه العريض، يفتّش من حولها عن الثانية، ويفتِّش، ويفتِّش بغيظٍ، ولا فائدة، أصابه الغضب وهو يَنسحب من المكان قبل أن يَغمُره غَبَشُ الفجر حاملًا السّاعة والفردة عائدًا إلى منزله؛ وقد تعرّض لصدمة عندما دخل شقته مسرورًا يومَها ليفحص الغنيمة، فقد وجد أنّ السّاعة قد فَقَدت في حادثة الارتطام دِيكَها وعقربَي الدقائق والثواني، ولم يَعد هناك إلّا عقرب الساعات البطيء، المُمل في المتابعة.

وها هو يَستدير بعد أن ألقى نظرةً من نافذته إلى العابرين بوجهه الغريب كوجهِ شبحٍ حبيس، يَنظر في عقرب الساعات الذي عند الرّقْم ١٢، ويُخمِّن هو بشأنَ الدّقائق: إذًا، السّاعة الآنَ هي الثّانية عشرة والنصف إلّا خمسًا؛ فراغ، فراغ عريض من بعد حياة مهنيَّة طويلة، قضاها ينظر في عَتمة الأقْبِيَة الرطبة في الضوء الخافت للكشاف، في وجوه المعتقلين الشّبحية التي تَنتظر الفرَج المعلّق وقد علّتها معاناة كأنها منذ عالم الذرّ، وهو أبدًا غير شيء واحدٍ لم يكن ينتظر شيئًا.

عذابُ هؤلاء مثل عذابه، كأنّه كان بلا بدايةٍ أو نهاية، عذابهم يوميَّاته المألوفة التي كانت تُلهيه عن عُقمه ومائه الذي يَقذِف به صلبه ميت الحيوان، والموت فرَّق بينه وبين زوجته، زوجته التي افترشَت معه رحابَ اليأس الأخير وعدم الانتظار، منذ انقطاع حيْضها الذي فضَّ مهزلةَ الأمل، ماتتْ

صابرين، أنيسة الفراغ التي عاشت معه راضية تحت عقرب السّاعات بطيء الحركة الذي كان فألْهما، راح الإنسان الوحيد الذي كان يؤمن بأنّ هذا المخبر يَملِك تحت هذه الشدَّة والجبروت قلبًا أبيضَ، راحت وبقِي هنا يَبيت وحدَه فوق السرير، كما يَبيت فألُه من أسفل منه: فردة حذاء من جلد تمساحٍ ستبقى وحدها.

بعد أن ترك النّافذة، أخذ يتقلَّب في سريره النّحاسي القديم في هناءَةٍ، تحت الصّورة القديمة له في (أنشاص) أيام فرقة الصّاعقة التي اجتازها مع زملائه في صدر شبابه، يقف واثقًا بينهم بوجهه المربّع عريض الذّقن، وشاربه العريض النّازل على جانبي فمِه، وفانلة الألعاب البيضاء التي يكاد صدرُه العريض يُمزِّقها، وسروال الرّياضة الزيتي، وحذاء (باتا) القماش.

تعلوها صورةٌ نصفية قديمة جدًّا، يَسيل منها نورها الشّعشعاني، من وَهَج الأشواق وبدائية التصوير، الْتَقطتها كاميرا صندوقيّة لرجل في الجبّة والقفطان، له رقبة فولكلورية طويلة بارزة الحنجرة، وفحصة ذقن غائرة، تَعلوه عمامة عالية، ينظر إلى لا شيء، مولانا الشّيخ أحمد قفَّاعة، خليفة سيدنا أبو الشخاليل، هيمان بعينين ضيقتين، أجْهَدهما طولُ البكاء وجَهْد الرياضة الصوفية، وجائحة الرّمد.

وتراءت له في الأحلام، كما تراءت له في أحلام الليالي الماضية، زوجتُه صابرين التي أصلَحتها المنامات، فعادَت صبيَّة مُتغنِّجة الصّوت، يَنبعث غناؤها من الحمّام وهي تَستحم: (جاب لك إيه يا صبيَّة حبيبك لَمَّا عاد؟)، تَخرجِ من حمّامها مُتورّدة الخدَّين بقميص نايلون برتقالي اللّون، في البخار المثير والرّجاء الطيِّب، والطلّب المُتهتِّك الذي في عِطر الياسَمين الرّخيص، تَسبقه للغرفة غَضَّة مُتثنِّية، وتُغلق من خلفها الباب برفقٍ وهي تَبتسم له، مليئة عيناها بالوعد والدّلال، يَمسح على شاربه، يرفع حاجبَه، ويَهصِر مقبضَ الباَب في يده وهو يديرُه بأنفاس مُحرقة، مستنفرًا على قائمتيه كحصانٍ بريّ سيَنطلق في السّهوب القارية، يَقتحم عقبة بابه المُوصَد، يَنفتحَ معه على تنهُّدات الشّبق الرسمي، على دقّات أحذية الجند المُنطلقين في حملة نزول عاتية كريحٍ، كريح تملأ الدّنيا بأعمدة الدخان، كريح تَقتلع الأشجارَ وأعشاش الطيور الآمنة، وأقراص العسل في أكنان الجبال، وتُطفئ لَهَبَ الفتائل في الإسكندرية، وتلقي بالدّيوك المُؤذنة عند الفجْر من أعلى الأسطح في حيّ الحسين، وتُضلِّل حتى الحمير الأهلية في ريف مصر عن مقاصدها، وتَردِم أعينَ الماء في الفيوم، وتصدُّ سَيْر الهاربين السّائرين إلى المغارات البعيدة، حتى تَنقطع سيور أحذيتِهم فوق الوَعْر، ومجازات الشّوك، وأوْدِية الحصى، قبل أن يبلغوا.

إنّه اليوم لا يومَ بعده، (ويكون في ذلك اليوم أنه يُصفر للذّباب في أقصى ترَع مصر)، تَنكسر فيه عِصِي الزبانيَة على ظهور المقبوضين، ويرى يومَها ما لم يرَ، ويرى نفسه في شدّة الالتحام أسدًا بَشِعًا، أسدًا ركِب بجسده على الرجل الذي صدرَ له أمرُ اعتقال، الرّجل القوي الذي كاد يَنفلت منه ويقفز من النّافذة، يَعَضُّه في أعلى الرقبة، فيَستسلم من تحتِه استسلامَ فريسةٍ هرَبت دماؤها وخارَت أعصابها، فقط صرَخ صرخةً قصيرة مزَّقت عباءة السَّحَر، كانت مثل زقاء الطواويس.

ها هُم يُلقون بهِم أمامهم على السّلالم، يُطاردهم صراخُ النّساء المذعورات، واستغاثة الأطفال الذين بالوا على أنفسِهم، باتّجاههم إلى عربات الحمْلة التي تُغلق أبواب العمائر، المحرّكات العفيّة ترجُّ العربات الشامخة الوقوف رجًّا، تكاد تحرِّكها من أماكنِها، وأصواتها الفاحشة تردِّد في فضاء الأحياء

المنْهزمة الخائفة: دِب، دِب، دِب، دِب، وكأنها تنبعث من هزّات جماع، نشوة وادعة هذه بغير أفيون، استرسال رائعٌ ذلك بغير حجر جهنَّم، بغير لَحس الدِّبْق الذي على حديد الأولياء، ثمّ ها قد حانت لحظة القذفِ العارمة، ها هي الزّنازين النائمة على سكينة الأدعية القديمة المكتوبة بالدّماء (يا ربّ)، تَضطرب كالأرحام، ها هي تَنقبِض وتَنبسِط من هَرْجِ المذْعورين في الممرَّات الطويلة، وصليل السّلاسل والأنكال، وتَنفتح واحدة وراء أخرى، كأنها تلبي نداءً حيويًّا مختومًا، فيتعلّق بها علَقها المكتوب جِنْسُه، اثنان لا ثالثَ لهما، رجل صارخٌ أو رجل أبحَّ صوتَه الصُّراخ، وتتغلق على الوهَن والظلام، وعلى آدمي فرَغ من حفلة التّعذيب ولم يَفرُغ من آلامه ومِن ذهوله، يَقعد في قلّة حِيلته وعرائه، يفتح فمَه ويُغلقه ببُطءٍ، متوجِّهًا برأسه لأعلى بعينين مُتورّمتين مُغمضتين، كفرخ عصفور لم يَنبت له الرُّيش سقَط في السّيل عشّه، آدمي مُستضعف لم يجدْ شيئًا يفعله في فراغه المؤقَّت إلّا أن يَمضَغ الدم المتجلّط في فمه.

وبعد أن فتحَ الباب، وبعد أن ضمّت ما ضمَّت، يَغمرها الشّعور بهذا الاكتفاء والصدود الذي تَشعر به العِشار، فتلتَقِط أنفاسها، ويَلتقط المخبر أنفاسَه في الظلام بعد الحمْلة الضارية، وعيناه الشاردتان تعتادان على الضوء الخافت، فيتكشَّف له شيئًا فشيئًا وجهُ صابرين وقد استردَّت صباها من بعد الموت، بجانبه على السّرير تحت الصورتين في ضوءِ المصباح السّهّاري، الضوءُ الأحمر الخافت الذي أضفى على ملامحها الرّائقة لمسَةً من المعاناة كالتي على وجوه المعتقلين، وجعَل لضَحِكها الرّقيق الصوت النَّشْوان خيالًا من نبرة البكاء، أمّا الهالة السوداء حول عينه الغائرة، التي غاب في عتمتِها الحاجب الخفيف الرّمادي- فجعَلت وجهَه في هذا الضوء الأحمر الياقوتي عندما وضع رأسَه على ظهر السرير وشرَد، كأنه وجهُ رجلٍ مات للتوّ.

وها هو يُحدِّق بعينيه المُحاطتين بالسّواد في بقعة زرقاء في أعلى رَقبة صابرين، بقعةٍ اختلَط عليه أمرها، أوّل ما تبيَّنها سرَحت في أعماقه صرخة هاربة، صرخة الـ..، نعم كأنها هي، كأنها صرخةُ الرّجل القوي الذي اعتلاه وعضَّه، فيما انشغَلت يدُها البضّة البيضاء بمنديلِها القماش، تَعتني بنفسها وتَمسح عرقها، كقطّة منزلية تَلعَق جسدها وقد غمَرها الشّعور بالرضا والإشباع، فأدار المسجّل بجانبهما على صوت المدَّاح الشّيخ أحمد التوني يَصدَح (خضر العمايم وأنا نايم ندهوني)..

وأخذ لونُ البقعة يَبهُت شيئًا فشيئًا، وانصرفتْ عن الغناء في الحمَّام وارتداء النايلون، وشدَّتْ على وسطها، ومالت إلى لُبْس البناطيل الكستور تحت جلابيبها، وبدأت تتأفَّف من رائحة دُخَانه على غير العادة، وتشعر بالغَثيان والرغبة في التقيُّؤ، واشتَهت طينَ الحقل، فأكَلت منه ما عَلِق على جذور البصل والبطاطا والبنجر.

أيّام سعيدة آمنَا فيها وتكتَّما إيمانَهما أنّهما مجبورَا الخاطر هذه المرَّة، تَكتَّماه تمامًا عن كلّ الناس، ثمّ استبدَّ بهما الخوفُ، فتكتَّم كلٌّ منهما هذا الإيمانَ عن الآخَر، وما عادا يتذاكَران هذا الإيمان ويُمنِّيان بعضهما خيرًا، واستبدَّ أكثر، فخاف كلّ واحدٍ منهما أن يَحسُد نفسَه بنفسه على حلمه، فتكتّمتْ هذا الإيمان عن نفسها وتكتَّمه، حتى صار هذا الإيمانُ- الأُمْنيَّة- وديعةً في عالم الغيب، ولمَّا قام- حين قام- في بَلبلة الاستيقاظ، ما كان يعرف إنْ كانت أيامًا سعيدة مرَّتْ، أو باحتْ بها الأحلام فكأنّها مرَّتْ، أو كأنه كان يجب أن تَمُرَّ.

شعرَ بشيء من الانتعاش مع ذكَريات عمله، تلك الذكريات التي نفخت في نفسه المنكدرة ريحَ بَهجة غامرة، فتحلَّل من الوخَم وكسَلِ الاكتئاب، وتساقَط شيء من الصّدأ الذي علاه من طول احتباسه لنفسه في الماضي، وانغلاقه على ذاته، وضَعف شهيَّته لقَبول الحياة الجديدة بعد التّقاعد، ففضَّ إضرابه العنيد عن الغسيل، وشمَّر كمّيْه في هذه الساعة المتأخّرة أمام كومةٍ عالية من ملابسه الدّاخلية، كوَّمها قدَّام الحمَّام، وبدا مشمئزًّا من اصفرارها ورائحتها الزَّهِمة، كأنه فوجئ بها، واستمرَّ أمام الصفيحة ووابور الجاز، يقلِّب غسيله الداخلي بالعصا وهو مباعدٌ بين ساقيه، مستمتعًا بدَندنتِه ورائحة البوتاس القويّة، وما يطفو على سطح ذاكرته من معاناة المعتقلين مع حشرات الفراش والقمل.

وأتَمَّ حملة النّظافة بحلْق لِحيته النّابتة، وتهذيب شاربه، وأغلق الحمّام عليه وعلى الوابور وصفيحة الماء المغلي، واندمَج في حمّام ساخن مُمتدّ، يدعك جسدَه الضّخم بلوف النّخيل سعيدًا، ويَفرُك ثندوتيه المُترهلتين بحجمهما وقَوامهما المائل للأنوثة الذي آل إليه صدر رياضي كان ناهضًا يومًا ما، مُتلذِّذا بانهمار الماء السّاخن على بدنه، وقد فاحت في الحمّام رائحة بدنه الجسيم كرائحة فرس النّهر في الخلجانِ الدافئة، غابَ في حنان الدفء والبخار، الدفء الذي قال عنه أحدُ المعتقلين: إنّه خير من الدنيا كلّها وأثمن ما في الحياة، ألْقَوا به لِيَلْتَئذِ عاريًا على الأرضية الأسمنتية المُبتلّة، التي تُوشك أنْ تَكتسب طبقةً رقيقة من الثّلج مع انخفاض درجة الحرارة إلى الصفر، قال له في الصبح وهو في حالة صحيّة مُزرية، وراقدٌ على جَنبه، وفي عَرائه الذي اعتاد عليه اعتيادَ الأطفال، ولم يَعُد يداري سَوْءَته، إنّ البرد اختلى به طيلةَ اللّيل، كان يَلعق عصعوصَه بلسانه المبْلول، بإيقاع بطيء بطيء، ونَهَم، وطرَب، وصبْر، واستفزاز، وإلى ما لا نهاية، وإنّ شيئًا زاحفًا لصِق بعظام مقْعدته وأسفل ظهره، يُبرد هذه العظامَ، يَقرضها، يَنخِرها، وإنه لا يتمنَّى الآنَ نعمةً إلّا راحة الموت الدّافئ، ويَشتهي أن يسيل الصّلصال الذي خُلِق منه، يسيل على الأرضية الأسمنتية؛ ليَكسَحه السجَّان، فينسابُ في البلّاعة الصّغيرة، مُتَّحدًا بماء الصرف الأكثر دفئًا.

كان يَضحكُ في حمّامه وهو يتذكَّر معاناةَ هذا الرّجل الذي يتمنَّى أن يسيل في مياه المجاري، فآلامُ المعْتقلين عنده كانت كآلام أبطال الرّسوم المتحركة، الذين يَعوون عندما تُضرَب أقدامُهم بمِطرقة، كانت آلامًا مثيرة للضحك، والمعْتقلون ليسوا إلّا مسوخًا لا تَمتلك أرواحًا حقيقيّة. ثمّ ذهب بعد استحمامه إلى فراشه مغتبطًا بهذه الذكريات.

عند الفجْر، فتح عينيه بمزاجٍ جميل، وإن كان مستفزًّا نوعًا ما من نداءِ عامل المقهى بصوت عالٍ على زميله الذي يحمل المشروبات في هذا الوقت المبكّر، طالبًا كوبَ حلبة لأحد الزبائن وعندك واحد حصى مغْلي(، ذلك النداء السّخيف الذي شتَّت تغريد طيور السُّبَد التي تحلّق في سماء أمانيه، ذلك النداء الذي اخترق أُذني المخبر الكبيرتين، ورأسُه على المخدّة، وعيناه مُغمضتان، كأنه جاء ليقول له إنّه لم يستغرقْ في النوم تمامًا، ويتَّهم البُشريات الطيبة التي كانت تحفّ به في مروج الخذْر البهيّة، إلّا أنّ الأمر ليس بهذه السّهولة، فهاتان الأذنان الكبيرتان اللّتان يطلّ من فتحتِهما الشَّعر كما يطلّ العشب المُتقصف من بين الأحجار- هُما لرجلٍ شديد الاستمساك، عنده من العناد والجُمود ما يحمي به أفكارَه من شرِّ ما يسمع.

قامَ بعد قليلٍ وتمطى، ونظرَ من النافذة تَجاه عامل المقهى النّشيط، وبصَق ناحيته بصقة غضبٍ في الهواء، ثمّ استدار منْشرحًا، وأخذ يُلمِّع حذاءً أميريًّا بنصفِ رَقبة، وعليه كسلُ التّلاميذ في الصباح، وأخرَج مِعطفه الكاكي من سحَّارة الكنبة، وطرَح ما في جيوبه من نفْتالين، وبعد قليلٍ كان في طريقه إلى المخْبز يَسبقه بخارُ الماء الصاعد من فمه، مثل دابّة تمضي في غبَشِ الفجْر ناعسةً باتّجاه الحقل، واشترى من هناك سلّة من الأقراص المحشوة بالعجوة، واستقلّ المايكروباص متّجها إلى مدفن صابرين، ونام بجوار السّائق وهو يَحتضن السلّة، وقد مال رأسه على السلَّة، فانفرَد قفاه العريض، وانكشَفت عليه علامة قديمة مثل علامة التّطعيم كانت مستورة في تجاعيده الغليظة.

وزَّع أقراصَ الرّحمة على الأطفال الفُقراء الذين أخذوا يُطاردونه وهو يَبتسم ابتسامتَه الشّحيحة، وتمنّى لو التصَق به أحدُ هؤلاء الضّامرين وألحَّ عليه؛ ليأخذه معه ويُربِّيه عنده، فهو لا يستطيع أن يُبادر هذه المبادرة؛ ليَحفَظ كِيانه من الزّعزعة العنيفة التي سيُحدثها هذا الرّجاء، هذا الرّجاء الذي ستَطفح فيه آلام السنين وأسقام نفسه.

وما إنْ دخل وجلَس قُبالتها وغابَ في ذلك السّهو الذي يلمُّ بزائر المَقابر، بعد أن جمع إليه طرفي المعطف حتى لا تلحظَ المتوفّاة فِتاقه، حتى اقتحَم الأطفال خلفه المدفن، وجلسوا وفرَضوا أنفسَهم عليه كقرَّاء قرآن، وأخذوا يقرؤون سورةَ الفجر بصياحٍ حماسي مُفتعل، وعندما رمى لكلّ واحد منهم وهبةً من النقود في حجره، تخلّصوا من وقارِ القرَّاء ورجعوا صِبية، وانفضُّوا عنه بشكلٍ بدا لهم طبيعيًّا، وبدا له قاسيًا، باحثين في الأفق الواسع عن زائرٍ جديد يمرُّ بين المقابر الشّاسعة الامتداد التي تُظلِّلها قِطَعٌ صغيرة من الغيوم البنفسجية المنخفضة كأوراق السوسنات، راحوا وراحت من خلفهم حسرته المُزمنة.

ظلّ جالسًا إليها لا يجدُ الكلمات، يَشعر بغصّة من الحضور الطّفولي بينهما الذي ما زال يَفرض نفسه بصدى أصواتهم التي تَرتَع فيه بعد أنْ ذهبوا، ذلك الحضور الذي افتقرا إليه في الدنيا.

أخذ يَبلع ريقَه مضطربًا وهو ينظرُ إلى السّمت الصّوفي الحزين للدّوائر الرقيقة الوليدة التي صنَعها رذاذُ المطر ليلة أمس بتُربتها، وكان يستمعُ لهديل حمائم في الجوار يَسيل حزنًا، ثمّ اندفع في بثِّ أشواقه إليها بطريقة محمومة غير مسْبوقة، وغير مرتّبة، محتجًّا عليها؛ لأنّها ذهبت وترَكته وحده، قاوَم وهو في اندفاعه رغبةً في البكاء لم يَعهَدها على نفسِه ولم تَعهَدها عليه، فشدَّ كوفيَّته الصّوفية على فمه الذي كان أكثر تعبيرًا من عينيه عن جزعه ولوْعته.

هدأ واعتذرَ إليها عن انفعاله، ثمّ كلَّمها عن أحوالِ الحي، وغُلوّ الأسعار والزحام، وكلَّمها عن أحواله، وكيف فوجئ بأنه بعيدٌ عن الناس منذ أكثرَ من عشرين سنة، لا يعرف أشياءَ كثيرة من حياة الناس، وتُذهِله أوضاع كثيرة لا تُذهل أحدًا غيره، كأنه استيقَظ فوجد كلّ هذه السنين قد مرَّت عليه، هُم لَهثوا مع عقرب الثّواني، وأنا لا ابن لي، وأنا ابن عقرب الساعات.

غلَبهما صمتٌ عابرٌ، يقطعه بصوت مُستفهِم، وربّك - يا صابرين - هل يمكنك أنْ تعتصري ذاكرتك، وتراجعي كلّ الأمْزجة التي مرَّت بك في حياتنا معًا، وتُجيبيني إن كنتِ في فترةٍ ما قد اشتهتْ نفسك طينَ الحقول؟

ساد صمتٌ طويل بينهما، فتجدّد شعورُه بالحرَج منها، وقد كانت الميْزة الوحيدة لوفاتِها هي تخلصه من وطْأة هذا الحرَج، حرَج العقيم من زوْجه التي فضَّلت البقاءَ معه، فرغب في أنْ يُلقي إليها ما عنده، تلك البشرى التي ستحسِّن صورته أمامها وللأبد، كزوجٍ صبَرت معه سنواتٍ وسنوات دون أن تَجرحَه بكلمة، يريد أن يُحسِّن صورته كزوج تآكَلت هيبةُ جسَده العملاق أمامَ هذه التي لم يَبلغ طولها كَتفه، وكانت عملاقة بصبرها وقَبولها.

إنّه يريد أن يَنعَم أمامَها بما كان فيها من السّلامة والقوّة الوديعة، يريد أن يعضَّ على حجرٍ من أحجار قبرها، فيتخلّص فيه من لعاب سُعاره، فبشَّرها هناك وهو يضحك فاتحًا فمَه بابتسامة عرِيضة، تجمع بين بلاهة اللحظة والخبث الأصيل، ابتسامة تثير مزيجًا من الشّفقة والاشمئزاز، وهو شاردٌ في نَبتة الصبَّار الصغيرة النائمة تحت الجدار، تحتَ الكتابة بالطّباشير عن تواريخ ورودِ الموتى في مدفن العائلة، بشَّرها بأنّ لديه مفاجأة كبرى لها، حزَّري فزَّري، ثمّ أدرك أنه لا يُمكنها ذلك، فألقى بُشراه وهو يَخبط على رُكبته الضّخمة: هو الآن يستطيع الإنجاب بعد أن شُفِي من عُقمه ببركة سيدي (أبو الشّخاليل)، الذي لاحَظ في أيّامها الأخيرة فتور قلبها من ناحيتِه، وهذا ما لا يليقُ بامرأة كاملة مثلها، إنه لا يترُك أولاده كما كان يؤكّد لها دائمًا، زارَه بالليل في المنام مع سبعين حمامةٍ بيضاء تمشي خلفه، ورمى عليه قطيفة خضراء، وأخذ يقرأ فواتحَ سورة مريم، في هديل الحمام الذي جلَب الملائكة وأرواح الأولياء العظام، ولم يُغادره جمع الوجَهاء هذا إلّا بعد أن طاب وذهَب ما به؛ يُمكنه الآن أنْ يملأ بيتهم بصِبيَةٍ وصبايا يَلعبون حوله، لا شيء الآن يحول بينه وبين الولد الذي يَحمل اسمَه، إلّا غيابها، المشكلة لديها هي، ولو كانت الآن حيَّة تُرزَق، ما كانت لتَحبَل بعد انقطاع حيْضها، وهو يعرف جيدًا أنه ليس بيدها أنها ماتت، وليس بيدها انقطاع الحيْض عنها منذ سنوات سبَقت موتها، وهو لا يَقصد أن يَجرحها بهذا، أبدًا.. أبدًا، فقط جاء ليُخبرها أنّه من أجل عينيها سيَصبِر عليها ميّتةً كما صبَرت عليه حيًّا، فلنْ يُدخِل على فراشها من بعدها لا بِكرًا ولا ثيِّبًا.

كان مرتاحًا جدًّا وهو يقول ذلك، ومطمئنًّا أن وضْعها كميِّتةٍ لن يَسمح لها بفحْص أخباره، مثْلما وضْعه كرجل عزبٍ لا تَبيت في فراشه زوجة، لن يَسمح له بفحْص صدقِ ما رآه قبَيْل الفجر وهو في ممرِّ الوطاويط الواقع بين عالم النّوم وعالم اليقظة، الذي كانت تتناهى إلى سمعِه فيه نداءات سيدنا أبي الشّخاليل المُبهمة، وقد بدأت تَخفُت مع الزّعيق القادم من الشارع (وعندك واحد حصى مغلي).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لهيبُ الأغنيات

في منتصف السبعينيّات من القرْن الماضي، كان الشّاب الخمري اللّون يمرّ في منتصف الليل بشكلٍ يوميٍ من شارع الرّمش، الشّارع الذي تتدلع فيه عواطفُ العذارى بفعل نظرةٍ حانية عبرت من بين الوجوه، وتنبتُ زهرة الحب فجأةً إثر سقوطِ مشبكِ غسيل، كان يمرّ عل ظهر الموتوسيكل الأحمر، وقد رفع صوت محرم فؤاد في المسجل على آخره؛ لأنّ تشغيل المسجّل بصوتٍ مُرتفع في جنح الليل هو الوسيلة الوحيدة وقتها التي لا يستطيع أحدٌ أن يمنعها ليبثّ بها المحبّون أشواقهم كلّما اندلعت، يمرّ بنبرة الصّوت العريض الأليم، لتبكي (نصرة) الجالسة على كرسي في الشّرفة، وتميل برأسِها على حافّة السور تتطلّع بلهفةٍ إلى حبيبها الأستورجي الذي رفض أبوها زواجَها منه، يمرّ بسُعاله من تحت الشّرفة وقد أبطأ سرعة الموتوسيكل، يشتكي له بهذا السّعال من أوجاع الفقد، يزداد بطؤه عند بيتها، كأنه توقّف، فتشعر أنّ ماكينته الحمراء دابةٌ تشعر بصاحبها وبها، وتودّ لو توقّفت به عند بيتها، يمرّ فتختطف نصرة نظراتٍ إليه وهي تتأوّه، وقد أكلت الطّاقية الجلدية التي أغلق لسانيها تحت ذقنه في البرد بعضًا من معالم وجهه الآسيوي الحارّ المفْعَم بالانفعالات كأبطال السّينما الهنديّين، تبكي وهي تسمع هذا الاحتجاج بالصوت العريض الذي يمزّق قلبها (هوّ انتو وراكو حاجة غير تعب القلوب؟!) واستمرّت الشابة الرقيقة في هذا الاحتراق الليلي طيلة الشّتاء، غائبة خلفَ نباتات الزّينة في الشّرفة، واستمرّ هو في الضغط على عواطفها بغير هَوادة، حتى أنهت هذه اللعنة من الموسيقى والسّعال بأنْ شربت مبيدًا حشريًّا يسمّى (بوليس النجدة)؛ لتتخلّص من عذابات الحبّ الذي يغذّيها رجلٌ يمرّ في منتصف الليل بلهيبِ الأغنيات.

حملها الغرام في القُماش الأبيضِ خارجةً من الشّارع للمقبرة تحت عويل النّساء في الشرفات، وترك صباحها المشئوم فحيحَه في كلّ شيء؛ في وجوه الأطفال المذْعورين، في الهواء الذي أخذ يلعبُ بالغسيل المعلّق على الأحبال في الشّرفات لعب الشياطين، في الحكايات المسائية المتوجّسة من شر كلّ مختبئ، وفي لبن المرضعات.

ذهبتْ نصرة بعينيها الصادقتين، وخلا مقعدُها في الشّرفة منها إلى الأبد، والشابّ الذي أهلكها حبًّا، صار هذا الرجل الجالس على المقهى يتابع مباريات الدّومينو بين أصدقائه باهتمامٍ وأنفاس متقطّعة، وهو يتمسَّك بمشروبه الساخن وقد تدلى كرشُه، وجحظت عيناه، ولا يصدق أحدٌ منَ الشباب أنّ هذا قد قتل يومًا ما في الغرام إحدى الحسناوات.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الإبْرة والكسْتبان

تلك النّزلة المهجورة الصغيرة القابعة في ممرٍّ بين جبلين رماديّين يُعانقان السّحاب، والتي تسقط عليها شمسُ الظّهيرة، فتُضيء سكونها كما تُضيء وجهَ نائم بكهفٍ بعيد، كان يسكنُها إلى منتصف الخمسينيّات من القرن العشْرين جماعةٌ من عمَّال الحفائر الأثرية البلديّين وعوائلهم، إلى أن انتهَت آخرُ البعثات العلميّة التنقيبيّة الأوروبية في المنطقة الأثرية القريبة من هذه النّزلة، التي عاش فيها هؤلاء ثلاثين عامًا، وتحرَّكت عَربات الدّفع الرباعي تُقلُّ العلماء الغربيّين إلى القاهرة وصورَهم وخرائطَهم، ومِن خلفهم سيارة مصفّحة شَحنوا فيها النّفائس الأثرية، آخر ما اسْتخرجوه من هذه النّاحية، وبعد ذلك بشهرٍ تحرَّكت في الظّلام الحالك قافلةٌ من العربات الهالكة والأنعام العِجاف، تحمل أهلَ النّزلة إلى بلدهم الفقير بالجنوب، بعد أن ودَّعوا ذكرياتهم ومَرابع طفولتهم.

في النّزلة المهجورة، كان العجوزُ الذي خلَّفته القافلة غلامًا في يوم من الأيام هنا منسيًّا، كان عند الحوض والصنبور، قابعًا وحده تحت ظلِّ سحابةٍ في ساعة العصر الّتي بدأ الرّمل فيها يَفقد شيئًا من لظاه تحت خُفَّيه، كان هناك مُؤمِّلًا صابرًا عند فم الصّنبور النّحاسي العتيق، وتحته الحوض الحجَري الذي يشتمُّ فيه ريحَ مياهٍ كانت هنا في زمنٍ بعيد، ووسوسة أصواتِ الصِّبية المختلطة الذين كانوا يلعبون معه يومًا ما ها هنا.

يفتحُ الصّنبور للمرّة السّابعة في عصر هذا اليوم، مثْلما يفعل كلّ يوم، ينتظرُ المياه بعينين متلهِّفتين، وشفةٍ مرتعشة، بشَبق الحنين والإصرار العنيد، والمياه المنقطعة التي كانت تَخرُّ في الزمن البعيد، ويتلألأ من تحتها الحصَى الذي انعكسَت عليه شمسُ الصّباح المُبهجة، ما عادت أبدًا، راحتْ كما راح الغابرون بأسرارهم وزلّاتهم.

لا ينسى أبدًا أن يُغلق الصنبور بعد كلّ محاولة، يَسمح له إغلاقه أن يأمُل في مفاجأةٍ حين يفتحه من جديد، مثل كلّ مرّة، هذا الذي راح الغابرون عنه بليلٍ وما عادوا، يغلق الصّنبور؛ لينتظر من بعدها ذاك الأمل الذي يشاغب دائمًا خلف كلّ مُغلَق.

الرّجل العجوزُ الصّابر عند الحوض والصّنبور، والذي تتناثرُ مِن حول حوضه الجافِّ العشراتُ من عبوات المياه البلاستيكيّة الفارغة من أشكالٍ وأسماء عديدة، ومن أزمنة مختلفة في هذه البيئة العذراء، يصل إلى سمعه الضعيف صوتُ محرِّك سيارة قوي، كسيّارات الصيّادين والمستكشفين التي تمرُّ من عالمه دائمًا، يتجاهل الصوتَ بكبرياء مهشَّم، ويُدير وجهَه ناحية البيوت الخاوية التي شاخ النّخل في أفْنيتها، وانهالتِ الرّمالُ على أبوابها الخشَّبية المغلقة، وإلى الذّكريات القديمة التي كبَّلته، إلى بُرقع أمِّه الشابَّة الأرملة، والقُرط الكبير الذي على أنف أمِّه، والكحل الغجَري الكثيف على عيني أمِّه، والحجر البُنيّ الذي كانت تحك به باطنَ قدَميها، وقميصها الأحمر السّاتان، والخيّاط الشّاب الذي كان يأتي إلى البيت كثيرًا كي يفصِّل لها الثياب، وكان في أعينهم أشواق مؤلمة، وكانت نبرة الأمّ تتغيّر عندما تراه، الخياط الذي يخرج مع الصبي مِن البيت ثمّ كثيرًا ما كان يقول إنّه نسي الإبرة والكستبان، فيعود إلى البيت وحده، وجرابُ الثّعبان الذي انحلَّ في الليلةِ قبل الأخيرة عند مَرقده المفضَّل فوق السطح، وقد كان يقِظًا يدَّعي النوم، ما استطاع النوم لأنّ الهمْهَمات الصيفيّة من تحته قد أصابته بالأرقِ الطّاغي، ويذكر- مِن ضمن ما يذكر- وجهَ الخيَّاط المصدوم حينما رآه في الصباح في

الطرقات بخير يأكل خبزًا، ويذكر أنه لم يرحمه من بعد ذلك، فمدّ يده إليه بسقاية الخرّوب بعد أن رآه حيًّا، اشرَب، هذا الخرُّوب الذي تحبُّه، اشربْ، اشربْ، يتردَّد الغلام طويلًا، ثمّ يمدُّ يديه الخائفتيْن عجوزًا؛ ليأخذ بعضَ عبْوات المياه المعبَّأة، من ركّاب سيارة الدّفع الرباعي التي وقفت عنده، وكذلك بعض العصائر، ويُدير وجهَه عنهم مرَّة أخرى، فيفتحون بابَ العربي الخلفي، ويأخذون منها بعض الطعام الجافّ ويتركونه على مقربةٍ منه بشيءٍ من الحَذر والتّقدير، يفتح عبْوةً من دون أن ينظر إليها، كانت عيناه على الدرب الذي ذهب فيه الغابرون منذ سنواتٍ بعيدة، ما زال إلى الآن يتمنى أن يكتشفوا غيابه، ويعودوا لالتقاطه من النزلة المهْجورة، وأن تبكي أمّه طويلًا جدًّا عندما تعود؛ وعبْوة من المياه في يدِه، لكنّ الأفكار لا تتوقف، لا يزال يرى أمَّه غضَّة تضع قُرطًا كبيرًا على أنفِها، لا يزال يراها تحكُّ باطنَ قدميها بالحجر، تكاد تُدميهما، وخيّاط النّساء الصغير، لا يزال ينسى الإبرة والكسْتبان عند أمّه، ويعود وحْده؛ ليَلتقطهما بعد خروجِه معه من الدّار، تاركًا إيّاه في لعب الصِّبيان، اشرَبْ، اشربْ، هذا الخرُّوب الذي تحبّه، يرمي العبوة مفزوعًا، تتلاحق أنفاسُه وسط صدمةِ الأغراب، حتى يفيق من ماضيه، يحمل أخرى بهدوء، يتيقَّن من أنها محْكمة الغلق بالبلاستيك الشفَّاف، يشرب قليلًا بكبرياء مَن لم يعترف بالهزيمة، ثمّ يَفزع ويرميها، تتلاحق أنفاسه، يَهدأ، يُدقِّق في عبْوةٍ أخرى ويَفحص غلافها، ويشرب منها، يَهزون رؤوسهم يُطمئنونه، يَهزّ رأسه أنه بخير، وعلى عينِه دمعةٌ واحدةٌ تجلَّطتْ، يضعُ العبْوة بجانبه، يميل على الصنبور مرّة أخرى، يجرِّب فتحَه، إنه ما زال يُفضِّل أن يشربَ من الصّنبور، ولا يشرب من يدِ النّاس أبدًا، يهزّ رأسه رافضًا صوتًا يوسوسُ في ضميره: اشرَبْ، اشربْ.

يُحنِّن فوّهة الصّنبور بأصابعه، كأنّه يحنِّن ضَرْعَ بقرةٍ عَجفاء، يحنِّن وشفتاه مشتاقتان لشربٍ لا يُقدِّمه إليه أحد من البشر؛ لأنّه عاجزٌ عن النّسيان، عاجز عن الثقة.

استمرَّ وقتًا وهو يحاول مع الصّنبور وهو لا يبالي بمراقبة السّياح له، يَهزّون رؤوسهم متأسّفين لحاله، تندفع سيارتهم بصوتٍ مزعجٍ وتثير غبارًا، وهُم ما زالوا يتأمّلونه من داخلها، لتمضي بهم قليلًا بالموازاة للماسورة العتيقة التي تصبُّ عند حوْض الرّجل الغريب، لدقيقةٍ لا أكثر، حينما رموا نظرةً أليمة من خلف الزّجاج المُظلّل لنبْعِها الخرافة الذي لم يكتشفه الرُّجل كلّ هذا العمر وهو قريب، للطّرف الآخر المقطوع من ماسورة الصنبور الذي يلثم العدم والخَواء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

شجرة لا تقربُها العصافير

كان في عيني العجوزِ العانس التّسعينية دمعتا شفقة، كأنها وهي في خَرفها تدرك أنها خَرفت، وأنها لم تستطع مقاومة الخَرَف الذي غافلها في الحجرة وهي تنظرُ من النافذة من خلف القضبان تجاه الشّجرة، فحبسها في الحجرة أبناءُ وبنات إخوانِها، متمنّين أن يعْجِل الموتُ إلى تلك المرأة التي ربّتهم وربَّت عيالهم قبل أن يسخر الناس من فلتاتِ لسانها.

هذا الغمّ نزل عليها مرَّة واحدة منذ أسبوعين، كانت عند النافذة في ساعةِ عصْر، ساهمةً في شجرة التّين العجوز التي أوْشكت على الموت، الشّجرة التي لا تقربها العصافيرُ أبدًا، ثمّ أخذت عصاها وفتحتِ الباب ومضتْ إليها، وأخذت تضربُ أشباحًا حول الشّجرة وهي تبكي.

لقد تكدَّرت مشاعرُ أهلها تجاهها وهُم يحيطون بها عند الشّجرة، عندما نادتْ أمامهم عدّة مرّات على رجُل لا وجود له، (خذني وراك على الفرس يا تهامي)، كانت تقول ذلك وهي تنظرُ نظراتٍ شديدة الظّمأ إلى طيف تراه وحدها يمضي بين الحقول، فأدخلوها حجرتَها وأغلقوا البابَ عليها، واتفقوا على أن يمنعوها من لقاء الناس.

بعد أنْ مضوا من عند بابها، وهُم يسمعون نحيبَها الذي يمزّق القلب، بدأوا بحرص يتتبّعون مَن تسمّوا بهذا الاسم خلال قرنٍ من الزمن، فلم يجدوا إلّا ثلاثة حفاةً في أجيالٍ مختلفة لا يركبون غيرَ الحمير، إلى أن وصلوا في النّهاية إلى الأقْدم، وجدوا معاصرًا لها قريب الدّار من دارهم، لو كان حيًّا لكان عمرُه الآن مائة سنة، هو التّهامي الوحيد الذي ركبَ الفرس، شابٌّ بهيّ وسيم متأنّق قوي، كان يعيش في البلد في الزّمن الماضي، وماتَ بعد عرسِه بثلاثة أشهر.

كانَ في المولد بثوبه الأخضر الهفْهاف، وطاقيّته الشّبيكة، واقفًا عند لعبة المدفع، رمي في فمِه حبّات سكّر النبات وأخذَ يجرشُها؛ ابتسامتُه كشفت أسنانَه البيضاء الناصعة، وسنّه الذهبية المتألّقة، وأشار للغجري ليضع طارة أخرى من الحديد على الوزن الثّقيل الذي تجمَّع، وشمّر كمّيه، ونفخ في كفّيه، وأخذ يزيح ويسحب المدفعَ على المجرى ليجمع عزمه، إلى أنْ دفعه بقوّة وأطلقه من قبضته القويّة، ليرتطم بالقائم، ليصيح المتفرجين معبّرين عن إعجابهم به، وكان بينهم أعين حاسدةٌ تكاد تنهشه.

في تلك اللّحظات الكاملة التي يبدو فيها الموت بعيدًا جدًّا، والتي يسبح فيها الصّوفيون على أطراف المولد في فيوضاتِ الأنْوار النّاعسة للفوانيس المطليّة بلون الكهْرمان، التي قلّبت- فيما قلّبت- أوجاع العشّاق الذين تخلّى عنْهم خلّانهم الذين كانوا معهم في المولد الماضي وهم أتوا الليلة يمضغون مواجيدهم مع صوت الناي، في تلك اللحظات أخذه الخدر والانجذاب، إلى عيني كلب هادئ بشكلٍ خبيث، كانت عيناه في بحر الكهرمان كجذوتين مهتزّتين وسط الظلام ترسِلان وميضَهما من بعيد. بغتةً عضَّه الكلب واختفى كما لو كان وهمًا، واجتمع الناس على الشابّ الذي صرخ صرخة واحدة.

عاش بعدها حائرًا في لُعابه المستمرّ، وشعره الجميل الذي أخذ في التّساقط، يستجدي بعينيه حلًّا من زحام زوَّار لا حولَ لهم ولا قوّة، إلى أن أصابته حالةُ هيجان اضطرّت أهله لربطه في شجرة التّين الشابّة من يديه وجزعه، تحت عينيها الذّاهلتين الحائرتين من خلف قضبان النافذة، تقاسمه أوجاعه المستبدّة وهو لا يدري عنها شيئًا، حتى مات بعد أنْ طرد صراخه العصافير منها للأبد.

لقد أخرج الخَرَف من القاع السّحيق لبئر الأيام البعيدة حبًّا قديمًا صامتًا له، حبًّا لم يلفتِ انتباهه، مرّ عليه ثمانون عامًا؛ انتشل الصّبوة المكْبوتة، والدّموع المحبوسة منذُ ليلة إصابته، وإلى نهار موته، لفتاة من خلف النافذة وقضبانها الحديد، تنظر إلى فتى البلد يمرّ كالحلم فوق فرسه، ساربًا في حقول النهار.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

جميل بثينة

تجلس الآنسةُ (ندى) الصّيدلانية النّحيفة على طرفِ سرير أمّها الممدّدة في المستشفى، والأمّ أغلقت عينيها على الدّموع، ونامت قليلًا في حزنٍ مخْتشم بشَعْرها الملْفوف وقد اختلطَ فيه بقايا الحنّاء وبعض البَياض، في قميص المرضى السّماوي الذيّ أضفى عليها شيئًا من براءةٍ حزينةٍ مُترهِّلةٍ، تُربِّت ابنتها على يدها التي انغَرسَت بها إبرة المحلول، تربِّت تربيتًا حانيًا ومؤنِّبًا في آنٍ واحدٍ، تُؤنبها على حبّها لهذا الزّوج الذي رأتْه الصّيدلانية خاويًا أنانيًّا منذ جاء في طفولتها منذ سبعة عشر عامًا.

الزّوج العصبي مشى من هنا منذ قليل، دخل متوترًا بقامته الطّويلة وبذلته الصّيفية الرّمادية، التي تفضل الزّوجة أن تراه فيها؛ لأنّها تعطيه سنًّا قريبًا من سنِّه الحقيقيِّ الذي لا يبدو عليه أبدًا، جاء من قسْم المالية ومعه نسخٌ من الفواتير العِلاجية يقبضُ عليها بضيقٍ، وقفَ عندها وأمامَه الطبيب من النّاحية الثانية، يخبره الطّبيب بالحاجة لعمل مزرعة وتحاليل إضافيةٍ، ينظر إلى زوجته المريضة مستفزًّا، والطبيب يراقب ضغطَها، هربت بعينها عن عينه، متأسفةً من مرضِها وتكاليف علاجها بالمستشفى التي انطرحت فيها منذ شهرٍ، حتى عضّت شفتها من الحرج، وما إن خرج الطّبيب حتى صاح في زوجته: "يا ستّ موتي وخلّصينا، قبل ما تخلَّصي على كلّ اللي حيلتنا"، ففزعت، كأنه رجَّها بكلماته القاسية ونظراتِ عينيه المتفجِّرتين بغضبٍ حيوانيٍّ أحمق غير مسبوقٍ؛ أمّا ما كان في عينيها فهو شيءٌ آخر فوق الصدمة والحسرة لم يره؛ لأنه انصرف مسرعًا.

مسكينةٌ يا أمّي، هذه آخرةُ عِشْرتك معه، خلَع ذهبَك وخبّأه حتى عنِّي، وبكلّ تأكيدٍ سيخطب به بعد موتك، وأي أموالٍ ادّخرها هذا المتبجّح وراحت في علاجك؟ أليست من ميراثك عن والدك ثمّ المرحوم أبي؟ ألم يضيِّع ذلك الموظّف الحكومي البائس الشّاطح من أجل أن يُحسِّن دخْله بعضَ ما ورثْتِه في بطارية الأرانب وورشة أعمال (الأركيت)، وغيرها، وغيرها؟!

لن يصدِّقنا أحدٌ إذا ما شكوْنا منه، فهو في نظر الأهل والجيران ظريفٌ لَبِقٌ مهذّب، لا تخرج العيبة من فمه؛ وأنا وأنت فقط نعرف حدَّته وخفّته ومزاجَه الهوائي عندما يغضَب ويندفع في وجهك بكلّ حماقةٍ، كابنٍ عاقٍّ مُدلَّلٍ أكثر منه زوج قاسٍ، ليعود لك بعد ذلك بابتسامتِه الرّخامية البلْهاء، يذكِّرك باسْمه واسْمك المتطابقين مع اسم الشاعر العربي ومحبوبته، هو (جميل) وأنت يا أمَّاه النّائمة (بثينة)، ليُؤكِّد لك بابتسامتِه العريضة الرّخامية أنه قدَرُك وأنتِ قدَرُه.

لا شيءَ بينكما غير هذه الصّدفة غير السّعيدة التي اكتشفها عندما كنتما زميليْ عملٍ، وكنتِ على ذمَّة أبي، هذا الشيء الهشّ الذي حاولتِ أنْ تحافظي عليه من بعد ذلك، عندما صِرتِ على ذمّة جميل، جميل الذي تزوَّجتِه بعد يوم من انتهاء عِدَّتكِ، وكلّما شعر أنّك ستُفيقين وتتخلّصين من أسْر هذا الحبِّ الوهميِّ، نفخ في فم هذه العَلاقة التي تكادُ تموتُ كلّ مرّة خنقًا بقُبْلة الحياة، الحياة الزّوجية الفاشلة، بهذا النَّفس السِّمج البَغِيض: "أنا جميل وأنت بثينة".

إنّه أناني يحاول أنْ يحرمك من أنْ تكفِّي عن حبّه، ويخاف أنْ ينتصر عليه والدي الذي مات وهو معيد بكلية الصيدلة، ينتصرُ عليه بعد موته، إنْ قارنتِ بينهما وأنت تبكين تحت مخدّتك، وجاءت المقارنة في صالح أبي الناجح الرصين الوَقُور الذي لم يجرحْكِ أبدًا ولم يعرفْ مِقدارَ راتبك، وجميل

ينفخ وينفخ وأنت ككل مرةٍ تبتسمين بصعوبةٍ بعد حزنِك العميق وخيبةِ أمَلِك، بعينٍ تعاتب، وحاجبين يهتزّان من الحبّ، وفرحة عودته والدّلال الأربعيني الرصين، وككلّ مرّة تصدِّقين أنَّ جميل بثينة سيتوقّف عن إهانة بثينة وتحطيمها ليعود إلى طبيعته الشاعرية التي لم تكن أبدًا.

ولأنَّك تُحبِّينه لم تعرفي- وأنت المتعلّمة المثقفة- أنَّ زوجك ليس بشاعر، ولا حتى قارئ شعر، لم تعرفي تلك الحقيقة إلّا منِّي أنا ابنتك، عندما صارحتُك بها وأنا في الثانوية، أنَّه ليس هناك إلّا بضعة أبيات لا غير بهرَكِ بها، ولا يعرف غيرَها، وأغلب ظنّي أنها ليست من تأليفه، فانهزمتِ قليلًا وانزعجتِ، ثمّ تهربتِ وأنكرتِ.

ما زال جَميلُك بعقلِ شابٍّ في الخامسة والعشرين، يريد أنْ يجرِّب ويندهش وينطلق، منهمكٌ في مشاريع (شباب الخرِّيجين)، ولم يترقَّ إلى وكيل قسمٍ بعد كلّ هذا العمْر، بينما صِرتِ أنت مديرةَ إدارة، وصار يبدو أصغر منكِ سنًّا كثيرًا، وأنا نجحتُ كما نجحتِ، ولو نسيتُ فلنْ أنسى أنَّه اغتاظَ عندما تمّ قبولي في كلية الصيدلة التي كان أبي يدرِّس فيها، ولن أنسى أنه اغتاظ أكثر عندما التحق أخي- ابنه- بالثّانوية الزراعية، وسينتهي به الأمر في السنة القادمة وبواسطةٍ منكِ كموظّف بسيط غير مثبَّت بوزارة الزراعة؛ الفرق شاسعٌ بين بنتِ أبيها وابن أبيه، وأنا انتصرتُ لأبي.

زوجُك فاشلٌ في كلّ شيء، إلّا أنَّه نجحَ في شيءٍ واحدٍ فقط: أن يحتفظ بشبابه، وحتى بتسريحة شعْره التي في صورة الزّفاف، ولا شعرة واحدة ابيضّتْ ولا واحدة وقعَتْ! وأنا وأنتِ نستمعُ- بصبرٍ- لمشاريعه الصغيرة، ونعده خيرًا، ثمّ نغلق علينا الباب، لنخطِّط لشِراء مقبرةٍ مناسبة في مدينة (٦ أكتوبر) لها أربع عيون.

يتقلَّب وجهُ الأمِّ وتنطق اسمَها بشفتين جافّتين، وهي تنظر في ساعِدِها وإبرة المحلول وعُروقها الخضراء: "ثينة.. بثينة.. بثينة".

أفاقت أمّي! أفاقت، حمدًا لله على السّلامة، آهٍ لو يمكنني أنْ أكلّمك بصراحةٍ؛ حتى تتخلَّصي من الهزيمة وخيبتك الثّقيلة، لا تعرفين كيفيَّة الخَلاص، أنا أقول لك: عندما يعود مرَّة ثانيةً اشتميه يا أمّي، اطلبي منه الطّلاق إنْ رجع إليك ببسمتِه العريضة البلهاء، استغني عنه للأبد، واستغني عن ذهبِكِ الذي خلعه من يديك الممدّدتين على السرير، وأنا وحْدي أتكفَّل بعلاجك، اطْرديه من حياتنا النّاجحة الفاشلة!

بعد أنْ سكت الكلامُ في رأسِ الفتاة، وأخذت تمسَحُ دموع أمِّها التي انحدرَتْ، تقولُ الأمّ بصوتٍ واهنٍ وقد ارتسَم بين حاجبيها خَطّيْ إعياء: لا عليك؛ الآن قد انتهى كلّ شيء، لن يستطيع هذه المرّة أن يصلح خطأه.

لا تثقلي على نفسك بالكلام.

تقول الأمّ وعلى وجهها رجاءٌ هادئ: أريد أنْ أعرف.

ماذا؟

هل يمكنني أنْ أكون لأبيك في الآخرة؟

هزّت الفتاة رأسها موافقة، وقالت في نفسها: "إنْ لم يعدْ بك حاجة للشَعر".

وأكملت الأمّ وهي تنظر لنواحي السّقف: برغم أنه نصيبي الذي اعتدتُ عليه ولصقَ بي، وهو تقريبًا الشيء الوحيد الذي أملكه وحدي، إلّا أنِّي الآن أطلبُ منك أنْ تساعديني في التخلُّص منه قبل أنْ أموت، لم يجلبْ عليَّ البؤس إلّا هو، فخلّصيني منه.

انقبض وجهُ الفتاة وارتفع حاجباها، وبلعت ريقَها، "نعم، خلّصيني منه، لأجل خاطر أمِّك"، فهزّت الآنسة ندى رأسَها شامتةً مسرورةً، وأكملت الأمّ: "اسألي المحامي أوَّلًا عن..."، ثمّ أغمضت عينيها على دمعٍ ساخنٍ قبل أنْ تكملَ كلامها، واضطربتْ فوق الدّمع أجفانها المجْهدة، وراحت في النوم.

والفتاةُ التي أتتْ مرهقةً من نوبة السّهر بالصيدلية ذهب بها الإجهاد ورائحة السّوائل المعقمة، وهدوء الغرفة والكبت والإخفاق، وذكريات الطفولة، والسّطور المبهمة من صفحة الماضي، وهذا الندم الرماديُّ الذي يشعُّ في فضاء الغرفة من روح أمِّها النائمة، ذهبت كلّها بها بعيدًا، إلى البيت، تطفئ أنواره، تذهب إلى المطبخ بمعطف الصيادلة، بخطواتٍ ثابتةٍ على الأرضيَّة (الباركيه)، تتعلّق بها داخل المطبخ طفلةٌ لحوحة، تستنجدُ بها، هذه الطفلة هي ذاتها منذ سبعة عشرة عامًا، ندى الطفلة تستنجدُ بندى الصّيدلانية، تخبرها أنّ أباها الشابّ في سريره لا يردُّ عليها، سقط رأسُه وهو يشاهد التلفزيون، وندى الصّيدلانية تستمع لها في هُدوءٍ وهي تعدُّ كوبًا كبيرًا من عصير الفراولة الذي يحبُّه زوج أمِّها، تمسح على شعْر الطفلة، تتركها تبكي وحدها على بلاط المطبخ البارد، (بابا، بابا، يا حبيبي يا بابا)، تذهب إلى جميل بالكوب باتّجاه الشرفة، وفي أذنيها الموسيقا التّصويرية المميزة لحلقات (إستيف أوستن)، التي مات الأب وهو يشاهد إحداها، تدخل إليه، وهو كما هو؛ يتابع بعينيه النّهمتين المستتِرتين بالنّظارة الشمسية الداكنة شابةً ترتدي ملابسَ صارخة، يكلِّم ندى دون أنْ يرفع عينه عن الشابة "بافكّر في مشروع لصناعة ورق البردي، أأجّر لي حتّة أرض زراعية على النيل قُرب القناطر، وازرعها (بردي)، واعمل ورش صغيرة فيها، ومكبسين، وبرميلين محاليل، وبعدين (شبلونة) عشان التّصميمات الفرعونية.. الورقة تكلّفتها قولي جنيه، وتتباع قولي بعشرة دولارات؛ يعني: أرباح أكتر من خمسين ضعف".

الأمّ قادمة من هناك عائدة من العمل يعلوها العرقُ والضّجر، تحمل في يدها كيسَ الخضار الممتلئ، وتظهر منه أذنان طويلتان، نفختْ مُغتاظةً من عيني زوجِها التي ما زالت تُودِّع الشّابة الصارخة الملابس حتى الشارع الجانبي، رمت الخُضار من يدِها وفرَّ منها أرنب، أحدُ العِشرين الذين تبقّوا من بطارية الأرانب البائسة، "الغلطة يا ندى في مشروع الأرانب أنها لا تتحمّل العين"، ندى تهزّ رأسَها موافقةً، تُقدِّم الكوب وقلبها يخفق بشدّة، يغلبها البرد والدُّوار والعرق، الكوب يهتزُّ في يديها المرتجفتين، يتناول الكوب بيدٍ لا مبالية، يبتسم ابتسامته العريضة الجشعة، "بيقولوا البردي مطلوب جدًّا في أوروبا، تشاركيني؟"، الأمُّ تمرق من بين العربات، تناديها وهي تجري ناحيةَ الشرفة من ضجيج الشّارِع الحيوي، وندى لا تسمعها، جميل لا يراها، "هاغرَّقها بردي، أوروبا هاتغرق بردي"، تصلُ إلى تحت الشّرفة مقطوعة الأنْفاس، تشيرُ بيدها نافية: "لا يا ندى، لا.. أتخلّص من اسم بثينة.. من اسم بثينة".

تفيق الفتاة، وتفيق الأمّ، يتبادلان نظراتٍ حَيْرَى قلِقة محرجة، تدل على أنهما نزَلا من ناحيتين مختلفتين في دهاليزَ رماديةٍ، إلى حلم مشتركٍ، صعدَا منه إلى غرفة العناية المركزة ومعهما شيءٌ من ضَجِيج الشارع، ولم تزدِ الأم على أنّ قالت: أبوك مات ميتةً طبيعيةً.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وجهي ووجهه

في العيد، وبعد أن فرغنا من الصَّلاة في ميدان (مصطفى محمود)، وابتسَمْنا لوجه الصُّبح الجميل، الذي انكشف بعد غبش الفجر الذي كانت البنايات واللاَّفتات الإعلانية والأشجار تغالب نومَها فيه، ولَملم المصلُّون سجاجيد الصَّلاة، وأوراقَ الصُّحف التي بلَّلها النَّدى، قام أهل الصُّفوف الأماميَّة في خشوعٍ وسَكينةٍ بعد أن مكثوا هنا من وقت صلاة الفجر، بينما انطلقَتْ صيحات وتصفير الشباب اللاهين في الصُّفوف الخلفيَّة، وخرجوا بسرعةٍ من مناخ الصلاة الخاشع، في بَهْرجة الألوان والصخب والمزامير، والاختلاط الطبقيِّ والجنسيِّ، ولاحظتُ في سيري جماعةً من الشباب المشايخ القادمين على ما أظنُّ من الأرياف التي لا تبعد كثيرًا، والأحياء العشوائية القريبة، يُشِيحون بوجوههم عن مظاهر الميوعة التي تحيط بهم، وذلك التبذُّل الذي لا شكَّ عندهم في أنَّ مرجعه المدينةُ، ذلك لأن الكلَّ يؤمن بأن اختلاف الآخرين هو علّة فيهم؛ وكبيرهم الذي التفُّوا حوله ينظر نظرةً هجوميةً لمقدِّم البرامج الدِّينية الذي يطلُّ على الميدان من الصورة الإعلانية في بذلةٍ أنيقةٍ بنظرةٍ جانبيةٍ سينمائيةٍ؛ أخمِّن أنه بدا له متكبِّرًا متكلِّفًا مستفزًّا، ودجالًا، وبدا له وكأنه يتعمَّد إغاظته، وأظن أن مشاعر النفور والاستفزاز هذه يمكن أن تكون ذات المشاعر المُضْطرِمة التي تنبعث بغير إرادةٍ من عصفورٍ دوريٍّ بلون التراب تجاه عصفورِ زينةٍ وجَدَه أمامه على غصن.

إنَّها الصورة التي تنتظرني تحتها، وهُيِّئ لي أنّ هذا الشيخ الشابَّ ينظر إليك أنت هذه النظرة الهجوميَّة التي تَصْدر من رجلٍ يشعر بالتهديد والغضب، وشاركتُه أنا تلك النظرة بعد أن تخيَّلتُ صورتك في اللوحة، رغم أنِّي أختك؛ لأني أشعر أيضًا بالتهديد.

انطلقتُ ناحية اللوحة الإعلانية لمقدِّم البرامج الدينية (المودرن)، حيثُ اتَّفقنا أن تنتظرني هناك، بِخُطًى هادئةٍ، أُغالب نعاسًا ملِحًّا بعد أن سهرت للصُّبح، حتَّى اقتربت من مكانك، حيث تستند إلى عامود اللَّوحة شاردًا، ولاحظت بعينيَّ المتورِّمتين اللتين ورثتُهما من أبي، وتشبهان عينَيْ حكيم فرعونيٍّ أجهده التأمُّل، لاحظت بعض الأخَوات المُختَمِرات، مِمَّن لم يتغلَبْن على السجايا القديمةَ تمامًا، وتعايَشْن مع انضباطٍ مشوَّشٍ، كلّ واحدةٍ منهن طوَّقت نفسها بيديها مثل مقدِّم البرامج الدينية فوقك، من برد المراقبة الحيِّيَّة، ينظرن إليك نظراتٍ جانبيةً يحاولن فيها عبثًا الموازنة بين الفضول والاحتشام، فتسلَّلتُ ووقفتُ خلفهن تمامًا، واحدةٌ منهن سمعتُها وهي ترجِّح فيك أنك من المبتعثين للأزهر من إحدى بلاد السوفييت القديمة، بينما رجَّحتْ أخرى أنك من (المنصورة) حيث تنتشر العيون الملوَّنة، وثالثة كانت أكثر رومانسية، وظنَّت أنك من أهل البوسنة، وأن شرودك كان فيمن فقدتَهم من الأهل والأحباب في الحرب الشرسة أيَّام طفولتك، وأنك بحاجةٍ إلى من يضمِّد جرحك القديم، ويحيطك بالرعاية؛ تلك مزيةٌ للجمال وحده، أن تجد مَن يرغب في امتلاكك، ويفترض فيك نقطة ضعفٍ، حتى تتَّزن الأمور بينك وبينه، فيضفي بذلك شيئًا من المنطقية على طمعه فيك، يفترض فيك نقطة ضعفٍ، ويفتَرض أنه وحده قادرٌ على أن يرحم ضعفك؛ وبالطبع، لو كنت قبيحًا من البوسنة ومات أهلك جميعًا، ما اهتمَّت (الأخت الرومانسية) بك؛ إنها تقول: إنها تريد أن تعطي، تلك ميزة للفضيلة وحدها، متعددة الاستخدامات، يمكننا أن نتحلَّى بها، أو نستر بها وقت اللُّزوم رغباتِنا الأنانيةَ البسيطة.

طيبٌ أنت يا رجب، وشاء الله أن تأخذ سماحة نَفَس أبينا الريفيِّ الأصل، وجَمال أمِّنا ذات الأصول التركيَّة الزاعق، وأرث أنا الفتاة ملامح أبي البسيطة، وجفنيه المتورِّمين، وجِدَّة أمِّي التي كان أبوها لواءًا صارمًا بالجيش، ويعلم الله أنِّي أعاني رغمًا عني، ووددتُ لو أنِّي لا أعاني، وكذلك يعلم أنِّي لا أتَحمَّل فيك كلمةً واحدةً، غير أني أريد الهروب من هذه المُقارنة المحبطة التي تفرض نفسها علينا وعلى كلّ من يرانا، في النادي، وبين الأقارب والجيران، ومن قبل في (باص) المدرسة الخاصّة؛ حيث كنتُ أنزل منه وقد تقوَّس ظهري بالحقيبة الثقيلة، وبالهمِّ الذي يضعه على ظهري الصِّغار: (أخوكِ أحلى منكِ)!

منذ أول يومٍ في طفولتي، اطَّلعتُ فيه للمرآة، وكنتَ تَحْملني، وشاهدتُ وجهي ووجهك متلاصقين، حتى أسفتُ وتفلَّتُّ من بين يديك حزينةً، من يومها وأنا سجينةُ قفص المقارنة ذي (الجنْزير) الرهيب، وأنت بالخارج تجلس وسيمًا جدًّا، حسَنَ النية متمتِّعًا هادئًا، وغير مستوعبٍ، لا تردِّد كلمةً أكثر من ترديدك وأنت تبتسم ابتسامتَك المضيئة: (ما خدتش بالي)، ومفتاح الهروب من قفص المقارنة، الذي يسقط منك أحيانًا، ويُصَلصل على الأرضية الحجرية، وأمدُّ يدي المتشبِّثة بالنّجاة إلى آخرها؛ كي ألتقطه بطرَفِ إصبعي، هو فرص الهجرة إلى أوروبا التي تسعَى إليها، وفي كلّ مرةٍ، تلتقط مفتاح الهروب الذي سقط منك وتضعه في جيبك، متأسفًا من عدم الردِّ على طلب الهجرة، وتتركني لبكاءٍ سريٍّ تحرمه الفضيلة.

تركتُ الأخوات المعجبات، وتقدَّمتُ إليك بخطًى بطيئةٍ جدًّا، أتلذَّذ بهذه البلبلة التي سيُحدِثها ظهوري المفاجئ بجوارك، شامتةً في القوارير وقد سقطَتْ فراشات الحلم البشريِّ المجنَّح عند أقدامهن الصغيرة في الأحذية القماش، ولا شيء تتلذَّذ به فتاةٌ لديها مشكلةٌ أكثر من تعذيب فتياتٍ أخرياتٍ.

وبالفعل، ما إن جاورتُك، حتَّى بدا على وجوههن الضيق واليأس الطفوليُّ، وخيبةُ رجاءٍ ساذجةٌ مثيرةٌ للضَّحك، يتساءلن بينهنَّ عن تلك المنتقبة التي ذهبَتْ لـ (الأخ الوسيم الأشقر ذي العينين الزرقاوين) ووقفتْ بجانبه.

وتحرَّكنا نشقُّ الزحام إلى بيتنا القريب، وخلفنا هذا الاحتجاج البسيط العابر، وأنا أَسألك: ما بال الفتيات اللائي أخذِن بك بصوتٍ كأنَّ فيه اتِّهامًا، وأنت غير متَّهم، وقلت لي وأنت تبتسم ابتسامتَك البريئة، وفي عينيك الشعاع الفاتر للامبالاة، كما كنت تقول دائمًا: (ماخدتش بالي)، وأنا كنتُ حريصةً طيلة عمري أن (لا تأخذ بالك) مِمَّا يعتلج بقلبي، حريصةً قدر جهدي- يا دكتور- على ألّا ترتفع تلك الحرارة في جوفي تجاهك عن هذا الحدِّ الذي يسبِّبه العتب.

وفي الطريق، وبينما كنَّا أمام المستشفى الدوليِّ الذي تعمل به، وشعرتُ أنك تقاوم رغبةً ملحَّةً في دخوله حتى في أوّل أيَّام العيد، صادفنا صديقَك الطبيب الملتزم (حازم) داخلًا إليه عائدًا من الصّلاة هو أيضًا، ولمّا لاحظ مرورك، ابتسم ابتسامةً عفويةً، ثمّ أخفض رأسه حياءً، خفضًا لا أعرف لِمَ ذكَّرَني برأسي عندما كنت أضعها على أسياخ قفصك منهزمةً، تنحَّيتُ أنا جانبًا متوتِّرةً، هنَّأك بالعيد، واختطفَ إلَيَّ نظرةً شاردةً، فانثال شيءٌ من الشَّجن من جرحي.

جرحي كان بسببك؛ لأنّ رجب الطيب- وبغير قصدٍ- لم يترك لي أن أحلم حلمًا جميلًا لا يظهر فيه بوجهه المشرق؛ أنا حلمتُ بحياةٍ ناعمةٍ بنفسجيةٍ بغير كدرٍ، خارج قفصك، لا يحترق فيها زهر

أمنياتي عندما تلتقط مفتاحك، حلمتَ بعالم كل ما فيه- يا الله- باذخَ الجَمال، مُتْرَف الرقة، إلا البشر، تخيّلتهم ذوي بشرةٍ حنطيَّةٍ، ووجوهٍ بشوشةٍ لا أكثر، هُم مثلنا تمامًا، غير أنَّهم لا يعرفون ذلك الحيوان الزاحف البغيض العجوز المسمَّى (المقارنة)، عالَم بغير صور وبغير مرايا، تمامًا بغير صور وبغير مرايا، حتى بحيراته الفيروزية ومسابحه التي يزيِّن قاعَها الخزَفُ الثلجيُّ اللون، ينظر الناس فيها في الليالي المقمرة، فيجدون كلّ شيءٍ قد انعكس على صفحتها؛ السماء، والبدر، والأشجار، والغيوم، والنُّجوم، وأذيال القطط الهائمة على الإفريز، كلّ شيءٍ إلّا وجوههم.

جرحي كان منك؛ فقد قضيتُ اللَّيالي أحلم بهذه الحياة من داخل قفصك، حتَّى رأيتك تلتَفِت ذات مساءٍ، وتدير المفتاح، وبدلًا من أن تفكَّ أسْرَ أختك القديم، واربتَ الباب، وأدخلت الحلم إليَّ، لَمَّا تغيَّرتَ فجأةً، وصرتَ تُحدِّثنا في البيت عن عمَلِك، وعن صديقك (حازم) الطبيب النَّزيه البسيط، الذي يعالج الفقراء بالمجَّان في القوافل الطبية، ويشارك في حملات الإغاثة الطبية الدولية، ذاك الذي يمشي في الردهات كمثل وليٍّ كرَّس نفسه لمداواة الآلام، وتعاطى السهر على راحة الآخرين حتى تورَّم جفناه. ثمّ إنه فاجَأنا هذا الفارس الحنطيُّ النبيل، بأنه يريد الاقتران بي، ماذا قلت؟! يريد الاقتران بكِ، فأخذت أجوب قفصك مضطربةً كلّ الاضطراب، كحمامةٍ خجلَى، أُدخل إليها (وليف) هادئٌ لم ينفش ريشه.

أتى معك الشهر الماضي، من أجل الرؤية الشرعية، وانشغلتُ أنا وأمي في إعداد الحلويات، وانهمكتُ كأني لا أريد الخروج إليه، كنت أتهرَّب، إلى أن لَم يعد هناك مفرٌّ من الخروج، فخرجتُ بخطًى شديدة الارتباك، وأنا أدعو ربي أن يعفيني من وطأة نظرته الأولى المتفاجئة، كنت على يقينٍ من أن ملامحك الجميلة قد أغرته بالمجيء؛ ليظفر بأختٍ صالحةٍ وجميلةٍ، أو جميلةٍ وصالحةٍ، ألا يفكر هكذا الإخوة؟

وإن كان له عذرٌ في ذلك، فلا عذر لك وأنت بالتأكيد لم تلمِّح له بأن أختك لا تشبهك مطلقًا، وأنها ليست عصفورة ملونة، عاديةٌ تمامًا، كالآلاف ممّن ذهَبْن في كلّ اتجاهٍ بعد أن قُضيَتْ صلاة العيد في ميدان (مصطفى محمود)؛ لأنك كالعادة: (ماخدتش بالك)، وأذكرُ تلك اللحظات الصعبة، والحياء، والعرق الخفيف، والبرد، وأذكر يديَّ اللتين أخذتُ أفركهما مرتبكةً، وأمّي تدعو لي، وتدفعني من خلفي، حتى جلستُ أمامه في الصالون، بدتْ لي بسمته مجوَّفةً، كأنما أجبرته عليها اللّياقة، وأسئلته غير حماسيةٍ، عن أحوال الدبلومة والهوايات المفضلة، كان كأخٍ أكبر يَشعر بالشفقة، ويبحث عن حلٍّ، أكثر منه عريسًا متوهجًا مستبشِرًا، حتى إني شعرت أنه يفاوض نفسه، ويحاول أن يقنعها بالرضا بالموجود، ويعوِّد نفسه على وجهي كما هو، لا كما تخيَّله، ويتبسَّط في الحديث، فانفجر غضبي في جوفي مغَصًا شديدًا بالمعدة، ودافعتُ عن نفسي، أظهرتُ عدم حماسي لِوُجوده، وعارضت آراءه بطريقةٍ أحرجَتْه وأحرجتكم، حتى أوفِّر له بابًا للخروج، فخرج بعد قليلٍ ووجهه للأرض، وأنت ذهبت تودِّعه للباب بقلة حيلةٍ، أمّا أنا فغبتُ في عتمة غرفتي، واستكنتُ ووضعتُ رأسي بين جناحيَّ، وحيدة، يمتصَّني الهمُّ البارد الممتدُّ من أعلى الرقبة، بغير ألَمٍ، كخفَّاشٍ متمرِّسٍ، كنت أنزف، لكن لَم أكن مضطربة.

أنت لَم تلمْني يومها، ولم تستفسر منِّي، فأنت تعرف أنِّي ورثتُ من أمي فوق التطلُّب والمبالغة في النظام والنظافة، وفوق الحدَّة والجدِّية، ورثت روحًا دفاعيةً شرسةً، وكان لزامًا عليك ألّا تقف عند الأمر، كأنه لَم يحدث شيءٌ، وهذا ما توقَّعته منك، فقد أخذتَ من أبينا السماحة وطيبة القلب والتواضع

وأخْذ الأمور ببساطةٍ، طيبٌ أنت يا رجب؛ وكلما اختلفنا منذ طفولتنا، كنت أصرُّ على أنني على حقٍ، وأنت لم تكن تصرُّ على شيءٍ، وكان يمكنك أن تترك أي شيءٍ لتظلّ بجانبي، وأنا كنت أقول في نفسي: ليتك تأخذ كلّ شيءٍ وتتركني.

اليوم الوحيد الذي شعرت فيه أنّي أحبُّ وجودَك معي في حياتي، وأني آسفةٌ على ذلك الشيء البغيض الذي يفوح مني، وآمنت فيه أنّ ذاك العصفور الملوَّن بسيطٌ لا يقصد الاختيال، كنت في الابتدائية وكنتَ أنت في الإعدادية، أعجبني إصرارك وأنتَ ابن استشاريٍّ كبيرٍ، ومن حيّ (المهندسين) الراقي، أن تعمل في الإجازة؛ وعملت في إجازة نصف العام في (معمل كتَاكيت) بحيٍّ (ميت عقبة)، وأخذ أبي الأمر كطرفةٍ، وأمّي كادت تُجن، وأذكر الصباح الشّاتي الماطر، قمتُ من نومي بعد أن أقلقني تجْوالك في غرفتي بحثًا عن شيءٍ في دُرجي، وأقلقني ذلك الحلم المشوَّش الذي رأيتك فيه مع أمّي في سيارةٍ مسرعةٍ في الطّريق الموحل، ومن أمامكما أمشي منكسرةً في يد أبي الرجل الطيب متورّم الجفنين تائهيْن، ومرَّت السيارة من جانبنا ولَم تقفْ لنا، ولطَّختنا بالوحل، وأخذنا أنا وأبي نتبادل النظرات الخجلَى ونحن نمسح الطينَ عن وجهيْنا، فقمتُ غاضبةً مستفزَّةً تحت تأثير الحلم، ومكثت قليلًا في تعكيرٍ وتشويشٍ تحت البطّانية الدافئة، حتى أدركت أني كنتُ أحلم، وأرهفتُ السّمع من تحت غطائي إلى هَمسك الذي زاده البرد شجنًا وحنانًا، كنتَ تهمس: (يا فتّاح يا عليم يا رزّاق يا كريم)، وتسللتَ من الغرفة وأنت تحمل الطاقية الجلدية التي كانتْ في دُرجي، وتبعتُك إلى المطبخ، فمسحتَ بيدِك على شَعْري، ولانَ قلبي لك، كما يلين ظهر قطةٍ لم تمسِّدها يدٌ حانية من قبل، وأخذتَ تعدُّ لنفسك (ساندويتشيْن) فول وطعمية؛ كغلام مسكينٍ مجبرٍ على العمل ليعول أهله، وكنتُ أساعدك بحماسةٍ، وفي ذات الوقت كنت أنبِّهك لكي لا تُسقِط الفتاتِ على الأرض، ولففتهما في ورق الجرائد، ووضعتَ على رأسك الطاقيةَ الجلدية وأغلقتَ أذنيها تحت ذقنك، وسألتني بلهجةٍ رجوليةٍ حانيةٍ إن كنتُ أريد شيئًا تحضره لي معك في عودتك، فهززتُ رأسي نافيةً بعينين دامعتيْن، لم أستطع أن أردَّ عليك من الخجل الذي حبس صوتي؛ نزلت خلفَك أتابعك وقلبي يسبقُ خطواتي، وراقبتك وأنت تحلُّ (الجنزير) الذي تربط به الدراجة الهوائية إلى رِجْل كنَبة البواب، وتضع طرَف بنطلونك في الجوْرب، كما يفعل العمَّال البسطاء، وتنفخ في كفَّيك وتَمضي، جلستُ قليلًا على كنبة البواب أبكي تحت المطر، وأعتذر لِطَيفك المقوس على دراجةٍ تمضي في برك الأمطار، وكان ذلك اكتشافي المبكّر لتأنيب الضمير.

في المساء يومَها، عدتَ مبتسمًا بحذائك الموحِل، والقشِّ العالق بسترتك الكاكيَّة، وقفص كتاكيت، وصرخَتْ فيك أمّي التي فتحت الباب، ورفضتْ دخولك، أدارتكَ أنت وقفصك تجاه السلَّم، فنزلتَ في هدوء المصدومين في صوصوةٍ حزينةٍ مناسبةٍ، فيما كان أبي يضحك مِن خلفك على منظرك البائس والطّين الذي غطّى حذاءك، ومن ضيوفك اللّطاف الصّغار بين يديك التي أحرجَتْك أمُّك معهم.

يومَها نزلتُ خلفك إلى حديقة البيت، وفتحت الماء وغسلت حذاءك الملطَّخ بالخرطوم، فيما لا زال طرَف بنطلونك في الجورب، وقَبِلتُ أخيرًا دعوتَك التي كنت أتهرَّب منها دائمًا كي نلتقط صورًا معًا؛ لقد عرضتها يومها بظمأٍ، وقام البوَّاب بالمهمّة بعد أن أهديته الكتاكيت، والتقطَ لنا بضعة صورٍ ملوَّنة لغلامٍ أشقر وطفلةٍ حنطيةٍ نحيفةٍ متورّمة الجفنين، لها غمّازتان لطيفتان؛ كانت كلّها من مسافةٍ بناءً على رغبتي، حيث كنت أوجِّه البوَّاب، ارجعْ، ارجعْ؛ ثمّ في غمرة الحماسة، وذاك الحبّ الذي غشَّانا

تحت المطر الخفيف، فانتعش منه عشب قلبي الذابل، ردّدتَ بحماسةٍ: اقربْ، اقربْ، حتّى التقط صورةً يَمْلؤها وجهانا الملتصقان، وأنت كنتَ سعيدًا جدًّا تبكي تحت الرذاذ.

ويا ليتَ الصّور تثبِّت ما كان يجيش في قلوب المصوَّرين للأبد، تبقَى الصورة، وتتغيَّر المشاعر، تسلَّلَتْ إلَيَّ ذاتُ المشاعر العارمة رغمًا عنِّي، وسكَنَتْني مرّة أخرى؛ كنت أحاول أن أنفضَها عنِّي كما يُنفَض الغبار، لا أريد أن أعود مرَّةً أخرى، أتَمَنَّى ابتعادك، غير أنِّي فشلتُ، سكن هذا الغبار على بلاطي مرَّةً أخرى، وازداد بِمُرور السنين، كما يتجمَّع في فناء بيتٍ مهجورٍ، إلى أن جاء الصّبح الشّتوي الذي ودَّعناك فيه إلى المطار، وأنت ذاهبٌ لدراسة الدكتوراه في أوروبا، وكلّنا متأثرون من فراقك، حتَّى أختك التي كانت تتمنَّى بُعْدك، ولَم أرضَ عن نفسي؛ لكوني بكيتُ فراقك يومها، وشعرت أني أحبُّك، حتى تعجَّبتم في الوداع من شدَّة بكائي؛ تمنَّيت لو أني شعرت بذلك وأنت معي، غير أني فشلتُ، وها أنت ذا مِلْتَ عليَّ بحنوٍّ بالغٍ في صالة المطار، وأنت تنفخ في يديك من البرد وقد قوَّستَ ظهرك، بهيئةٍ ذكّرتني بصبانا يا (بائع الكتاكيت)، وسألتني إن كنت أريد شيئًا قبل الوداع، فبكيتُ وسألتك عن الصور، أول وآخر ما التقطناه معًا من صورٍ، ونحن مبتلَّان بجوار الدّراجة، والصورة الوحيدة التي التصق فيها وجهي بوجهك ويظهر فيها ابتسامتك ودمعك، أين هي؟ فضربتَ جبهتك بيدك وقلت بحرجٍ إنّك نسيتها مع الدكتور حازم، أنسيتها مع الدّكتور؟! نعم، يا ألله! عرفت يومَها أنه رأى صور الطّفولة من قبل أن يأتي، ورأى لوني الحنطيَّ والغمَّازتين، يعرف إذًا ملامحي ولم تأتِ به الأوهام، يا ليتني كنت أعرف.

رفعت رأسي المختفي بين جناحيَّ في عتمة الاكتئاب، وسألتك بفضولٍ أنثويٍّ وصوتٍ هاربٍ من الخجل عمَّا قال لك بعد الزيارة، فقلت: إنّ صوته أبَحّه الحزن، وإنه شعر بعدم حماستي له، وقلت: إنك شاركته نفس الظنِّ بإيماءةٍ من رأسك، وداريت وجهك عنه حياءً، فوْر ما سمعتُ هذا منْك تنفَّستُ الصّعداء من تحت نقابي، واندفعت بحدَّتي أقول: هو شخص يبدو رائعًا.. وشعرت بالحرج؛ وقد (أخذتَ بالك) هذه المرَّة، وأجريت اتصالًا بجوالك وأنت تبتسم، وبعد قرابة نصف السّاعة، فاجأنا صوتُ حازم من خلفنا وهو يناديك، فقلت في نفسي وأنا أكتم ابتسامةً: (أهي صالة مغادرة هذه أم وصول؟!)، والتفتُّ لوجهه المشرق بالأمل والتقوَى وهو يقترب منَّا، صرتُ حمامةً خجلَى، غير مضطربة، واستدرتُ حياءً أنظر في الزجاج المظلَّل لصالة الجوازات، ولم تصبني الدّهشة وأنا أسمعه يطلب خِطْبتي منكم، وقد أعطيتكم ظهْري، لَم تُصِبني الدّهشة ممّا شممته من رائحة البنفسج تملأ صالة المطار، ومن تلك اللّحظات الجميلة التي صار العالم فيها كما أريد، فقد كنت أرى كلّ ما كان خلفي في الزجاج المظلَّل إلّا وجهي ووجهه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ليلة القدر

لا أطيل عليك الكلام، بقيت على عنادي، وأصررتُ على أن أرَى ذاك الشَّابَّ الذي سيبذل لي كُلْيَته، وأن أجلس إليه قبل أن يلبس كلانا الثّوب الأبيض، أريد أن أرَى وجهَ هذا الذي سيعطيني قطعةً منه، حتى لو كان هذا العطاء بثمنٍ، فأيُّ ثمنٍ سأدفع لإنقاذِ حياتي سيكون ثمنًا بخسًا، ولا تسألني عن: ماذا نويت أنْ أفعل إذا ذهبت له؟ أُرَبِّت على كتفه، أشكُره، أعتذرُ له، أشدُّ على يده قبل أن يدخل غرفة العمليَّات، كما يفعل النَّاس مع مَن سَيُجرون العمليَّات الجراحيَّة، لا أعرف، كلّ ما أعرف هو أنني أردت أنْ أراه.

وجدتُهم يحاولون صرْفي عن ذلك بكلِّ وسيلةٍ، وبكلِّ لطفٍ، ويقولون: إن هذا غير معتادٍ بين المريض والمتبرِّع، ورأيتُ في عيونهم قلقًا يُحاولون إخفاءه، وقالوا، وقالوا، وقالوا، إلّا أني قلت: أراه، أو لا شيء.

أخذتُ العنوان منهم كتابةً ورسمًا، وركبتُ سيَّارتي؛ حيث أعرف وجهَ المكان، وهناك عندما وصلتُ للحيِّ العتيق الرَّاقي، الذي طالما مررتُ به أو ذهبتُ لأحد مَتاجره، وجدت رجلاً واجمًا، يبدو أنه ينتظر مواصلةً عامَّةً، ووقع بصري على مَحلّ الزُّهور خلفه، كانت على جانبه باقةٌ زاهيةٌ، ارتكنت على منظرٍ طبيعيٍّ لحديقةٍ تتوسَّطها شجرةٌ، هذا المنظر مُلصقٌ على حائطٍ لعلَّه من خشبٍ، فانسجمتِ الخلفيَّة الخضراء مع الزَّهر، وكان ثمَّة ثقبٌ في جذع الشَّجرة التي في المنظر بحجْم العين، وفكّرت في زيارة الرجل وفي يدي باقةُ ورد، ثمّ سرعان ما شعرت أنها فكرة سخيفة وغير واقعيّة للتعامل مع رجل اضطرّه الفقر لبيع كليته.

سألتُ من سيَّارتي هذا الواجم المنتظِر عن العنوان، حكَّ في رأسه وأعاد عليَّ اسمَ المنطقة كأنه يستوثق منّي إن كانت هي المقصودة حقًّا، ثمّ أشار عليَّ أن أترك سيَّارتي هنا، وأُكمِل ما تبقَّى على قدميَّ؛ إذ لا سبيلَ لأَنْ تدخلَ سيارتي تلك الدَّهاليز التي سأقدم عليها، فبالكاد تلج بها درَّاجةٌ هوائيَّةٌ.

قد كان هذا مدهشًا لي كلّ الدَّهشة: أقريبٌ من هنا؟! كيف تتوارَى خلف هذه الحديقة العريقة من خلفي، والدَّارات الرَّاقية، وصَفِّ المتاجر الرَّاقية عن يميني- منطقةٌ بهذا السُّوء الذي يصفه الرَّجل؟! إنَّ ما يصف لا يبدو له أثرٌ من الشَّارع العامِّ، ولا لمَن يستخدم الجسر الشَّهير الذي يمرُّ أعلَى الحيِّ، أقريبٌ من هنا؟!

لا أطيل عليك، فقد ترجَّلتُ، ودخلتُ من الشَّارع الجانبيِّ الذي أشار إليه، والذي ستبدأ منه خطواتي الحقيقية إلى الرجل في منطقته المنزوية، مشيت به قليلًا، ولاحظت- أوَّل ما لاحظت- بعد تواضع البِنايات أن أهله لهم سَحَناتٌ مختلفةٌ عن المارَّة هناك من عند الحديقة، أو الذين خرجوا لتَوِّهم بعد أن تبضَّعوا من محالِّ الملابس.

هنا عرقٌ، وجهامةٌ، وكَبَدٌ، ووجوهٌ مرهقةٌ، على بُعد أمتار قليلة من أولي النِّعمة المضمَّخين بالعطر، نَضِري الوجوه، وقد كان هناك محلٌّ لإصلاح الدَّرَّاجات الهوائيَّة، محلُّ (عجلاتي)، تلطَّختْ يدا العامل به في الشَّحم، وهو يعالج درَّاجةً أمامه، كرسيُّها لأسفل وعجلتاها لأعلَى، وقد جلس على صفيحةٍ مقلوبة، ينظر في تروسها ويحرِّك بدَّالَها.

ومن جانبه ورشَ بسيطة أخرَى للسَّمكرة والخراطةِ والحدادة، وسألتَ العَجَلاتي؛ لأتأكد من وصف الرَّجل الواجم الذي يقف أمام الورد والحديقة والشَّجرة المثقوبة، أو بالحريِّ لكي أتذكَّر ما تبخَّر سريعًا من ذاكرتي، فقام لي، ومدَّ يده للسَّلام، فسلَّمتُ متأفِّفًا، ووصفَ، وكان وصفه أنفع وأحسن تفصيلًا.

ومِن هذا الشَّارع الجانبيِّ انعطفتُ بعد قليلٍ في شارع أكثرِ تواضعًا وضِيقًا، قد بغَى الفقرُ على سَحَنات المشاة به، وعلى وجوهِهم قَتَرٌ، وإرهاقٌ كإرهاق المعذَّبين في الخطوات الأولَى بعد الحريَّة، وفي العيون زيغٌ ومرارةٌ، كأنَّما في الصّدور مأسٍ لا آخر لها، فمَن هنا يشتكي لمن!

حتى وصلتُ إلى هناك، وما أدراك ما هناك! المنعطف الحرج الذي لا تدخله الشَّمس، والعناكب التي نسجتْ بُيوتًا عظيمةً عند كلّ ركنٍ وسقف، والجياع، وأناسٌ كأنهم خرجوا من الأجداث ممَّا عليهم من غبرةٍ وفزع ويأس، هناك حيث تشعر أنك خلَّفتَ وراءك منطقةً صناعيَّةً كبيرة عند العجلاتي والورش التي بجانبه، هناك حيث يخيَّل إليك أنك ابتعدت جدًّا، وأنك قد لا تعود، وإن حاولت أنْ تعود ضاعتْ بك الدُّروب وتشابهتْ عليك المخارج؛ لتنتهي حيث بدأتَ، فتعود من جديدٍ في محاولةٍ أخرى للبحثِ عن مخرجٍ، فتفشل، فتعود، فتفشل، حتى تنهار أخيرًا على الأرض باكيًا.

هناك حيث تشعر أنّ ثراءك تهمةٌ، وخيانةٌ للجماعة، واستفزازٌ قد يؤدِّي لتحرُّشِ مَن فاضَ بهم الكيل بك.

إنه قاع مدينةٍ متربٌ ورطب وحزين، ينسلُّ منه يوميًّا باعة جائلون، ومتسوِّلون، ومسَّاحو أحذيةٍ، وحمَّالون، ومسَّاحو عرباتٍ، ومُسلِّكو بلاليع، وهائمون على وجوههم لا ينتظرون شيئًا ولا ينتظرهم شيءٌ، كلُّهم ينادونك بأفخم الألقاب إذا ما ابتدروا إليك؛ ليخدموك ويذلِّلوا أنفسَهم لك، ويمسحوا سيَّارتك أو يحملوا عنك حِملًا في مدينتك؛ لتنقدَهم شيئًا يسيرًا من نُقُودك، هذا في مدينتك، لكن عندما تدخل خرائبهم تلك، فعليك أن تتأدَّب وتقلق، وتتمسكنَ إذا لزم الأمر.

وبعد مدَّةٍ، وأنا في سيْري على وصف الرَّجل في المَسار الثُّعبانيِّ أرَى وأشمُّ وأستمع جديدًا، لا أهمل شيئًا من التَّفاصيل، بدأتُ أشعر بألفةٍ تُجاه الناحية لا أعرف لها سببًا، وصرت أُمتِّع بشعوري بالرَّهبة الممزوجة بالاستغراب، وأحسستُ براحةٍ لم أشعر بها أبدًا في هذا السَّبيل العجيب الذي يُمكنني فيه أنْ ألمس الجدران على جانبيَّ، إنْ مددت ذراعيَّ عن آخرهما؛ وسعدتُ بسيْري بين الدَّجاج الذي ينقر في الأرض بلا تمييز، والقطط الصَّغيرة التي تلطخت ببولها والوحل والتُّراب، تتمسَّح في الجدران وتتثاءب وفي عيونها كسلٌ ودَعَةٌ.

ومررتُ بين جماعةٍ من الأطفال يلعبون حُفاةً عليهم الأسْمال، ودهشتُ من ضحكهم ومرحهم وهم يلعبون سعداء، لا يشعرون بالضِّيق ولا بالكبت ولا بالعوز، ولا يتخوَّفون من مستقبلهم الذي لا يعلمه إلّا الله.

ورغم هذا السُّرور العجيب الذي انتابني، إلّا أن الأمر لم يخلُ من قلقٍ، لكنه قلقٌ مثيرٌ يكمل ما أتلذَّذ به، اعتراني بعد أن خلَّفت من ورائي الدَّجاج والقطط الصغيرة والأطفال المَرحين، قلقٌ من الكلاب التي تبيَّنَتْ ضلوعها من الجوع، وقد سال ريالُها، وهُم يطاردونني بغير نباحٍ وبغير تهديدٍ، ففي يدي

وجبة إفطارٍ رمضانيٍّ كبيرةً من مطعم شهير؛ حيث أخذتَ إفطارًا معي للرَّجل وأسرته، ولأنّني لا أعرف حجمَ أسرته، احتطتُ وجلبتُ ما يكفي عشرةً أو أكثر.

كانت الوجبةُ شهيةً جدًّا ودسمةً، ولها رائحةٌ فوَّاحةٌ ومثيرةٌ، حتى إنِّي عذرتُ الكلاب الضَّامرة، طبعًا فكَّرتُ بشكل عاطفيٍّ في أن أجلس على قدميَّ وأضع العلبةَ في حجري، وأفضَّها؛ لأرمي منها شيئًا ما، ولكنِّي- وبشكل عقلانيٍّ من التَّفكير- أدركتُ أنني لو فضضتُ العلبة لخرج الأمرُ من يدي، وسأفزع، وستنهشني المخالب، وتسقط العلبة منّي، وتنتثر خيراتها على الأرض أمامي، نعم، هكذا يفكِّر بعض الأثرياء؛ للتغلُّب على الأفكار العاطفية.

المهمُّ: ما ردَّها عنِّي إلَّا شهم عصبيٌّ يجلس على عتبة بيته، لاحظ اضطرابي فتناول أحدَها بحجرٍ، فوقع الحجر على بطنه الضَّامرة، فسمعتُ كنقرةٍ على طبلةٍ، فتراجع المصابُ يعوي ويتلوَّى من الألَم، حقيقةً، تألَّمتُ لأجله، وودت لو أعوِّضه، ولكني لا أستطيع.

وانسحبتِ الكلاب بعيدًا مذعورةً خلف أخيها تطمئنُّ عليه، وخُيِّل إليَّ أنها جميعًا تبكي، والتفتُّ إليها بعد قليل بعين معتذرة، وقد ألهتْ أنفسها باصطياد القُرَاد من أجسادها، وتقبَّلتِ الأمر الواقع.

نظرتُ في كفِّي، للتَّذكِرة التي تركها لي العَجلاتي، فبدأتُ أستظرفها وأحبُّها: شحمٌ على كفِّي التي لم تتَّسخ بهذا الشّكل قطُّ، فتذكرت على إثر ذلك أنّني أتحرَّى رجلًا، وأنني لست هنا على سبيل السِّياحة، وأنني أخذتُ من العَجَلاتي وصفةً وعلائمَ ثلاث، وقبل أن أفكِّر في سؤال أحد؛ حتى أتأكَّد من سيْري في المسار الصَّحيح، ظهرتْ لي أولَى العلائم التي حدَّدها الرَّجل بعين جادّة، وصوت رجلٍ يترك وصيةً سريَّةً غامضةً: "وإنك ستلاقي بيتًا طينيًّا عتيقًا مهجورًا مطليًّا بالجيرِ بلونٍ أصفر، مرسومٌ على جداره الكعبة وجملٌ، ومكتوبٌ عليه دعاءٌ بأن يكون الحجُّ مبرورًا والذَّنب مغفورًا، وقد تقشَّر سنام الجَمل بفعل الزَّمن، وأفصح عن الجدار الطِّينيِّ تحته".

واستبشرتُ وأنا أمرُّ من أمامه، وأدركتُ أنِّي واصلٌ لا محالة، "ثَمَّ ماعزان مربوطانِ إلى شرفة خشبيَّةٍ بالطَّابق الأرضي، وقد شبَّا على أقدامهما يتناولان بمشقَّة أعوادًا خضراء ذابلةً، قد تدلَّت أطرافها من فرجةٍ بين ألواح الشُّرفة الخشبيَّة المتهالكة، بيتٌ فماعزان تحت شرفةٍ، ثمّ بذاءةٌ بالطَّباشير بحقِّ نادٍ كرويٍّ، هو بعد الشّتيمة ببيتين، فهل أعيد؟".

وها أنا ذا الآن بعد (الشَّتيمة) ببيتين، إذًا؛ أنا الآن أمام بابِ بيت الرَّجل الذي سيُقطَع منه جزءٌ لأجلي.

وقد تسمَّرتُ طويلًا هناك، يدي لا تطاوعني بالدَّقِّ على الباب، وما العمل؟ هل سأقف هكذا بعد كلّ هذا؟!

ثمَّ إذْ بامرأة شابَّة جادَّة سمراء، ترتدي خمارًا مُسدَلًا، تفتح الباب وتخرج حاملةً فوق رأسها قفصًا به أكياس لمشروبات شعبيَّة ممَّا يروق للعامَّة شربها، كما يروق للمرفَّهين شربها في الإفطار في رمضان من باب التَّغيير.

أنا لا أعرف ما في الأكياس بالضَّبط، لعلّه تمرٌ هنديٌّ أو خرُّوبٌ أو كركديه، تخطَّتني وكأنها لم ترني، إنَّها إذًا تهرول لتنفذ من الأزقَّة الدُّوديَّة إلى ناحية الشّمس والشَّارع العامِّ والمارَّة والمشاغل والورش؛ حيث يوجدِ منِ لديه مالٌ يشتري به بضاعتها البسيطة، أمَّا جيرانها في الحيِّ المهزوم، فلا أعتقد أن

لديهم سعة للشراء منها، لقد دقتْ ساعة الصِّفر عندها: نصف السَّاعة الذي يسبق أذان المغرب والإفطار.

لا أطيل عليك، سألتها مِن خلفها عن اسم الرجل الذي أبحث عنه، ومحلّ سكنه، وما وجدْتَني إلّا وقد سألتُ امرأته، نعم، التفتتْ وقالتْ إنّها امرأته، وبعدها سكتتْ واجمةً، ثمّ ابتسمتِ ابتسامةً مؤدَّبة بمشقة، وارتبكتْ محتارةً بين أن تقودني إلى زوجها أو تذهب ببضاعتها؛ لتتكسَّب بها شيئًا يسدُّ الرَّمق؛ إذ أخذتْ تبدِّل نظرها بين الباب والسَّبيل، وأعجبتُ بخوفها على مصدر قُوتها.

ولم يكنْ هذا سبب كلّ ارتباكها، أنا لا أخدع نفسي، إنَّها عرفتْ من أنا، أنا المريض الثَّريُّ، الثَّري الذي سيدفع خمسين ألفًا، تُحيي مواتَ هذه الأسرة المدفونة في الحيِّ الحضيض، والذي طلب عنوان زوجها، ورحَّب زوجها بزيارته في أيِّ وقت، ذاك أنا، وفي ذات الوقت، كنت رجلًا جاء من المدينة ليخطف بماله بضعًا من زوجها، فأطرقتُ مُحرَجًا.

ثمَّ طلبتُ منها شراء كلّ أكياسها، وأعطيتها مبلغًا جيِّدًا، وتركتُ الأكياس كما هي فوق رأسها، حتى أساعدها في اتِّخاذ القرار بأن تسبقني إلى زوجها وتترك البيعَ اليوم، ومشتْ أمامي جادَّة، ومحتارةً على ما يبدو بين أن تحتقرني أو تنظر إلَيَّ بتقديرٍ، وخيِّل إليَّ أن في عينيها دمعًا خفيفًا رقراقًا لامرأةٍ اعتادتْ على أن تكبح مشاعرها.

ودخلنا من بعد الباب إلى ممرٍّ داخليٍّ بين الغرف بعرض مترٍ، فلا أعرف إن كان هذا بابَ (ربعٍ) مغلقًا على عديد من الغرف والشُّقق السَّكنيَّة، أم بابَ بيتٍ؟ وعليه فأنا لا أعرف إن كنَّا في زقاق تمرُّ به الناس أم في طُرقة مما في داخل البيوت والشُّقق، يسدُّ هذا الزقاق- أو الطرقة- من منتصفه طَسْتُ غسيلٍ تجلس إليه شابَّة ظهرها لنا، نادتْ عليها المرأة منبِّهةً إيّاها لقدوم غريب، فتوارتِ الشّابة خجلَى وتركتْ طستَها، وقد علتْ يديها الرَّغوة، وأخذتْ ترمقني من جانبٍ، وترمق العلبة بفضولٍ وهي تتشمَّم بنهمٍ، بينما نحن نمرُّ من فوق غسيلها.

معي للآن؟ طلبتُ منها أن تخبر زوجها أنني جئتُ لأفطر معه، فدخلتْ، وتركتني أمام باب مسكنهم، فوقفتُ أجول بنظري بين ما يقع حولي من معالم عالَمٍ مدهشٍ مُخشوشنٍ.

وتعجَّبتُ من حمَّام البيت الذي أمامي، وقد قصرتْ بأهل البيت النَّفقة لأن يجعلوا له بابًا خشبيًّا، ووضعوا ستارًا لا يسبل إلى العتبة، يمكنك أن ترَى مِن تَحته سطلًا قديمًا من صفيحٍ، والأرضيَّة الكدراء كأنما نمتْ عليها الطَّحالب.

وأنا في حالتي هذه من الفضول والاندهاش، وقد استندت إلى الحائط بظهري وباطن حذائي، إذ بالمرأة تستدير من داخل، وتطلُّ عليَّ وتشير لي بأدبٍ بأنْ ألِجَ من الباب الذي عن يميني آخر الطَّرقة، وأنتظر زوجها هناك، وهو باب إزاء الباب الذي دخلنا منه، ويبدو أنها تحسَّستْ من وقوفي ناظرًا للحمَّام البائس.

دخلتُ من الباب، فوجدت فناءً صغيرًا مكشوفًا يصله ضوء النَّهار، به حبال غسيلٍ خاليةٌ، وفي ركنه الآخر طقم غرفة استقبالٍ قديمٌ جدًّا، كان فاخرًا يومًا ما، ويبدو أن أصحابه قد استغنوا عنه ورموه، فالتقطه أصحاب (الرَّبع) واستخدموه؛ ليكون مناسبًا لاستقبال الضُّيوف، وقد علاه الغبار، وتخلخلتْ

بعض أرجله، وتغيَّر لونه الأحمر القاني وصار إلى الأحمر الرُّمَّانيِّ، وثمَّة بقعتان على كنبته من آثارٍ قديمةٍ لبول الأطفال.

خرجتِ المرأة بمنفضةٍ، ونفَّضتْ الكراسي والكنبة بهمَّةٍ وحرجٍ، ودعتني لأن أجلس، فجلستُ ما بين البقعتين وطرحتُ علبة الطَّعام الكرتونيَّة على الكرسيِّ المجاور، بينما كان الغبار قد تهيَّج في جو الفناء حولي.

ومضى بي وقتٌ وأنا منشغلٌ بما حولي: زير الماء الذي وُضِع له صنبورٌ عند أسفله، والصَّوت الرَّتيب لقطراته التي تنزل على حجر صغير، وبقلةُ حِلْبةٍ صغيرةٌ نبتتْ بالقرب منه ترتوي من قطراته. وهذه نحلةٌ وقفتْ تطنُّ تحت الزِّير، ثمّ حامتْ حول الحلبة، وذلك ظهرُ لوحٍ من الخشب أُغلِق به منفذٌ آخر من الفناء إلى جهةٍ أخرَى خارج هذا (الرَّبع)، وهو مثبَّتٌ على حائط النَّاحية الأخرَى، ولا يبدو منه من ناحيتي إلّا جزءٌ بسعة الباب الذي سدَّه، وقد كان باللَّوح الخشبيِّ ثقبٌ مرَّتْ منه النَّحلة.

وكذلك أخذتُ أنظر إلى صورة (بروس لي) القديمة على الحائط، وقد وقف بسرواله الأُسودُ مستنفرًا، وعلى بطنه جروحٌ، عجبًا! حتى الذُّباب هنا أصابه الجوع بالهلوسة، فوقف على جراح (بروس لي) لاعقًا!

ثمَّ كانت بانتظاري مفاجأةٌ، لا أستطيع أن أصف لك مقدار خزيي واحتباسَ أنفاسي وتهدُّل كتفي، وكيف سقط وجهي إلى الأرض، لَمَّا رأيتُ الرجلَ أمامي، وعظم تَرقُوتيه يظهر مثيرًا للشَّفقة من جلبابه الأبيض المهلهل، يستند على عكَّازتين مشلولًا.

وحكى لي كيف أنه كان يعمل بكلِّ جدٍّ وأمانةٍ بمستودعٍ بأحد المصانع، وبراتبٍ زهيدٍ، حامدًا شاكرًا، وقد استغنَى عنه المالك الجديد منذ شهرٍ، وقال إنه لا فائدة في الحقيقة ترجى من وجوده.

ورفع رأسه لأعلَى كمَن يحاول أن يسيطر على مشاعره ويتأبَّى على الدَّمع، لكنه لم يستطع، دمعتْ عيناه، فنظرتُ إلى عينيه وهو يُحاول أن يرفعْهما عن بصري، فدمعتْ عيناي أيضًا، فأخذت أطيِّب خاطره، وأواسيه؛ ثمّ استغرقنا في حديثٍ وُدِّيٍّ رقيقٍ، كأنّنا متعارفان منذ زمنٍ بعيدٍ، أحاول أن يكون حديثنا خفيفًا يبعث على السُّرور.

ثمَّ نظرتُ إلى الساعة، وطلبتُ منه أن ينادي زوجته؛ لتضع لنا طعام إفطارنا، ولقد جاءتْ، وأخذتْ من العلبة ووضعتْ لنا طعامنا، وتحرَّكتْ بها كنحلةٍ نشيطة، توزِّع الطَّعام على جيرانها وهي سعيدةٌ بأنها تسرُّهم، ثمّ دخلتْ لتأكل في بيتها ما أبقتْ لنفسها، وما كنت أظنُّ أن أحدًا قد بقِيَ على وجهها ممَّن يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصةٌ، وجلستْ في مِهْنَتنا عند بابها مستترةً عنِّي، وقد ناديتُها، ورجوتها أن تجمع لي العظام لأحملها معي في ذهابي.

انتهينا من طعامنا، ثمّ شربنا الشَّاي أنا والرَّجل، ومزحنا وسمرنا، وتوضَّأتُ من ماء الزِّير، وأنا أشمُّ رائحةً كرائحة وردٍ قد أنعشه المساء والبَلَل، ثمّ إننا ذهبنا معًا لصلاة العشاء والتَّراويح، في مصلًّى صغيرٍ بالحيِّ، وقد ذكَّرنا الإمام بأننا في العشر الأواخر، وأنَّ علينا أن نتحرَّى ليلة القدر التي هي خيرٌ من ألف شهرٍ، وأن نتقرَّب إلى الله بالأعمال الصَّالحة، فتمنَّيتُ أن أتقرَّب إلى الله في هذه الأيَّام المباركة بعمل يحبه، ثمّ صلَّيتُ، بين تلك الزُّمرة من المضطرِّين، يؤمِّنون على دعاء الإمام بكلِّ فقرٍ

إلى الله، وصاحبي عن يميني يرتجف في الدّعاء، فبكيتَ له، ثمّ بكيتَ لنفسي، ثمّ إنّي شعرت بنورٍ يغسلني وسط المساكين.

خرجنا من صلاتنا وسرْنا إلى بيته، وأنا خفيف النَّفْس، وقد امتلأ قلبي من عند الله حبًّا للرَّجل، ودخلنا بيته، وبينما كانت زوجته تقدِّم لنا كوبيْن من التَّمر الهنديِّ، أعطيتُ ظهري للرجل الذي صرت أحبّه جدًّا، وكتبتُ له شيكًا مصرفيًّا بالمبلغ كله، وأعطيته إيَّاه، وقلت له: أنْ لا حاجة لي إلى كُليَتك يا صاحبي، وتلجلج كأنَّما لا يصدِّق، وبدأتْ يداه ترتعشان من وقعِ الخبرِ عليه، فقلتُ له باسمًا وأنا واثقٌ من أنني لن أعود فيما أعطيتُ، وأنِّي وُقِيتُ اللَّيلة شحَّ نفسي: لعلَّها ليلةَ القدر.

وتركتهما من خلفي يبكيان فرِحينِ، يربِّتان على كتف بعضهما بعضًا، يخرجان من صدريهما آهاتٍ تذيب الحجر، ويدعوان لي برضا الله والجنَّة وحسنِ الختام، حتى أصاب جسمي بردٌ وقشعريرة من دعائهما، ودمعتْ عيناي، ومِلتُ إلى الأرض، وأخذتُ العظام التي جمعتها المرأة في كيسٍ.

وخرجتُ ليلًا في راحةٍ ما بعدها راحة، وكأني نسيتُ أني بحاجةٍ إلى كُليَةٍ، أمرُّ مبتسمًا في هدأة اللَّيل، على ماعزين وقططٍ ودجاجٍ، كلُّها نائمةٌ في أمانٍ، وأخذتُ أوزِّع العظام على الكلاب الرَّاقدة، وزدتُ المصابَ ضِعفًا من الطَّعام، فأخذتْ الكلاب تتشمَّم، وفتحتْ أعينها، هيَّا، طعام اللَّيلة بلا عناءٍ، وشكرتِ الله على الرِّزق الذي ساقه إليها بغير نباحٍ وركضٍ في اللَّيل الوسنان، ووضعته بين ساقين، وأخذتْ تأكل بسعادةٍ ورضا.

ولَمَّا خرجتُ حتى وصلت إلى حيث ركنت سيَّارتي عند محل الزُّهور، وأدرتُ مفتاحها وفتحتُ زجاجها، راحت منِّي نظرةٌ شاردةٌ إلى صورة الحديقة والشَّجرة المثقوبة فيها، فأطفأتُ السيَّارة ونزلتُ منها، واقتربتُ من صورة الحديقة؛ حيث وقع في نفسي ظنٌّ عجيبٌ أحببتُ أن أتأكَّد منه.

وبينما كان عاملُ الأزهار قد دخل محلَّه، أخرجت جوَّالي، ووضعته على أذني كأني أجري مكالمةً، وقرَّبتُ فمي من الثُّقب الذي بجذع الشَّجرة وأنا أستند إليها، وناديتُ مرَّتين أسأله إن كان به حاجةٌ أخرى إليَّ، وانتظرتُ قليلًا، ثمّ ناديتُه مرَّةً أخرى،كأني أنادي بالجوَّال، فتأوَّه اندهاشًا من الناحية الثانية التي يفصلها عني لوح الخشب: أأنت هنا؟! وتأوَّهتُ أنا أيضًا، وضحكنا ونحن على جانبي الجدار الذي يفصلنا، ومشيت سعيدًا سعيدًا، كان المسكين قريبًا جدًّا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

الدّيك الحمّصي

كان الديكُ الحمصيّ فوق سطح البيت الطّيني المسقوف بالبوص يؤذّن بالفجر، وكان مزعجًا جدًّا بصوته الذي يشبه صوتَ غلام حديث البلوغ؛ والجار العصبي الشّركسي الذي تصادف أنْ كان يبيت في استراحته المجاورة التي يأتيها في زياراتٍ موسميّة، والتي تتوسَّط ربوةً خضراء صغيرة ترتفع قليلًا عن الأرض يقبع تحتها هذا البيت البسيط، انزعج من إلحاح الدّيك على إيقاظ النائمين وعدم تسامحه مع المسْتَسلمين للنوم، فخرج ببندقيّته وانسل من كتلة من الضّباب نازلًا في سطوة الكابوس، حتى منتصف المنحَدر وهو ينصبّ صبًّا، وقف وصوَّب بندقيته تجاه الكتلة المعْتِمة المستفزّة للديك الصائح فوق السطح، ومزّقه بطلقة من بندقيته الميزر (أم تاج) تناثر لها ريشه الحمصي اللّون في الغبش التوتي الغافي للفجر. وأخذ يضرب الأرض برجله كالمجنون ويسبّ ويلعن ويتوعَّد الكلب صاحب الدّيك بأن يلحقه بديكه إن كان يجرؤ على أن يخرج إليه، فيما بدأت نقاطٌ من الدم الحارّ تتساقط عبر البوص على اللّحاف الهزيل الذي يغطي صاحب الديك وزوجته اللّذيْن لم يستيقظا على صوت الطلقة بقدر ما أيقظهما سكوت الديك المفاجئ.

حاول الزّوج الشابُّ أن يخفي رعبَه وهو ممدّد بجانب زوجته العصبية الصغيرة التي لا تصبر على الإهانات، والتي شرعت فوْر استيقاظها في تأليبه على الشّركسي الذي يتوعّده بالخارج، وحاول قدر جهده ألّا يتلعثم، ولكنه تلعثم رغمًا عنه؛ وسرعان ما شعر أنّ أمعاءه بدأت تذوب، كأنها من زبدة دافئة،كما بدأ شيء كندف الثلج يتراكم على ساقيه ببطء. كان يحاول باستماتةٍ أن يقاوم انهياره الذي يكاد يصلُ به إلى الشلل، حفاظًا على صورته العظيمة عندها التي اعتنى برسمها منذ أن انْغلق عليهما باب البيت بعد الزّفاف الريفي البسيط، فقد استغلّ سذاجة زوجته التي في السّادسة عشر من عمرها، وأفهمَها منذ بداية الزواج بفمِه المعوجِّ ناحية اليسار قليلًا، الذي يعطيه لمحة خادعة من التصدّي والمكابرة- أنّه مرّت عليه فترة غامضة بعيدًا عن البلد، لا يعرف أحدٌ عنها شيئًا، كان فيها شابًّا شقيًّا من أبناء اللّيل يحرق الأجران، ويقطع أذيالَ البهائم كنوع من التهديد لأصحابها، ولطالما مشى على جثث طازجة قبل أن يتوب الله عليه؛ وظلّ يحكي في الأمسيات هذه القصص التي تلذّذت بها تلك الزوجة الصغيرة التي أنجبت له طفليه خلال أعوام الزّواج الثلاثة، وكان يدخل في حالةٍ من النشوة من إيمانها به الذي يشعّ من بريق عينيها المندهشتين أثناء احتسائهما الكركديه المعدّ على الكانون أمام الدار على ضوء القمر.

إنّ كلّ شيء من الكرامة والرّضا المستمديْن من نظراتها المنبهرة به عرضة الآن للزوال، وكل الاطمئنان الذين كان يبثّه فيها عندما تراع بسماع ذئبٍ بعيد أو خشخشة ورقِ شجر تحت أطراف كلبٍ هائم، عندما تجده صلبًا راسخ القلبِ فتعتصر يده التي عليها وشمُ السبع- ربما يذهب بعد قليل أدراج الرياح.

كانت هي متيقّنة تمامًا من صدق ما يقول، ولم تكنْ بحاجة إلى أن تأتي فرصة تختبر فيها الطبيعة القاسية التي يختزنها في أعماقه التي دفعته للقيام بتلك الأعمال المهولة التي يدَّعيها، وهو بطبيعته المتفائلة كان يظنّ أنّ هذه الفرصة لن تأتي أبدًا، ولكنّها جاءت بغتةً، وعند بابهما.

استمرّت الزّوجة الصغيرة بغير هوادة تسبّ من فراشها على الرجل الذي يسبّ زوجها من الخارج، وكلما وضع زوجُها كفّه على فمها أزاحتها وأكملتِ السّباب. وأخذت تضرب زوجها على صدره تحثّه كي يخرج إليه ويريه مقامه، ويأخذ حقّ الديك من حبّة عينه، ويريه أيّهما هو الكلب، فقال لها بصوت نضحَ عليه الجزع: والتوبة؟ فقالت جدِّدها من بعد ذلك.

وعندما هدّدت بأن تخرج له هي إنْ ما خرج إليه بنفسه، اعتدل وملأ عينيه من الملامح الطيبة الدقيقة لطفليه الصغيرين النّائمين بينهما، ابن السّنتين، والرّضيع محمد الذي لم يكمل عامَه الأوّل، الذي قبض على أصبع أبيه وهو غائب في النّوم، فربَّت الأبُ على كفه وسحب أصبعه مستسلمًا للمصير، وقام وهو يفرد (التقشيطة) البيضاء الكتانية التي تصل إلى ركبيته، التي شعر بأنها مثل قماشة الكفن، ومضى إلى الباب وهو يشعر بأنسام الموت الباردة، ويتحسس في أضلعه حنينَ الوداع، ولم يشعر من شدّة الرّعب الذي أصابه أنه وضع قدميه في شبشب زوجته بوردته الصفراء الفاقعة.

وحاول أن يستخفّ بالهول الذي يدبدب في قلبه ويلعقَ أطرافه ككلبٍ سمج، ويمنّي نفسه بالنجاة؛ فالأمر لايستحق، وبندقية الشّركسي من (أم تاج) التي لا تحمل في خزانتها غيرَ طلقة واحدة، وهي تلك التي أسكتتِ الديك، ولم يعد هناك داعٍ لأن يعمِّرها من جديد؛ ولكنّ قلبه كان يحدثه بأنه يرى الآن المناظر الأخيرة للحياة.

ولمّا تخطَّى بابه رأى للوهلة الأولى في السّماء التوتية اللون الغافية كوكب زحل، كنقطة صفراء حزينة، واتجه مذعورًا للرجل الغاضب. وبعد ثوانٍ أكل الخوف قلبَ المرأة وهي تتنصَّت، لما لاحظت انخفاض صوت الرجل العصبي، فعندما انخفض ذلك الصوت صار صوت رجلٍ شرير لا صوت رجل غاضب، كأنّ غضب الرجل ذهب بماء عينيه، ففهمت أنّ عقل الرجل قد طاش بخروج زوجها إليه، واندهس قلبُها بنبرة زوجها الخفيضة التي تظنّ أنه يستنجد بها لطف الله.

وعندما همّت بالخروج لتسحب زوجها من ذيل ثوبه القصير بهدوء من أمام ذلك الفحل، كان الوقت قد فات، فقد فزعت هي وصغيراها اللّذان استيقظا من النوم، على صرخةٍ مرعبة من الزوج تردّدت في الآفاق، عاد بعدها يقبض على محاشِمه من شدّة الألم، وهو يترنّح حول السرير كطير مذبوحٍ، ثمّ عضّ على طرف اللحاف وسحبه بأضراسه من فوقهم وسقط على الأرضِ، وعلى عينيه تجلّطت دمعتان كالشّمع المسال، وثبتت فيهما حسرة، كتلك التي على عين دابة للتوِّ أُخصِيت.

وفي الجلسة العرفية، نظر المحكِّمون لخروج القتيل للوجيه الغاضب الذي يحمل بندقية على أنه كان حماقة نادرة، ورأوا أنّها حادثة ضرب أفضى إلى الموت، فهو وإن كان قد ضربه بحذائه الغليظ في مقتل، إلّا أنّ السيد الشركسي لم يتعمّد في الحقيقة إزهاق روحه؛ وذكروا في حكمهم على سبيل التّبرير لانخفاض قيمة التعويض أنّ المقتول هو رجل عويل ليس من أصحاب الأنساب؛ وتنازل الشّركسي العصبي بموجب حكم الجلسة على فدانٍ من الأرض يلاصق بيت القتيل في محرّر رسمي تعيّنت فيه الحدود وأحواض الجيران الزراعية.

وصنعتِ الأرملة سورًا حول قيراطٍ من الأرض وأدخلت فيه بيتها الملاصق للأرض، والذي هو ليس أكثر من حجرة، واعتاشت من فلاحة البقية.

ولدها الرّضيع محمد انتابته حالة غريبة منذ فجر الفزع، هزل، وأصابه حوَل في عينه، وأدام البكاء، حتى مات بعد أبيه بشهرين، فدفنته في ركنٍ داخل سور البيت وضربت عليه قبّة بيضاء، على عادة بعض العائلات في دفن صغارهم في أطراف البيوت واعتبارهم مبروكين.

وظلّت لسبع سنين تعضّ اللّحاف الذي عضّه زوجها حتى لا تنسى ما حدث في ليلة شتوية، ظلّت لسبع سنين صابرة حتى تبدأ في الانتقام بعد أن يتوقّع الشركسي أنها نسيت، لا بل حتى تتوقّع هي نفسها أنها نسيت، فالانتقام يحتاج إلى خداعٍ واسع للذات.

وبعد مرور السّنة السابعة، بدأت تهتمّ بزراعة الملوخية تحميلًا على المحاصيل الأخرى، وعندما تبدأ البيوت في التّثاؤب بعد العشاء، تفوحُ من بيتها كلّ ليلة رائحةٌ قوية للملوخية بالثّوم، تطبخها على حطب الكانون بالقرب من شيخِها الرّضيع على نار هادئة، تنفخ فيها من حرِّ قلبها، حتى يختلط الدمع الذي أسالته الأدخنة بدمع الحزن السّاخن، وأخذ الهباب يتراكمُ على شيد القبة البيضاء. كانت تركب بعد الطبخ جحشتها السوداء التي شارفت على البلوغ، حتى توهم مَن يراها أنها ذاهبة لمسافة قصيرة تتحمّلها الجحشة، تمضي وقد وضعت في الجراب مذراة قمح من الحديد للدّفاع عن نفسها إذا ما باغتها ذئب، وماعونها النّحاسي مليء بالملوخية أمامها على ظهر الجحشة السّوداء، التي تشغل نفسَها عن الحمولة الثقيلة بتشمّم الرائحة الفواحة طيلة الطريق.

كانت تضع على الملوخية المطبوخة بالثوم قدحًا من الجاز، وتذهب إلى حيازات الشّركسي النائية لتغرف لكل نخلة من أفضل نخلاته في الليل الحالك غرفة وتوزّعها عند أصلها، وتمضي من هذه إلى تلك، كشبح ليلي متنقّل أرّقته الأحقاد، حتى تحمل ماعونها فارغًا وتعود إلى بيتها، وعلى وجهها بهاء مخيف.

تمرّ على كلّ نخلة في عدّة ليال، ولا تسهو عن نخلةٍ واحدة تعهّدتها بالسّقيا المميتة، تسقي النخلة الجاز، حتى تمرض وتعجز عن الإثمار، ثمّ تموت ببطء في عذابٍ لا يشعر به أحد، وتعطيها الريح مظاهر الحياة الكاذبة، إلى أن يتمّ اكتشاف موتها.

أمّا هي، ورغم المواظبة على مسيرة القتل الليليّة، فلم يشكّ في قتلها للنّخل أحد، فرائحة الملوخية تستر رائحة الجاز، وعندما تذهب رائحةُ الملوخية تكون رائحة الجاز قد راحت، وما بقي لها من أثر أخضر عند أصل النخلة لا يلفت الانتباه؛ لكن فاحت عنها أقاويل تنسجمُ مع العزلة التي ضربتها على نفسها، ومع عثورها على (مسخوطة) لقردة محنّطة بالقرب من المقبرة القديمة واحتفاظها بها في مخْدعها، فقيل إنها تطعم من الملوخية صغار الجن في المطارح المهجورة حول البلد، وهابها النّاس كما يهابون السّحرة، ولم يجرؤ أحد على أن يتتبعها.

وبلغت الجحشةُ بعد أشهر، وصارت أتانًا قويّة معتادة على سرية الليل الغريبة، ولا تزال المرأة في طريق الانتقام، كلّ ليلة تعدّ الملوخية الخضراء أو الجافة المخزنة على أفضل وجه كأنها ستطعم منها ضيوفًا أعزاء، لتغرف منها عنوةً للنّخل الحزين الصّامت، ومرّت السنون وكبرَ ابنُها الذي تبقى لها وعرف بحياة أمّه السريّة التي منعته من أن يؤنسها بها بالذهاب معها، مرّت السنون وهي تجمع الحصى لكلّ نخلة ماتت، وتنام كلّ ليلة نومًا عميقًا بعد أن مسحت يديها النّحيلتين العصبيّتين في خرقة الانتقام، تجمع الحصى سبعات، كلّ حصوة تسجّل بها موت نخلة، وسمَّت كلّ حصوة (همّ)، وكلّ

كومة من سبع حصوات (حزْن)، وكل سبع كومات (حزّون)، حتى مرّت عشر سنوات وهي تحمل الماعون النحاسي، وبمرورها كانت قد جمعت عند رفيقتها الثديّة، القردة المحنطة، بذلك التلذذ الذي يكون عند بخيل يختلي بنفسه ويعدُّ نقوده في العتمة- أربعة من الحزون، وخمسة من الحزن، وثلاثة من الهمّ، موثقة بهذا النّمط البدائي من الإحصاء، اغتيال مائتين وأربع وثلاثين نخلة، دون أن يشك الشركسي فيها أو في غيرها.

لقد وصلت إلى الثّالثة والثلاثين، وهي تعمل بكلّ جدّ في الطريق الذي اختارته لنفسها، ولم تكن تجد أي مشكلة في أن تذهب بالليل لاصطياد بعض النّخلات الطيبة، فالنخل لا يهرب، لكنّ الشيء الذي يصرّ على الهرب ويكلّفها كثيرًا من التعب أن تحتفظ به، هو صورة زوجها الأولى، قبل السّاعة المشئومة، ففي زمن الصبر الذي امتد إلى سبع سنوات ثمّ زمن الانتقام- كانت تكبر، وكان هو من ناحيته مثل كلّ الذين ماتوا لا يكبر، وظلّ عند الثانية والعشرين، كانت تبذل جهدًا في أعماقها لكي لا يصير عندها مجرّد شابّ صغير، ظريف وكذّاب، وهي نظرة لم تنطق بها ولا وشوشت بها نفسها، ولكنّها مختفية في أماكن ما فيها، وتزعجها في بعض الليالي أثناء رقادها، مثلما يمكث البقّ في ثنايا وخفايا الأَلْحفة، ثمّ يزحف بالليل إلى الأجساد الدافئة المطمئنة ويفسد راحتها. وعلاوة على ذلك، وفي أوقات أكثر تباعدًا، كانت تهبُّ عليها هبَّات مقبِضة من ذلك الخوف الخفي الذي يشعر به المنتقمون: وهو أن يخذلهم الذي ينتقمون له، وإذا داهمها هذا الخوف الغامض، المقلُّ في زياراته، قامت في الليل إلى القبة، ورمت جسدها عليها، كأنها تستنجد بهذا البريء بلا خطيّة، الذي مات مريضًا مرهقًا كثير البكاء بسبب جريمة الشركسي، كي يؤكد لها شرف الطّريق الذي مضت فيه، حتى صار الأمر برمّته مثل ديانة سريّة تعتنقها بكلّ ما لديها من تزمت، وتؤدي طقسها بغير انقطاع، يتخلّل عمرها في هذه الديانة نوباتٌ من الشكّ العابر العابث، ترتّب بعد مرور هذه النوبات فوضى روحها وتزداد نقمةً واتقادًا.

وبعد أن مرّت العشر سنوات، وهي تظنّ أنها ستبقى على ما هي عليه؛ لأنّها أيضًا تخاف من الخروج منه، كخوف كلّ النّاس من الخروج ممّا استولى عليهم، كان الشركسي في زيارة للاستراحة، وجاء ذكر المرأة، وانقبض عندما سمع من ضيوفه عن غرابة أطوارها، وشعر في أعماقه بالأسف من أنّها لم تستطع تجاوز ما حدث، وشعر بالخجل من كونه هو الذي ساقها إلى هذا المصير، وأشفق عليها ورأى أن يتلطّف معها ويعرض عليها فدانًا آخر من الأرض لابنها الذي صار في التاسعة عشر، وربما يفكّر الآن في الزواج. وعندما مضى ضيوفه ووصل إلى منتصف المنحدر، وهي واقفة عند باب بيتها وبجوارها ابنها، تمامًا عند النقطة التي صوَّب عندها تجاه الديك ثمّ بدأت المأساة- دفعت ابنها للداخل أمامها، ودخلت هي من وراء ابنها ونظرت إلى الرجل الذي يتجه إليها بكل ما تستطيع من كراهية ثمّ أغلقت الباب بعنف في وجهه.

وفي الليل، وكانت في بيتها مبتهجة، وقد أعطت نفسها إجازة نادرة من سرية الليلة، وتشعر في ذات الوقت شعورًا غريبًا بأن هناك شيئًا ما يهدد النار الموقدة فيها منذ سبع عشرة سنة، فوجئت بطرقات على باب البيت، طرقات متلاحقة، وفتحت الباب، فوجدت شابًّا أصابها الذهول عندما رأته، حتى أنها رجعت خطوة للوراء من الصدمة، وهو الشابّ لا يعرف سبب ذهولها، ولا يعرف مغزى الرسالة التي يحملها من السيد الشركسي، وكان يحمل إليها تمثالًا من السّكر، من حلوى المولد الذي اقتربت

ليلته، استحدثه الصناع منذ سنوات وأسموه (الجدع)، وهو عبارة عن شابّ صغير يرفع سيفه، وقال لها إنّ سيده يقول لها (إنّ زوجك ترك عندنا هذا الجدع من سبع عشرة سنة، ودققي النّظر فيه وستفهمين، وقد سكتنا وحفظناه، ولولا ما أحزننا من أحوالك ما قلنا).

وسألته المرأة وهي تبلع ريقَها، إن كانت أمّة جارية خدمت في بيت السيد هنا من زمن بعيد؟ فهزّ رأسه موافقًا، وسألته عنها حتى عرفتها، وكانت جارية صغيرة في عقلها خفّة كأنها طفلة، والشابّ الذي يقف أمامها تراها كأنه زوجها، إنه نسخةٌ منه، حتى بفمِه المعوجِّ إلى اليسار، ولم يبقَ لديها إلا اختبار واحد فقط، وبعدها لن تستطيع أن تتّهم السيّد بالافتراء، فسألت الشابّ الذي كان قد قال لها إنّ سيده في مزرعته التي على بعد أميال، وهو سيعود إليه بعد أن يودعها- ألا يخشى أنْ يمضي وحده بين الزراعات في تلك الساعة المتأخرة، فقال لها: عيب يا خالة، أنا أفوت في ألف رجل، وأنا إن جعتُ أخذت من الذئب طعامه.

عندما قال هذا أيقنت إنّه ابنه، وأيقنت أنّ الجدع الذي يشير إليه السيد ليس التمثال كما فهم الشاب الذي يحمله، بل الشابّ نفسه الذي يحمل التمثال، السيد يقول لها إنّ زوجك غوى الجارية خفيفة العقل، ودخل البيت واستباحه، وحملت منه، ولمّا اعترفت عليه الجارية الصغيرة خرج السيد غاضبًا متحججًا بالديك، وركل زوجها فقتله.

وبعد دقيقةٍ واحدة، كانت تضع رأسَها على الباب الموصد بعد أن تركها الشّاب، وهي تشعر بقسوة الواقع الذي عليها أن تحيا به من الآن كما يعيش النّاس، بعد أن فقدت ما كانت تعتنقه، وسقطت عنها عباءة الخيال الذي وضعها عليها الانتقام، والتي أعطتها حجمًا أكبر من حجْمها؛ إنها تشعر بوطأة الحقيقة، التي كانت تسرح فيها دويباتها في الليالي المتفرّقة، فبنت الثالثة والثلاثين، النّاضجة، عاشت مخدوعة لمدّة سبع عشرة سنة، وخذلها من انتقمت له، كما كانت تشي إليها هبَّات الخوفِ المتباعدة، أمّا بنت السادسة عشر، السّاذجة، فقد انتقمت من زوجها في ذلك الفجر. وهي لا تدري، عندما ألحَّت عليه وأجبرته على الخروج.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

ودّة

كان وجهُ المرأة يملأ الدّنيا وهي تقف في فناء بيتها المفتوح على سماء النّهار ونداءات الملعب، وتضع طرحتَها على فمِها وتلتقط حجرًا وتهدّد: (انزل يا كلب)؛ كان على وجهها تلك الصّرامة المخيفة للمدافعين عن أنفسهم، للمُرابطين على حرماتِهم، كان على وجهها تلك القوّة البائسة، التي لا تشبه بحال القوّة الجرانيتية التي تكسو ملامح المرأة في تمثال نهضة مصر.

كان الوجهُ يملأ الدنيا في أعين الثّلاثة الذين كانوا مِن حولها: الكلبة المهقاء، وبنتها، وطفلها.

الكلبةُ البيضاء المهْقاء التي تبدو إن ثبتت في مكانها كأنّها تمثال من الجبس، متمدّدة في الخلف، ترضع جراءها التي تتنازع على أثدائها، وفي عينيها اعتذارٌ حزين لصاحبتها عن طبيعتها المُسالمة التي تمنعها من النّباح على هذا المتطفل الوقِح الذي يطلّ من عند السّور، هذا الغلام الذي اقتحم سترَ البيت مِن ناحية الملعب، يتابع أثرَ الكرة التي سقطت في الحوش، وقد طلّ رأسه من فوق حافّة السّور الذي تسلّقه بصعوبة، وقد تشبّث به بين قطع الزجاج المكسّر على الحافّة، محمولًا على الأذْرع، وعينه اللّصة تضرب يمينًا ويسارًا بحثًا عن شيء يروي ظمأ مراهقٍ غارق في أوهام بلوغه الإباحيّة، وعلى وجهه ابتسامة بلهاءُ لزجة،كشفت لثّته العليا كلّها. ولمّا رفعت المرأة الحجر وشتمته، اختفى رأسُه من عند السّور بسرعة، وارتمى على الأرض خارجًا وتبادل الضّحكات مع أصحابه، فرمتِ الكرة إلى الخارج وهي تتفل.

بنتها ودَّة الفاتنة، التي خرطَها خرَّاط البنات قريبًا، وتسلّلت من الطفولة، كانت جالسة بالقرب من الباب الكبير تلعب الجيلان بالحصى، ولمّا رفعت أمّها الحجر وشتمتِ الفتى، واختفى رأسه، سقط الحصى من كفّها التي تسرَّبت إليها رقّة الأنوثة، وجرت إلى الحجرة هاربة كغزالةٍ خائفة، تستشعر ثقلَ التغيّرات العظيمة التي طرأت عليها؛ إنها فهمت ما حدث بعين طريدةٍ لا غير، فهمت أنّ هذه الإطلالة المقتحمة الوقحة كانت عليها هي وحدها.

طفلها ورْدان الذي كان وقتَها صغيرًا يجلس في فناء البيت يرتدي جلبابًا بنصف كمّ، مربوط على ساعده رباط به لحم ختانه، سيفكّ عن تلك اللّحمة العفنة الرّباط وتلقَى بعد مرور أسبوع من الختان؛ وكان عليه آثار مرض القوباء الجلدي الذي ألهب ذقنه، وعلى جبهته كفٌّ من نحاس يتدلى من خصلة من شعره الذي كان بنيًّا في الطفولة، لصقت أمّه هذا الكفّ في شعره بلبانة ممْضوغة لتمنعَ عنه العين. في ذلك النّهار الذي لا ينساه، عايش وردان مصدومًا، ولأوّل مرّة تكلفة من تكاليف العيش، وأمّه تقبض على الحجر بيدِها المتوتّرة من شدّة الحنق، بتقاسيم وجهها المغتاظة، ونظرات حقدها التي تقدح شررًا، تهدّد به ذلك الغلام، ومن ذلك النهار، بدأ يتهجّى هذا العار من بيتهم الغريب العتيق ذي الحوائط المضروبة بالطّين والتبن، الذي لا يشبه البيوت الأخرى في الشارع المقامة بالطوب الأحمر، بيتهم ذي الحوش الواسع غير المسْقوف، المنكشف من ظهره للمتسلّقين من ناحية الملعب، والمنكشف كذلك للجيران في النوافذ والشّرفات من الناحية الأخرى التي يطلّ عليها، الذين لا يمكن للأمّ أن تهددهم هم أيضًا بحجر حتى لو كانوا يتابعون من أماكنهم كلّ شيء في حياتهم وبأعين غير هاربة.

لا سقفَ هنا فوق هذا البيت إلا البوص الذي على حجرة النوم الوحيدة، ذات الدّرجين الحجريين الكبيرين، كأنهما منْهوبان من معبدٍ أثري، حفرتِ الكلبة المهقاء تحتهما بيتًا لأجيال متتابعة من الجراء؛ وكانت الأيام طيبة يسيرة، يلعب ورْدان كلّ يوم في طفولته المبكّرة بهذه الكلاب المسالمة الكسولة نهارًا وهي تمشي وديعة في رموشها المسدلة البيضاء، وألسنتها أمامها، مستجيبةً لأوامره، متفهّمة طفولته؛ ثمّ تتحوَّل في منتصف الليل لتلعب هي بأعصابه، حينما لا يظهر في ظلام الحوش الدّامس إلَّا الالْتماعات المخيفة لأعينها القرنفلية؛ كان هذا هو الخوف عنده ولا شيء غيره، إلى أن راحت طيبة الأيام وعرف- منذ أن طلّ الفتى أمامه من حافّة السّور- معنى الخوف من البشر.

ذلك البيتُ كان نائيًا وحده، لا بيوت مِن حوله، على أطراف هذه البلدة التي كانت ريفية يومًا ما، حينما كان سكان هذا البيت في الأيام القديمة يرون وهُم يمشون بالقرب من بيتهم مقامَ (الحجاوي) المصبوغ باللون الأخضر الزرعي، قائمًا على أطراف القرية على مسافةٍ منهم، في أبّهة متواضعة منحها إيّاه الفراغ الذي انضرب حوله، آمنًا في حرم طبيعي من الأحجار التي نبتَ بينها الشّوك والعاقول، وفي حرم مِن نعيق أمّ قويق التي تعشّش هناكَ في تجويف شجرة ميتة. البيتُ والمقام فقط هما كلّ ما تبقى في المنطقة من ذلك الزمن، زمن الحقول القديمة، والمصارف والسواقي، والتي ردِمت جميعًا ولم يبقَ لها أي أثر على الإطلاق. لقد مضتِ السّنون، واختفت القرية تمامًا بعد فترة من الاضمحلال التدريجي، وذهب أهلُها متتابعين في كلّ ناحية، وامتلأ الحيّ بالسكان الغرباء عن هذه الأرض، أمّا أفراد هذه الأسرة الباقية البائسة القليلة العدد، التي تغيبُ في هذا الزحام ممّن ووفدوا على هذه الناحية، فلا يزالون يتكلمون عن تفاصيل القرية التي كلّمهم عنها آباؤهم المنعزلون، كما لو كانت ثمّة قرية الآن؛ ومن شدّة عزلتهم وفقدهم الشّعور بالزمن، يسمون أكثر من مائتي ألف من السّكان حولهم: (اللاجئين)، كما كان آباؤهم المنعزلون يطلقون على السكّان الجدد الذين يظهرون كلّ قليل.

كان العمران قد أخذ يتّسع عامًا بعد عام، ويزحف باتّجاه البيت الذي كان وحده في عهدة الخفاء اللطيف، قابعًا تحت مرتفع ترابي صغير تنمو فيه أشجار مائلة، ويرمي ظهره على بركة ماء واسعة مكشوفة في السماء الصافية تنزل إليها أسراب الطيور المهاجرة في رحلة الخريف، إلى أن جاءت الأيام التي اختنقت فيها البركة وبدأ ماؤها يتبخَّر ويزداد عكارُه، وكانت تقاوم الموت قدرَ جهدها وتبتهج في مواسم الأمطار وتتعافى ويتحسَّن ريحها، إلَّا أنها كانت بشكل عامّ في تدهور بطيء، حتى صارت مجرّد بقعة داكنة من الماء، ضلت الطيور الطريق إليها بعد أن واراها سخام المدن والضّجيج. وبعد سنوات قليلة، صارت أرضًا شديدة السّواد عاطلة لا يمرّ منها أحد، فجاء شباب الحي بصخبهم، لهذه الأسْرة المتوحّدة الغريبة التي اعتادت على عيشةٍ من الانطواء الذي وصل بهم إلى كآبة هادئة صاحبوها وارتضوا عشرتها، وقاموا بردْم وتسوية التراب على ذلك الحمأ من الطّين الناعم والمتموج والنتن الذي آلت إليه بركة كان يقف على ضفافها رحّالة ومستكشفون وصيّادون أرستقراطيون، وخطّطوا بالجير على هذه الأرض ملعب كرة القدم.

ومن أمام البيت، تقدّم العمران حتى وصل إلى الجهة التي يطلّ عليها باب البيت الخشبي القديم، بعد أن قضم المرتفع نفسَه بأسنان الجرّافات، وامتلأ الشّارع الموازي للملعب شيئًا فشيئًا بالبيوت، حتى لم يعد فيه أرض فضاء، ثمّ ازداد عددُ سكّانه وارتفعت طوابق بيوته وأنجبت الأسر مزيدًا من الأطفال الذين نشأوا معًا. ولم يعد بإمكان سكان البيت أن يروا مقام الحجاوي، الذي صار الآن يسدّ حارة

صغيرة منزوية، يضل الطريق إليه مَن يقصدونه مِن خارج الحي. وبعدما يمرّون من تحت العباءات النّسائية والجلابيب والصدريات التي علقها البائع على الأحبال أول الحارة الضّيقة، تمتلئ عيونهم فجأة بالإطلالة المعبّقة لهذا المقام المتواري الذي قطعوا له المسافات في ليلة المولد.

والأسرة التي استحدثت الباب الضيّق من ناحية الملعب، هربًا من أنْ تشعر بأنها تسكن في الشّارع المزدحم بالناس الغرباء، صارت محصورةً بين صياح الحياة القادم من ناحية الباب الرئيسي، وصياح اللعب، فمالت لغلق البابين في أكثر الأوقات.

وبعد كلّ تسديدة خرقاء تطيحُ بالكرة في صحْن الدار المكشوف، يندلع خوفُ ورْدان، ويتسوَّر أحد اللاعبين البيت باستهتار حماسي، متفاديًا تلك النّقاط التي زرع فيها الأب الغائب شظايا الزّجاج على حافة السور، كاشفًا حياة هذه الأسْرة التي اتّفق اللاعبون جميعًا على أنّ أفرادها غريبو الأطوار ومنعزلون. وكان الطفل في كلّ مرّة يصرّ على أن يشتكي لأبيه حينما يعود، ويرمي حملَه عليه، إلّا أنّ الأب الغائب طيلة النهار في عمله البسيط في قمينة طوب على حافة النيل السعيد، يعود بالليل مكدودًا بخطواتٍ منهكة في البُلغة البيضاء من جلد البقر، وعلى وجهه غبار الطوب الأحمرِ والإجهاد، كأسيرٍ عاد للأهل مشيًا بعد مدّة طويلة من الغياب، ويذهب إلى الغرفة ويأتي منها بالـحُـقّ النّحاسي ويفتحه، ويجمع فيه هباء الطّوب الأحمرِ العالق بوجهه، حتى يذكّرهم بشقائه في طلب الزّاد لهم بعد أن يرحل فيطلبون له الرحمة، فيبتلع الطّفل شكواه متماشيًا مع رغبة الأم والأخت في عدم تكديره.

وكبر الطفلُ قليلًا، وبدأ يخرج لعتبةِ البيت من ناحية الملعبِ وحده، يتجوّل أمامها حافيًا مطاردًا الجراء، أو صانعًا عصافيرَ وبشرًا وكعكَ عيد من كرات الطّين الجيد الذي كان أبوه يجلبه له من عمله، أو بانيًا بيتًا من التراب والطوب والأعواد، وهو يردّد أغنية يقول فيها (يا غراب ابني لي بيت) التي لم يعدِ الأطفال يردّدونها أثناء بنائهم لبيوت من الرّمل أو الطين منذ ثلاثينيّات القرن العشرين، إلّا أنّها عاشت في هذا البيت المنعزل الذي لا تتغيّر حياة الأجيال فيه تغيرًا يُلحَظ؛ لكن محاولته البريئة للتكيّف لم تصمد أمام قسوة المراهقين، وماتت على وجهه ابتسامته اللينة التي قابل بها دعابتهم، وتلميحاتِهم، لقد خمَشوا قلبَه الصغير، وازدادوا ضغطًا عليه بلا رحمة، ولم يراعوا أنه رغم صغره بدأ يفهم بشيء من التّشويش معنى الحرج والغيرة، لقد تكلّموا وهُم يشيرون إليه، أخت هذا الولد، الجميلة، الطرية، التي اطّلعوا عليها وهي مدّدة على جنبها على فراء الكبش، ومرّة وهي مقرفصة تمصّ القصب بنهمٍ غجري وقد أحيطت شفتاها المكتنزتان بدائرةٍ بيضاء من نِثار القصب، أو عندما مدّدت ساقيها تفلّي شعرها الأسودَ الغزير المتماوج الغارق في الجاز تحت شمس العصر. ولمّا زادت عليه هذه الهموم الغامضة، حملَ عصافيره وكعكه وبشره ونادى على جرائه المهْقاء راجعًا، مال للبيت ككلّ أهل البيت، ولم يعدْ يخرج من بابه المطلّ على الملعب ليلعب بجرائه وعصافيره، إلّا إنْ كان الملعب فارغًا من جمهوره الفظّ ورائحة عرقهم الذّكورية الوقحة، منكمشًا في أهله المسالمين، متتبِّعًا أذيال ثلاثتهم في خطاهم المكدودة داخل الحوش الواسع.

هذا البيتُ الطاعنِ في الفقر، أذعن سكانه جيلًا بعد جيل، تحت تأثير نوعٍ شاذّ من الصبر المتوارث، أو الخوف، أو اللّعنة، على أساليب قضاء الحاجة لسكّانه القدامى في القَرن التاسع عشر، كان بغير كنيف، يخرجون هُم الأربعة في ظلام الليل وستره معًا لقضاء الحاجة بعيدًا عند مكبّ الزبالة

والحيوانات النّافقة والأنقاض؛ هذا المكب الذي كان الوالدُ مرعوبًا من أن يمرّ به العمران في زحفه التّمساحي المخيف فيبتلعه، وتقف الأسرة وقتها حائرةً تمسك بطونها في دنيا ضاقت بما تضيق به أمعاءُ أفرادها. كان ورْدان طفلًا يأخذ الأمرَ كتسليةٍ يومية ليلية، ويشعر بغبطة تجاه هذا التوزّع اللطيف لهم هُم الأربعة بين تلال النّفايات، وتجاه نداءات المؤانسة التي يتبادلونها من خلف تلالهم، وتجاه تلك الوداعة التي يمضون بها خفافًا من هناك إلى مأواهم، أمّا أخته فكانت تشعر بالوضاعة وهي ذاهبة، وبالتلوث والانكسار وهي عائدة، وتذوب حرجًا هناك من القمر، ومن ذكور الحمير النافقة.

الأب الذي كان يخاف النعمةَ، أيّ نعمة، والذي كان يتصرّف كما لو كان عليه ذنب يكفِّره عنه عناؤه في الحياة، والذي كان يصاب بدُوارٍ غريب إذا اضطرّ إلى دخول أحد الأماكن الفخْمة، ويشمئزّ من أيّ شيء بهي، ويرتبك من كلّ الأشياء الحديثة التي لم يعرفها آباؤه مثل المصعد والتليفون والسلالم الكهربية، لم يرتح لنعمة الجمال، جمال ودَّة الفاتن، ورأى أنه لا داعي له، إنه تبْذير، وحمولةٌ يجب التخفّف منها في مسيرة الحياة الشّاقة، وخصوصًا في أسرة بسيطةٍ تعيش في بيتٍ له فناء بغير سقْف، أسرة حاصرها العُمران وجُمهور المشجّعين. وأعطى الأمّ تعليمات أساسية صارمة، منها أنْ لا تزجج حاجب البنت أبدًا، وأن تعفي شاربها الخفيف، وأن تنهرها إذا ما شعرت بأنّ مشيتها بالحوش بها شيء من اللّيونة، لكنّ جَمالها العنيد الباذخ لم يأبَه بانزعاج أبيها، ولا بقيوده المتعسِّفة، فعاند وتألَّق في الحاجب الأسود الطويل المندهش المرسوم بالفطْرة، وساهم الشّارب الخفيف معه في منحها لمسة من طزاجة حاضرة وعفوية متفجِّرة.

والأب عاكف كان يتهرَّب من مدّ مواسير للصّرف الصحي من بيته إلى البيّارة بالشارع، بسبب كراهيته للتغيير، وبسبب فقْره، وبسبب استخساره أن يدفعَ القليل الذي ادّخره في شيء يحصل عليه مجانًا بخدمة الخلاء؛ كان في أعماقه يعادي الشّراء عمومًا من ناحية المبدأ، ويظنّ أنّ الإنسان الصالح لا يشتري إلَّا للضرورة، أمّا الإنسان الكامل فهو الذي يبذل جهده في مراوغة الضرورات.

وظروفُه وطباعه دعّمهما شكلٌ من أشكال الوَرع الشاذّ العنيد القائم على الحدْس والإحساس الشخصي، لا يقبل أن يعرضه للمناقشة: كان لديه إيمانه المحفور فيه بأنّ الشّيخ محمد شقيق جدّه وجدّ زوجته الذي مات رضيعًا مذعورًا، منذُ أكثر من مئة سنة، ولم تفلح في علاجه طاسة الخضَّة ولا الضرب بالشّبشب على صدره، والذي أقامت والدته على جثمانه الصّغير هذه القبة البيضاء داخل البيت بالقرب من الباب الصّغير المطلّ على الملعب، هذا الشيخ لا يريد لتلك الوَساخات أن تصل إلى هذا البيت الطّاهر الذي يسكنه أحفاد أخيه.

غير أنّ عاكف الذي بذل جهده في مراوغة هذه الضرورة طوال السنين، وتحمَّل في هذا لومَ أفراد الأسرة واستعطافهم، والنظرات الجارحة للجيران؛ استسلم بعد عمرٍ طويل لإلحاح أفراد الأسْرة، الذين أقنعوه بأنّ احتجاب القبّة خلف ستارةٍ من قماش هو حلّ سيقتنع به الجدّ رأفةً بأحفاده؛ ورضخ لرغبتهم في مِرْحاض بلديّ رخيص داخل البيت له باب، لا أكثر، في حجم كابينة التليفون الضيقة.

وكان يشعر بالحِنق والغربة وهو يقف خلف أفراد أسرته الذين وقَفوا متدلّلين يشعرون بالسرور والزهو عند المحلّ الذي يبيع القواعد بأنواعها المختلفة من حجرٍ وحديد زهر، متباهين رغم ملابسِهم

المتواضعة وشباشبهم المنزلية القديمة؛ كان يشعرُ فيهم بخيانةٍ لتاريخ العائلة المتّصل مع البؤس، كان يكتم تأوّهاته وهو يشعر بأن الليالي التي كانوا يذهبون فيها للخلاء ويعودون ها هي ستذهبُ بغير رجعة، وهو يشعر بأنّ قدسية جدّه ستُخدَش عندما يقضون حاجتهم على بُعد أمتار من أسطورته.

وبينما كان العاملُ يحفر في المكان، والأمّ قد وضعت عنده مصباح الجاز، وقف الأبُ بعض الوقت عند قبة جدّه خافضًا رأسه في هيئة اعتذار، ثمّ شعر فجأةً بمخلبٍ ثقيل يهوي على صدره، فصرخ صرخةً فظيعة والتمّوا عليه. وبعد أنْ أفاق وهو في غاية الإجهاد، أوقفَ المشروع الطّموح وهو يبتسم لزوجته: (الشّيخ محمد ممانع يا عنبر). وقد كان سعيدًا رغم حالته الصحيّة بهذا المرض المباغت الذي دعم خرافته التي بدأ يشعر أنّ أفراد أسرته على وشك الكفر بها، سعيدًا لأنّه خاف أن يشكّ هو أيضًا، وهو لا يعرف، كيف يمضي وقته بعد سقوط هذا الوهْم الممتدّ الجميل.

الأب المجهَد، والمرتاح النّفْس للإجهاد، سقط مريضًا بالسّرطان بسبب دخان المازوت بالقمينة، كما تقول الفُحوص، أو عوقبَ من جدّه كما أصرَّ. وغلبه طبعُه كشخص سلبي لا ينزعج لما يحدث له، ولا يحبّ أن يتسبب في الإزعاج لمَن حوله، ولا يبحثُ بعصبيّة عن وسيلةٍ للهروب منه، حتى أنه أراد أن يكتفي ببعض السفوف ومنقوع أوراق عشبية رخيصة من عند العطار، وجرعات من الحلتيت والمرِّ، بالإضافة إلى سهرات مطوّلة من الاعتذار عند القبّة والناس نيام؛ كلّ هذا ليظلّ ببيته، إلّا أنّ امرأته انفجرت فيه لأوّل مرّة تشتكي من عذابها مع قلّة حيلته وضعف همّته حتى حبس نفسه طيلةَ عمره في عملٍ واحد لم يفكّر في الفِكاك منه، ومن تردّده في المطالبة بحقوقه وبحقوق أسرته من صاحب العمل ومن الدّولة، فبانَ على وجهه صدمة رهيبة وقد كان يظنّ أنّها مؤمنة به كإيمانه بالشيخ محمّد جدّهما صاحب القبّة، وشعر بالخيانة، ورآها كائنًا متمرِّدا فظًّا، وظالمـًا، فهو ليس له عند صاحب العمل إلّا الأجر الذي يأخذه بغير تأخير، كما أنه لم يكنْ يأخذ فكرة وجود دولة على محْمَل الجِدّ، كان يراوغها كما يراوغ الضّرورات، حتى أنه- رغم هذا الفقر المدقع- لم يكن مرحَّبا باستخراج بطاقة تموين، واحتاجتِ الزّوجة إلى سنوات حتى تقنعه بها.

تعجَّب عاكف من هذه اللّهجة الجديدة على هذه الأسْرة التي لا تصارع من أجل أيّ مطلب، وتمنى لو أكملت زوجتُه وشريكته في تلك المعيشة الضّنك جميلَها، وتصبر إلى المنتهى حتى يراوغ الحياة كلّها إلى أن يجده الموتُ ويريحَه، دون أن تضعه في مواجهةٍ قاسية مع نفسه، لكنْ وبالنهاية، ومع تراجع حالته المتتالي الذي لم ينفع معه الحلتيت والمرّ، الذي وصل به إلى حالةٍ من السلبية تحت تأثير الوَهَن، بحيث أنه لم يعدْ له أيّ قدرة على الاحتفاظ بحقّه في اتخاذ قراراتٍ بشأن نفسه، طالما أنه يحتاج لأن تلاصقه في السير إلى قضاء الحاجة خوفًا من السقوط المفاجئ؛ امتثل لها مذعورًا وهي تقول له بصرامةٍ لم يعهدها أنّ سيارة أجرة قادمةً الآن لتقلّه إلى مستشفى قصر العيني، فنظر لها كأنّها باعته للموت، وهو يتخيّل نفسه تائهًا في مكانٍ ضخم مزدحم يمرّ الأطباء والممرضات في ممرّاته مسرعين ليس لديهم رغبةٌ في الاستماع لأحد، في هذه الرّوح العملية الصارمة التي تطحن المترددين على المكان، حيث سيشعر هناك أنه تافهٌ ولا قيمة له.

ومضَوا وهو ينظرُ لسور البيت البائس دامعَ العين كأنه يُطرَد من الجنة. كان رأسه على كتفها في السيارة كطفل محموم ارتمى على أمّه، وكانت المرأة الحانقة توشْوِشه، كأنها توشوشه بخلاصة عشرتِها معه، بأنْ يستأسد على حقّه، ككلّ النّاس، ككلّ الناس خارج البيت القديم.

في هذه الأجواءِ الحزينة، كان يجلس بين زوجته وابنته ودّة ذات السّبعة عشر خريفًا التي كانت تبكي بهدوء، وكان يضع يدَه على ذقنها، كأنه يعتذرُ لها عن شبابها الذي جنتْ عليه الظروف، وكانت تربّت على كتف أبيها الهزيلة تواسيه، أمّا وِرْدان الذي وصل إلى العام السّابع، فكان يجلس بجانب السّائق متذمرًا من نظراته لأخته في المرآة، فيما كانت أختُه في أوّل مرّة لها تركب فيها التاكسي منبهرةً بالحداثة والرّقي التي توحي به السيارة الجديدة بالفراء الأبيض الصّناعي الناعم على التابلوه، وخراطيم الإضاءة البديعة، والدّمى المعلقة، وفوّاحة العطر.

ومن خلال المرآة كان السّائق الشابّ يسرق النظراتِ لتلك الشابّة التي تألّقت في الحزن، محتفيًا بها جدًّا، كأنه وجد ضالتَه في هذه التي يستند إليها الأب المحطَّم، وكانت ودّة المؤمنة بمهمّة أبيها الثقيلة التي لم يكملها للآن، وبالمصاعب التي ستقبلُ عليها أسرتها في الأيام القادمة إن مات أبوها، كانت مرحِّبة بهذه النظرات رغم صعوبة الموْقف، بقوة الرّغبة في البقاء. كانت تشاهد أباها وكأنه يستأذنُ للانصراف من الدّنيا، وكان من قمّة البرّ به عندها هو أن تساعد هذا الذي ظهر لهم فجأة على أن يفكّر فيها، ويشتري جَمالها بعرقه في سبيل هذه الأسرة الفقيرة، ليجرّ عربة هذه الأسرة بديلًا عن هذا الحصان العجوز الذي أوشك على السقوط.

مرّت دقائق على هذه اللّغة المُفْعمة بالرّجاء المتبادل والعزاء والحنوّ، وتأكّدت ودَّة أنّ هذه الشاب لن يتركها، بدليل أنّه تحايل على سيْر الحديث المفْتعل ليقول إنّه أخذ شقّة مطرحين وصالة، ويطلب دعاء المريض له بأن يجد بنت الحلال التي تصونه. وبعد أنْ دعا له الأب، أفسدَ هذا الجوّ الطيب بتلقائيّته المعهودة، لقد تذكّر بعد قليلٍ أنه ذاهب لفحوصات وكشوفات، ممّا يعني أنه سيرفع ثوبَه، فطلبَ من السائق فجأة أن يعود للبيت الآن، (نسيت اللباس)، فانقبضَ الجزء السّفلي من جسد الفتاة بوقع الكلمتين، وبعدها، في رحلة العودة إلى البيت، ثمّ رحلة الوصول إلى المستشفى، كانت الشابّة قد ركبتها الرّوح الانهزامية ورجعت طفلةً غير مسئولة عن التفكّر في مستقبل الأسرة، وانقطعتْ عن استراق النّظرات للسائق، بعد أن أفاقت على أنّ الأمور الأخرى حولها هزيلة، تهين جَمالها، فيما كان السّائق المتشبّث بها يحاول طول الطريق أنْ يبدو بسيطًا ومستسهلًا ما حدث، ومنزعجًا بسبب انصرافها عن النظر إليه واكتفائها بالنّظر إلى العالم مِن خلال زجاج السيارة وهي تلعبُ في شاربها مشتّتة منكسرة، وكان يحاول أن يساعدها على الخروج من حالة الهمّ الواضحة بتشويهِ أبيه وجدّه، بل وأمّه أيضًا، بالقول إنهم كانوا مثل هذا الأب ينْسون أحيانًا ارتداء الملابس الداخلية، إلّا أنّ هذا الكرم الهزلي، والشّهامة المثيرة للغثيان، وهذا الحديث الذي أعجب أباها الذي ترحم على زمن الناس البركة، زادها نفورًا وزادها ارتدادًا للطفولة.

لقد ذهبَ إلى المستشفى مهمومًا خائفًا من قسوة العلم والرّوح العملية، ومات هناك بعد أربعة أيام في القميص الأبيض، وقد كان يعاتبُ زوجته عتابًا جادًّا في لحظاته الأخيرة على أنْ أخرجته من بيته وعرّضته لهذه (البهدلة). وبعد سنتين، رحلت الأمّ التي أصابها ضعفُ البصر والمياه البيضاء، كانت تقضي حاجتها عندما لاحظت شيئًا كحبّة عنب خضراء ممتلئة يتجوّل بين الأوراق العفنة عن يسارها، أخذت تقلب فيه بالعصا بفضول وعيناها أرهقهما التحديق الذي أخفق في تحديد هوية ذلك الشيء المتجوِّل، ثمّ بعد قليل وهي غافلة أخذتْ لدغة خسيسة وقاتلة من العقرب في حياها فعضَّت على طرحتها من الألم والخجل.

والجميلة ودّة، وصلت لمنتصف العشرينيّات، تائهة في الأيام المتشابهة، بين الجدران الأربعة للحوش الواسع، وتحت بصَرِ النّساء المتطفّلات في الشّرفات المقابلة للجيران من سكّان الشارع المزدحم، تفتقد الإحساس الضّروري لشابّة خجول مثلها بأنها مستورة وبعيدة عن الأعين، تسير بخطى السّجناء في ساعة الفسحة، مستسلمة لخطّة الرّاحل الفاشلة في طمس أنوثتها وجَمالها. وجعلها الحزن والتوحّد وضبط الخطوة، وأسمالها المغبرة الدّاكنة، فتاة جادّة مهمومة منشرخة، ترقبُ ظلّها أثناء سيرها، كحمامة بيضاء دائمة الأحزان أنساها الهمُّ بساطة التّحليق. وعندما كانت تفتح البابَ الخشبي الضّخم بالمفتاح المعدني الضّخم الأثري، وتخرج إلى الشارع يعلوها كسلُ العراقة، تفاجأ بالزّحام كلّ مرّة، كخطر يهدّد انطواءها المشحون بالقلق، وتفاجأ كغزالة بهذه النظرات النَّهِمة التي لازالت تطاردها من البعض في الطريق وتربكُ خطواتها، تلك النّظرات التي ازدادت وقاحتها من بعد موت والديْها، كانوا يتثاءبون في شهوتهم المريضة تثاؤب الذّئاب، حتى أصابها شكٌ في نفسها، من شدة يقين هؤلاء الجوعى في أنه يليقُ بها أن تقع، كأنّهم رأوا في ظلال رموشها الكثيفة إثمًا لم تأثمْه بعد، رغم إيمانها أنها ليست من سكّان هذا الشارع المزدحم المنفلت، إنها هنا من قبْله، هو الدّخيل عليها، وهي هنا منذ أكثر من مئة سنة.

وفي هذه المتاهة الرّكيكة التي كانت تبدو بلا نهاية، طرق البابَ الضيّق المطلي باللون الأخضر الداكن، المطلّ على ملعبِ الكرة، وفي ساعةِ عصر؛ رجلٌ شائب سمين ماتت زوجتُه أثناء الولادة منذ ثلاثة أشهر، فخرج له أخوها ابن الخامسة عشر مستغربًا، فلا علاقة مباشرة لهما به، والأسرةُ لا تستقبل أيّ زائرين، لأنه ليس لديها التجهيزات المناسبة لذلك، ومنها دورةُ المياه، ووضع له ورْدان كرسيًّا خشبيًّا عريضًا بغير مسندٍ أمام البيت، وقلَبَ صفيحةَ دهان فارغة وجلس عليها بجانبه، وعرض عطية الزّواج على أخيها من جلستِه قريبًا من نقطة الضّربة الركنية، وفي صخب مباراةٍ هامّة، فارتبك ورْدان قليلًا، ثمّ استوعب أنّ الخطوة القادمة هي أن يستشير أخته في الأمر، وإن بدا عليه خيبة أمل عارضة من أن يكون هذا الرّجل الكبير عريس أختِه الجميلة، رأى في الأمر إهانةً جديدة لعائلة مُهانة تمامًا، لكنها إهانةٌ مثيرة لبعض الشّعور بالتفاؤل. ودخل ورْدان أمامه من الباب ليعرض الأمرَ على ودَّة، دخل وتنحنح لكي يعلم أخته بقدوم الضّيف، ولكنّ عطية الذي حاول الدّخول خلفه بكلّ حماس انحشر في الباب الضيق، وبذل جهدًا في شفطِ كرشه من أجل المرور، لكنّه فشل وتقطّعت أنفاسه، فخرج مرّة أخرى محرجًا قليلًا ومبتسمًا، ينتظر من وردان حلًّا مناسبًا لهذه المعْضلة، وهو يضع يديه على وسطه، وأنفاسُه لا تزال مضطربة بسبب الجهد الذي بذله في حشر نفسِه، وورْدان كان ينظر له كأنّه يعاتبه على فشله في المرور الذي زاد الوضع سخفًا، ذلك الفشل الذي قوّى لدى ورْدان وسواسًا قديمًا بأنّ حياة أسرته رهينة للحبْكات السّاخرة. ثمّ طلب منه ورْدان- بلطفٍ به عدوانية مكتومة لا يلحظها رجلٌ ضعيفُ الملاحظة مثل عطية- أن يتعبَ معه قليلًا ويتحرّك باتجاه الباب الآخر الكبير في الشارع الأمامي، حتى يرى العروسة ويكلّمها، وكان هذا بالنسبة لورْدان تكديرًا وعقابًا مناسبًا للرجل الذي فشل في الدخول.

ومضى عطية بطول الملعب، وهو يتابع المباراة مبتسمًا متفائلًا، ومرّ بين عربات الكارو المحلولة عن الحمير والأحصنة في موقف العربات، ثمّ مرّ من عند (حنفيّة بلاش) العمومية، التي تستخدمها الأسر التي لم تصل إلى بيوتها مياهُ الشرب، وقد تزاحمت عندها الفتيات، يحملنَ البستلّات على رؤوسهن وينزل بعض مائها على وجوههن وثيابهِن، بفعل مزاحِهن المتبادَل، والمتواطئ، الذي

يصل إلى حدّ أن أغرقت إحداهنّ الأخرى بماء البستلة كله، في مشهدٍ أثار عواطف الرّجل الشجية، واندلعت منه ابتسامتُه الغليظة. ورمى نظرةً أخيرة مطولة على الشابات اليافعات المتجمّعات المبلّلات، وعلى ما أفرغت به بعضهنّ الكبت بلقطاتٍ خاطفة للسيقان لإثارة هذا الرجل العابر الذي تشمّموا ظمأه الفوَّاح من بعْدِ امرأةٍ ماتت في آلام الطَّلق، رمى بخفّة تلك النظرة المطولة الفاحصة ليعطي نفسه فرصة أخيرة قبل الدّخول في الجدّ، علّه يجد في هذه الظّباء البرية المبلّلة تحت الشمس مبتغاه، ثمّ مال إلى الحارة الجانبية وهو يدندن، والبنات ينظرنَ مبتسمات إلى التصاقِ الثّوب به من خلفه وهو يمضي في مشية دبّ متأرجح، وانحرف يسارًا إلى الشّارع الصاخب الضيق، يمرّ بين الدجاجات التي سيَّبتها صاحباتها ووقفن يتابعنها من أعلى العتبات، وعلى الدّكاكين الضيقة الكثيرة التي تجلس أمامها نساء مهمومات لبيع البضائع المتواضعة للجيران شبه المفلسين، ويمرّ بين شبّان صغار في سن المراهقة، قد تأنقوا قدر المستطاع ودهنوا شعورهم بالفازلين علهم يفوزون برؤية عابرة لفتيات أحلامهم إنْ أسعدهم الزّمن بصدفة وجودهنّ في الشرفات. وشرد في طريقه في شادر المولد النبوي القادم، حتى زمّ حاجبيه منفعلًا، وامتصّ بسمته العريضة، وأخذت شفتاه تتحرّكان من سخونة الأفكار، شرد في شكل فرشة المولد القادم، وفي قيمة السّكر الذي سيعد به العرائس والأحصنة، وفي الرجيع الذي حدث معه في الموسم الماضي، وشحاتة الكلب الذي اعتمدَ عليه وسرقه وحلفَ مئة يمينٍ غموس، واستمر في أفكاره وشفتاه تختلجان، حتى أنه تخطى بيت العروس القديم وقطع نصفَ مسافة العودة من حيث أتى ذاهبًا لبيته، إلَّا أنه أفاق وخبط على جبهته، وعاد مبتسمًا بخطواتٍ مسرعة، ليطرق بعد قليلٍ البابَ القديم المصنوع من خشب الجميز الذي يعلوه حدوة حصان.

وعندما طرق على الباب الخشبي الكبير، كان قد مرّ وقتٌ كاف لورْدان ليشعر بقيمة عطية الذي تأخَّر، وأن يفيق ويتخلّص من مشاعر البطَر غير المناسبة. وكان قد مرّ وقت كافٍ لودَّة لتكنس الفناء، وتدفع البطات الثلاث الصّغيرات اللطيفات، المتألقات في اللّونين الأصفر والأسود، بالمقشَّة إلى التجويف الذي خلف الزّلعة المكسورة، ذلك التجويف المتبقي من الفرن القديم، فمضتِ البطّات محتجّات في مشية متمهّلة، وكان كافيًا لترش من بعد ذلك بعض الماء على التّراب فتصعد منه نسمةٌ عصريّة، وتشعل كرة صغيرة من البخور في موقدٍ فخاري وضعته بالقرب من حوض الرّيحان، وتحلق شاربها بماكينةِ حلاقة فولاذية من تركة الوالد، وبغير رغوة، وكان الوقت كافيًا لأن ترتدي سروالًا طويلًا تحت ثوبها، لعلمها بولع عطية في الآونة الأخيرة بمتابعة سمانات أرجل النساء، ولأن تمضي إلى الحُقِّ النحاسي الذي كان يجمع فيه والدها هباءَ الطوب الأحمر المتجمّع على وجهه، ففرت منها بعض الدموع والحُقُّ بين يديها، وطلبت له الرّحمة، ثمّ أخذت منه قليلًا وحمَّرت به خديها.

وعندما دخل، قدَّم نفسه بطريقة ظنّ أنها تدلّ على اللباقة وحلاوة اللسان، فألقى بمساء الورد على الورد وهو يهزّ رأسه طربًا، وعرّف نفسه لهم كعطية زهانة صاحب مصنع زهانة للحلويات، على مساحة شقّتين في طابقٍ أرضي، وأن أمّ محمد الدّلالة هي التي دلّته عليهم؛ ولم يعجبها هذا لأنّها كانت تتمنى أن يقول أنه لاحظَها ولو مرّة، خاصّة في زياراته اليومية في الفترة الأخيرة لحنفية بلاش.

ولاحظ مباشرةً قبّة الشيخ محمد المنزوية في الحوش بالقرب من الباب الصغير الأخضر المطلّ على الملعب التي يعلو شيدها الأبيض القديم السّخام، فتوجّه بخطوات متواضعة ومهذبة إلى القبّة، وقرأ

عندها الفاتحة، ومسح عليها ثمّ على ثوبه، فيما كان ورْدان وأخته في منتصف الحوش يرقبانه ويتبادلان النظرات بينهما، يفتقدان الخبرة المناسبة للتّعامل بمفردهما مع هذا الحدث الاجتماعي الذي يقاسمهما إيّاه رجل تاجر أكبرُ خبرة وأكثر اتصالًا بمفردات الحياة؛ ثمّ دعاه ورْدان للجلوس على كرسي قديم أحمر من كراسي صالونات الحلاقة فقد أغلب بطانته الإسفنجية كان قد وجده في مكبّ النفايات فجلبه للبيت، وشعرت ودَّة أنّ وجود كرسي صالونات الحلاقة داخل البيت محرج، فنظرتْ نظرةً لورْدان فهمَها على الفور، فدعا الرّجل للجلوس على الكرسي الخشبي الذي لا مسند له، إلَّا أن عطية فضَّل كرسي الصّالون وترك لورْدان الكرسي الآخر، أمّا هي فقلبت صفيحة الدّهان وجلست عليها.

كانت تبدو في أحمر الخدود المصنوع من ذرّات الطوب الأحمر كطفلةٍ بضّة اختلست فرصة ولعبتْ عند المرآة بمساحيق أمّها. كانت جميلة كما هي دائمًا، وعلى وشك أن تكون أيضًا مُضْحكة، وتغمرها مشاعر ساذجة من السّعادة والارتباك والبلادة، وكذلك كانت تشعرُ بالبرد والألم الخفيف فوق شفتها نتيجة الحلاقة على الناشف.

دارَ الكلام بين أخيها وعطية، ولم تكنْ تسمع شيئًا تقريبًا، كانت تفكّر فيه في أعماقها، وهو جالس على كرسي الحلاقة، بعد أن ضغط على دوّاسة الكرسي الفولاذية ليرفعه قليلًا، وقد هرس بجسده الثّقيل أكثر من عشرين كرة ورقيّة عبارة عن رسائل رميت إليها من جهة الملعب وحشت بها الفراغات التي في البطانة الإسفنجية؛ أخذت هذه الرّسائل من كمية ضخمة لا زالت تحتفظ بها تحت السّرير هي وأخوها وهما لا يعرفان سببًا لاحتفاظهما بها، إلَّا عدم اعتيادهما على إلقاء أيّ شيء له قيمة، حتى لو كان مشاعر الآخرين، بصرف النّظر عن كونها حقيقية أم زائفة.

هذه الجلسة العصرية المكشوفة للتّعارف، أطلّ عليها بعض الجيران من شرفاتهم، فنادوا على آخرين ليتابعوا الموقفَ بعد أن خمّنوا الأمر، حتى ازدحمت الشّرفات عن آخرها بأصحاب الشّرفات، وبجيران آخرين غلبهم الفضول، حتى تورّد خدًّا ودَّة بحُمرة حقيقية تحت الحمرة المزيفة، وقد تناسى النّساء أنّ الأمر لعلّه تحت الدراسة، فباركوا للحاجّ عطية، ومدحوا له أدبَها الجمّ وحياءها الشديد، وأطلقنَ الزغاريد، وقدّم له رجل يرتدي فانلته الداخلية في شرفته نصيحةً بأن لا يلتفت للفقر أبدًا؛ فثراءُ هذه البنت الطيبة في أدبها وشرفها، فهزّت ودَّة رأسه ممتنّة مبتسمة، سعيدة، تلك السّعادة التي يشعر بها إنسان اكتشف أنه ترك انطباعًا طيبًا عند الآخرين، وأن استقامته لم تكن شيئًا لا يثير الانتباه. وقدّمت لها امرأة عجوز وهي تمسك سيجارتها في يدِها نصيحةً بأن لا تهتمّ كثيرًا بفارق السن، فالشّباب شباب القلب، ومرور العريس المثابر على حنفية بلاش يدلّ على شباب قلبه؛ وقد كان هناك شبه إجماع من النّساء والرجال على حدّ سواء بأنه لم يكنْ ينتظروا منها أبدًا أن تستقبل عريسها بسِروال رجالي من الكستور تحت الثّوب، وهي ملحوظة هزّ عطية لها رأسه مؤيدًا ومحتجًّا. وانهالت عليهم قطع الحلوى من كلّ الشرفات المطلة، وانهار إحساسها بأنّ هؤلاء غرباء، وكان عطية في غاية السّعادة، وإن بدا عليه بشكل عابر بعض الضيق والتحفظ، لأن الملبَّس وقطع الكراميل التي رماها جيران عروسته المجاملون لم تكنْ من إنتاج مصنعه.

كان أخوها في الخامسة عشرة وقد خطّ الشّارب الأخضر الخفيف في وجهه حينما تقدّم الرجل وقبلت به على الفور، ولم يكن يملك لها بديلًا على الإطلاق، وكان في متاهةٍ أوسع من متاهتها، يرجو أن

تقبل حتى تخلص من كربات الفقر المستديمة، ومن الكرات الورقيّة التي يرمي بها بعضُ مشجعي الملعب في الليل ولا يدرون إنها لا يمكن إغواؤها بهذه الطريقة لأنها لا تقرأ، ويعرف أنها رغم هذا الفقر الذي نُقِعت فيه معه إنسانة عاطفية وخيالية نوعًا ما، وعطية لا يليق بها، مهْما ادّعت غير ذلك، لذا قرّر أن يسألها في الليل عن سبب القبول، كنوعٍ فاتر من إبراء الذمة، وهو يرجو أن لا تتراجع عن قبولها بهذا العريس الذي لا يناسبها.

في الليل كانت تبكي وهي تمسِّد زغبَ البطّات اللّطيفة، وتمسح الغبار عن التعزيمة المتوارثة لطرد العقارب بالخطّ السّرياني المكتوبة بالزّعفران، وتقف عند قبّة جدّها الشيخ الطفل طويلًا، وتطلّ على حواف الزجاجات المزروعة أعلى السور من ناحية الملعب، وتتذكّر الأيادي الصلبة للمتسلقين، وغضب أمّها وهي تمسك الحجر مهددة، وتبكي وهي تتذكّر أباها حينما كان يضع ذرات الغبار في الحُقّ النحاسي؛ وعندما اقترب منها أخوها ببطء، وشاهد في ضوء القمر دموعها، دموعُها التي لم تكن دموعَ فرح ولا دموع حزن، وسألها برقّةٍ عن السبب الذي دفعها للموافقة على هذا العريس، قالت وعلى شفتيها شيء أبيض خفيف من خثار الهمّ وسوء التغذية: (نفسي أدخل الحمّام).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أنكش

في نهارٍ من عام ١٩٧٨، كانت سيدة مصريّة يبدو عليها الانطواء والرّصانة، والقلق المزمن، تطلّ من نافذةِ شرفتها بالطّابق الأرضي في الحيّ الشعبي البسيط وهي تنتظرُ عودة بنتها الشّابة من عند محلّ التموين، وكانت يداها مشدودتين كمخالب النّسر وهي تكلّم نفسها بصوت خفيض، إذ كانت قد تسبّ كلّ هؤلاء السّفلة الذين تراءت لها أطيافُ وجوههم، الذين طمعوا في بنتها اليتيمة رائعة الجَمال، ونظروا إليها نظراتٍ متحرّقة، وتمنّوا وقوعها؛ وبأصابعها المتشنّجة تلك كانت تبدو كأنها لا تزال تشعر بالتّهديد من تلك المحاولات التي باءت بالفشل، وكأنها أيضًا تستعدّ للانقضاض على أطيافهم تلك دفاعًا عن ابنتها.

وكان ما يزيد شعور هذه المرأة بأنّ عدد الأوغاد في الدنيا أكبر ممّا كانت تظنّ، هو أن بعض هؤلاء كانوا في عمر والد الشّابة الأربعيني الراحل، وتكلّموا مثل آباء متعاطفين، وتحجّجوا بالسعي من أجل توظيفها، ثمّ اتّضح أنهم يتقرَّبون للإمْساك بها. وقد تكرّر هذا الأمر بشكل محْزن، ممّا جعل الأمّ المتعلقة بها حدّ الجنون، تعيش في هذا العذاب كلما استحضرت وجوه السّفلة وهي تكلم نفسها على انفراد.

كانت الشابة أقوى ممّا ظنوا جميعًا، واكتفت مع كلّ منهم بنظرة صدمة وعتاب ثمّ مضت، وكانت أقوى من غيرهم أيضًا، فبخلاف هؤلاء الباحثين عن متعةٍ سريّة في فواكه الجيران المحرّمة، احترق في بهاء الفاتنة عددٌ كبير من الشبان من أهل الحبّ العُذْري، الصّغار المفلسين الذين ليس معهم ثمنُ خاتم خطوبة، ولا يملكون إلّا التنهُّد، الساهرين حتى الفجْر في الشّرفات المضاءة، ينزفون الحزنَ والحنان، وليس لهم من حيلة في النهار للتقرب منها إلّا بتسليط شقيقاتهم الصّغار لزيارتها والتودّد إليها؛ فيأتينها وفي أعينهنّ الصّغيرة المستديرة مكرٌ أكبر كثيرًا من أعمارهن. وهؤلاء المتنهّدون الذين ينتظرون عودة الصّغيرات بأي شيء، أي شيء، لا يعرفون أنّ طريقتهم الصبيانية، التي يظنّونها ماكرة ولا تخطرُ على بال اليمامة الجميلة، وتؤتي ثمارها بعد فترة، هي طريقة مكشوفة ومكرّرة، ولن تقع بها في الحبّ فتاة مثلها تعرف في النّهاية أن جمالها هو الذي أتعبهم، ولن تجعلَه يتعبها. وقد وصل الولَهُ والاجتراء بأحد جيران هذه الفاتنة لدرجة أنْ وضع لها خطاب الاعتراف، الذي يبثّ إليها فيه لواعِجَ قلبه المحترق في كافولة ابن خالتها الرضيع، الذي وضعته بين الأطفال أمامَ البيت لتدخل وتطفئ النّار تحت الطعام، وتمنى في نهايته أن يصلها الخطاب بحالة جيدة.

لم تكنِ الجميلة غير المبالية بالمحبّين، ولا الأمّ التي تنتظر بنتها في النافذة، تدريان أنّ هناك شابًّا ما قريبًا جدًّا من النّافذة، جديدًا في الشارع، قد انضمّ في صمتٍ لجماعة المحبّين الضخمة التي لا يدري فيها أحدٌ عن الآخرين شيئًا، غير أنّه يختلف عنهم بأنه أكثر اعتزازًا بنفسه، ولا يريد أن يفنى فيها مثلهم، بل يريد أن يحظى بها في هدوء، لأنها من دون الأخريات العابرات في هذا الواقع الرّديء جديرة به.

هذا الذي بدأ يهتمّ بها، كان شابًّا على درجة من الوَسامة، استأجر الدّكان الضيق جدًّا في البيت الذي يسكنون فيه في الطّابق الأرضي منذ شهرين، وجعله ورشةً لإصلاح الأحذية، وكان هذا الشابّ الحيوي يطيل مقدّمة شعره ويصبغها بماء الأكسجين، ويبدو معجبًا كثيرًا بذاته، خاصّة عندما يغسل

شعرَه ويضع عليه كميّة مبالغ فيها من البريانتين؛ حيث يبدو وقتها وهو يرتدي التي شيرت المقلد من ماركة "مونتيجو" كنموذج سوقي محرَّف من بطل سينما غربي.

كان أكثر ما يمكن أن يجعله من بعيدٍ مثيرًا للإعجاب هو رضاه عن نفسه واستغناؤه بها، وذلك الترفع الفطري فيه الذي يجعله لا يتبسَّط ويطيل في الحديث بغير داعٍ مع مَن حوله، ويجيب بلطفٍ على قدر السؤال، ويدفعه هذا الترفع لعدم الاهتمام بالتقرّب من أحد، ويجعل نظراته خالية من أيّ فضول تجاه الآخرين، ويجعله أيضًا يتقبّل مساومة الآخرين على أسعاره بغير استياء، ممّا أعطاه شيئًا كثيرًا من الوقار والسموّ الحزين لرجل أكبر من ظروفه.

وبلغَ به الترفّع الفطري الجاذب هذا إلى حدّ أنه لا يخرج بلهفة وخفّة كما يفعل أصحاب الدكاكين والحرفيين في الشّارع للمناداة على الباعة الجائلين، الذين يمرّون تباعًا بالكشري والبطاطا المشوية والذّرة والتين الشوكي، أو حتى الزّبادي في سلطانية الفخار في مساءات العمل، لا يشتري إلَّا من البائع الذي لاحظ إشارته له من أمام الدكان وجاء إليه، كما لو كان يشعر بأنّ النداء على الباعة لا يليق به.

فقط في حالةٍ واحدة كان يبدو ملهوفًا، متخلّيا عن تحفّظه، عندما يمرق صبيّ أسمر يبدو عليه الخوف وسوء التغذية، بتلك النشرة الورقيّة المتواضعة التي تصدرها مطبعةٌ صغيرة منزوية من مطابع الحي في أوقات الكساد المتعاقبة دون ترخيص، تلك الصّحيفة التي راق لصاحبها أن يسمّيها (قبل الطوفان)، رغم أنها لا تحمل أيّ توجيه أو تحذير أو نداء من أيّ نوع، وينشر فيها حكاياتٍ عن جرائم ومسالخ بشعة، وحالات حمْل سفاح، وأبناء زنا تمّ العثور عليهم في منْوَر بيت أو في برج حمام أو كيس أسمنت فارغ داخل عمارة تحت التّشطيب، وسفاحين مطلقي السراح يشعرون بالحقد المرير على جنس النّساء بسبب زوجات خائنات، وبيوت مسكونة بالعفاريت تشتعل فيها النيران أو تخرج منها أسرابٌ مخيفة من الوطاويط، وحار فيها العلم والعلماء، وامرأة قتلتْ قطًّا لأنه التَهَم من المطبخ السمكة التي شوتْها لعشاء زوجها، وهي لا تعرف أنّه طفل جارتها الذي يتحوّل هوَ وأخوه توأمُه ليلًا إلى قطّين هائمين، وقصص ثأر تتوّج بنجاح الباحثين عن الثأر بعد سنواتٍ طويلة من الملاحقة، التي تفرّغوا لها وتركوا حقولهم وأولادهم، ولما يئسوا وجدوا قتلاهم أخيرًا بصدفٍ غريبة: هذا وجده في دورة مياه عمومية عند سينما الفانتازيو، وهذا وجده في مولد (أبو رواش)، وهذا وجده يبيع كلاسين شتوية للرجال في نفق إمبابة.

عند أوّل تعامل لها ولأمّها معه لإصلاح حقيبة أخيها الصّغير التلميذ، بدا أنه أكثر ترحيبًا بهما من أسلوبه مع عامة الزّبائن، بحجةٍ أعلنها وهي أنّهم أقرب الجيران منه؛ ولسببٍ غامض كانت تلك من المرّات القليلة التي لا ترتاب فيها الأمّ من رجل يتلطّف في حضور ابنتها الجميلة، وشعرت بغريزة الأمومة أنّه شابّ غير جشع ولا خوف منه، وبه كبرياء تحفظه من الدّناءة. ورغم هذا الذّوق الذي تحلى به معهما، إلَّا أنه لم يستجب لإلحاحهما، واعتذر عن أنه لن يستطيع تسليمهما الحقيبة الآن؛ حتى يكون شغله فيها كأنّه شغله لأخيه الصغير، وكذلك لن يستطيع تسليمهما الحقيبة بالغد؛ لأنّ غدًا عطلته، والعطلة عنده مقدّسة، ولن يفتح حتى لو خرج أبوه من قبره؛ حيث يحرص في يومها على الذّهاب لسينما (علي بابا)؛ قال هذا لهما بغير داعٍ، مُعلنًا لهما أيضًا وبنبرةٍ فخرية أنه يحبّ أن ينزه نفسه ويعيش حياته، ولا يحب أن يحرمَ نفسه من شيء يعجبه؛ ثمّ أشار لكومةٍ من أعداد (قبل

الطوفان) عنده، وقال مبتسمًا: والقراءة طبعًا، فلا يمرّ يوم من عمري بغير قراءة. وقال أيضًا بغير أن تسأله أيّ واحدة من المتحفظتيْن إنه ترك صفوف الدّراسة قبل أن يحصل على شهادة الثّانوية الصناعية، ليتخرج في مدرسة الحياة على حدّ تعبيره، وسأل الشابّة عن شهادتها فقالت إنّها تخرجت في معهد التّعاون هذا العام. وقد بدا للفتاة عندما تكلّم عن نفسه بغير داع أنه أكثر ظرفًا وخفّة ممّا كان يبدو لو لم يتكلّم، ولكن أقلّ رصانةً وجدية.

لقد مضت من عنده يومَها مع أمّها من دون أن يلفتَ انتباهها كأنثى، لكن اليوم غير ذلك اليوم، فها هي عادت من عند محلّ التموين، وكانت أمّها القلقة لا تزال تنتظرها في النافذة؛ ولقد رجعت غاضبة، بعدما استلمت السكر الذي كان متبقيًا لهم، وانفعلت ولم تصبرْ حتى تدخل بيتها، وانفجرت في الشّكوى لأمّها التي تطلّ في النافذة في انتظارها؛ من مضايقة بعض الشّباب الخنافس الواقفين عند الخنادق، الخنادق التي حفرتها الدّولة في الأحياء السكنية أيام الحرب والغارات وبقيت من بعد ذلك؛ ضايقها هؤلاء في عودتها، وزادوا من جرأتهم عليها، كانت تقول ذلك وهي واقفة في المكان الصحيح، أو المكان الخطأ، بالضبط أمام محلّ الإسكافي الشاب.

وأتاح لها حظّها أن تشاهده وهو يتخبّط من الغضب بجانبي دكانه أثناء خروجه، كان يخرج من قعرِ دكانه الذي بعرض مترٍ وبعمق ستة أمتار كوحشٍ كسر قيده في مغارة مظلمة، وهو خارج ليدمّر كلّ شيء في طريقه، يخرج وهو يردّد: مَن هؤلاء؟ مَن هؤلاء؟

اندهشتْ وانتشت وهو يخرج بكلّ هذا العنف من دكانه الضيّق وهو يزعق، ويضع السكّين المشحوذة التي يقطع بها في كعوب الأحذية في جوربه الصّوفي الطويل، ويحشر المطرقة في جيبه الخلفي، ويلفّ حول جذعه النحيل حزامًا غليظًا بإبزيم حديديّ ثقيل؛ ليضرب به الشبابَ الخنافس من أجلها، ومن فرط دهشتها ونشوتها تمنَّت لو كان هذا الدّكان سحيقًا يمتدّ عمقه إلى ميل.

خرجت أمّها مهرولة لتحتوي غضبها وغضبه، كأنّهما طائران يبثّان لبعضهما البعض شكوى من بعيد إلى بعيد، وحملت صرفية السّكر من بنتها، وأخذت تربِّت على كتفِها تطلب منها الهدوء والدّخول أمامها، وألَّا تجلب عليها النّاس، لكنّ البنت الحليمة انفلتت، البنت المنتبهة دائمًا، والهاربة للأبد من نظرات العابرين في الشارع، والمتوجسة للنّهاية من الكهول الذين يزعمون البحث عن عملٍ مناسب لها، والملاحَقة حتى في البيت من شقيقات المعجبين الصّغريات، اللّواتي يأتينها كي تضفر لهنّ شعرهن أو لعمل جلّاد الكراريس، كان يبدو كما لو كانت تعيش لحظة من لحظاتها القليلة للتنفيس، عن الغضب، أو الإعجاب، وكانت تهتزّ وتتلعثم لقلة خبرتها بالغضب والإعجاب.

والأمّ التي تحاول أن تهدئها من ناحية، كانت من ناحيةٍ أخرى تستعطف الشابّ أن يهدأ ولا يكبِّر الأمر؛ فكلّ بنات حواء معرّضات لذلك، لكن لا فائدة، شكوى العذراء الجميلة دغدغتْ مشاعر الشابّ، وصيَّرته طيرًا خفيفًا يهمُّ الآن بالتّحليق، فقال إنه ذاهبٌ إليهم لا محالة، وإنه ليس لمثله أن يحمل سلاحه ثمّ يضعه كالصّبيان. وتجمهر بعض السكّان والشباب حوله وهُم يتفرّسون في وجهه متْبهرين، وعرضوا عليه أن يذهبوا معه لمعاتبة هؤلاء الشباب أو تأديبهم، إلَّا أنه قال وهو لا يطيق من شدّة غضبه أن ينظر لوجه أحدٍ ممّن يحاولون تهدئته أو إقناعه بالذهاب معه: لا أحد يأتي معي، ولا أحد يأتي ورائي. وخلّص يديه منهم، ومضى بخطوات مسرعة تنمّ عن تمكّن الغضب الشديد منه.

والأمّ من خلفه تعاتب بنتها التي لم تمسك أعصابها حتى تدخل بيتها، وها هي ستتسبّب في مصيبة قادمة.

كان قلب الأمّ ينبض بشدّة عندما كان الشابّ يمضي أمامهم كأنه في قلب زوبعة من الغضب، وكذلك كان قلب البنت ينبض بشدّة، ولكن لسبب آخر؛ كانت الأمّ مرعوبة، أمّا الجميلة فمثلت بجانب أمّها القلق، لتخفي اللطائف التي تدور بها وتدهشها من نفسها؛ وفي هذا الوقت الذي كانوا ينتظرون فيه عودة الشّاب، تنعّمت بأحاسيس جميلة ملونة ومتوارية، تبرعمت فيها مثل زهور لطيفة شديدة الصّغر، زهور صغيرة زرقاء وبيضاء، تطلّ من تحت صخرة قاسية رواها النّدى ومضى.

ثمّ إنّ ما تنعمت به من أحاسيس لطيفة وتملّكتْ منه، تأجّج بها خلال دقائق ولم تعدْ قادرة عليه، صار سعادة سماوية صافية تسلك إلى أعماق أعماقها بغير استئذانٍ ولا تبالي، مثل سيل قد انْهمر وقتَ الفجر على جبل من الصخر، لم يسقْه السّحاب منذ عشرة قرون، فتخلّله حتى آخر وأصغر الشّقوق فيه، وراح فيه كالروح كالرحمة.

ولقد فاجأتها نفسُها وهي تتخيّل هذا الشاب المعتدل القوام، أخا الصّدفة السعيدة، ينقذها من الغرق، ويحملها بين يديه بثيابها المبلّلة، وشعرها الناعم من خلفها في طول هلْب الفرس، مذْعن هذا الشّعر المنسدل لسيّد الموج والحياة.

ولقد فاجأتها نفسُها بأنها تستعيد صورةَ طوله المعقول وهو يمضي، بإعجاب أنثوي صريح، ورأت أنه طويل، أطول ممّا كانت تظنّ، وأنه يليق بها أن تجاوره حينما يعود منتصرًا، كمجاورة دكّانه لشقتهم، بل أدنى من ذلك؛ لترى إن كانت تصلُ إلى شحمة أذنه كما تتوقّع، أم لا؟ فماذا لو شبَّت على أطرافها؟! لا، لن أفعل، سأدلّل نفسي بقصري عنك، ولن أحرمها من أيّ بوصة تفرق بين طولي وطولك، ويليق بكلّ هؤلاء ألّا ينشغلوا إنْ جاورتك حينما تعود؛ فأنا ممتنّة لك يا سيدي بدرجةٍ أعجز عن شرحها إلّا بالدّموع، لدرجة حبّي أن يلومني العذّال فيك، وإنك ستكون إذًا عندما تعود كنخلةٍ طويلة، وأنا كنخلةٍ صغيرة نبتتْ عندما عدت في جذرك، وأعيش طفولتي في بَركة طولك السامق، سأقف بجوارك وأنظرُ لأعلى في عينيك وأخجل وأنظر إلى الأرض، ثمّ أنظر مرّة ثانية، وأرى هذا الخفَر الذي في عيني فاتح عاد لبلده الأمّ مظفرًا مليئًا بالحكمة والرفق والتواضع.

وعاد الشابّ الذي كانت تحلم به وهو يقتحم الماء لينقذها من الغرق، عاد كما لو كان حيوانًا برمائيًّا مجهولًا، نجا بصعوبة من أنياب جماعةٍ من التماسيح الجائعة تعيش في بركة موحلة، حتى انفلت من بينها بصعوبة بعد أن فقد ذيله، ومضى على السّاحل الطيني وأطرافه تسوخ في الطين حتى تعثّر ووقع فيه على وجهه، ويقوم ويتعثّر، ويقوم ويتلفّت خلفه بأطراف مرتعشةٍ من الخوف والإجهاد، وهو يلعن الطّين خائفًا من أن تلحق به التماسيح وتسحبه من أطرافه للمياه؛ لدرجة لم يلحظْ معها أنه أصابته نهشة من ناب تمساح، يجرّ بسببها وهو يمضي على الطين خيطًا من أمعائه نفذَ من بطنه التي انفزرت.

لقد تقدّم الشاب من بعيد ناحيتها وناحيةَ مَن ينتظرونه وشعره هائج ومغبر، كأنه حفر لنفسه طويلًا حتى خلّص نفسه من أنقاض عمارة منهارة، تقدّم بخطوات ثقيلة مترنّحة، كأنه يمشي بالفعل في الوحل، وقد تورّمت شفتاه وعيناه، حتى يبدو عليه أنه يرى الطّريق تحته بصعوبة، وكان يلتفت ببطء

وهو على هذه الحالة من التهالك كل قليل، وينظر خلفه خوفًا من أنْ يدركوه، تقدّم بقميص ممزّق، تظهر فيه يده من أحد كمّيْه، الكمّ الذي لم يعد يربطه أي صلة ببقية القميص إلّا بعض الخيوط، وفانلته الدّاخلية معلّقة على كتفه بحمّالة واحدة، وكان يمضي إليهم بهذه الخطوات المتهالكة ووجهُه لا يظهر فيه أيّ تعبير إنساني واضح كالغمِّ أو الحرج أو الندم، من شدّة ما جرى على وجهه، وكان على صفحة عنقه آثار حمراء لصفعات قوية ولا نهائية.

توقّفوا من هوْل منظره، ولم يفكّر واحد فقط بأن يهرع ليستقبل ويسندَ هذا المتخبط في قدومه، حتى وصل إليهم، وهُم شبه مشلولين، وصل مثل أسير منْهَك لا يصدّق أنه نجح في الهرب والعودة إلى بلده مشيًا، واستند على حائط البيت بظهره بجوار دكّانه ولأنفاسه صفيرٌ بسبب الدم الذي تجلط في منخريه ويكاد يسدهما، وعندما صرخوا فيه يسألونه عمّا جرى، قال: (طحنًا في بعض)؛ وكانت حاله الرّثة وما قاله يعبران عن الحقيقة بكل جلاء وهو أنه انطحن. وبعد أن أنهى جملته الوحيدة، التي حاول أن يجمِّل بها الواقع الأليم قدْر المستطاع، انزلق ظهره على الحائط رغمًا عنه بفعل الإجهاد، وجلس على الأرض ورأسُه يهتز وبينه وبين الإغماء شعرة.

لقد انزلق حلمها المباغت في الوحل كلّه، صار فارسها الوقتيّ شابًّا مهزومًا منهارًا يبعث على الشعور بالأسى، وإن لم يكنْ يأسى على نفسه، صار فارس الدّقائق القليلة هو ذاته الشابّ الذي أجبره الملتفون حوله على شرب ماء محلًّى بالسّكر حتى ينتعش ويفيق، وكان يشرب استجابة لإلحاحهم، وهو يعتقدُ أنه ليس بحاجة إلى ذلك. لقد بكت في تلك الليلة وحدها، ليس عليه هو ذاته وهو مشوّه الملامح في أورامه المتعددة التي يهوِّن منها، ولا على أوجاعه التي يكتمها؛ ولكن على إهانة حلمها.

بكتْ لوقتٍ قليل، ثمّ فوجئت بأن تحوّل بكاؤها إلى ضحك، ضحك من القلب، وصار غضبه الذي فتنها ونزل عليها كالسّيل، مفارقةً مضحكة لرجلٍ راح بوجهٍ وعاد بغيره، مفارقة مضْحِكة لرجل لا يريد أن يعترف بأنه غير قادر على الوقوف على ساقيه، ويصرّ على أنه قعد على الأرض بمزاجه. واستخلصت نفسها من هذا الإعياء العاطفي، مترفّعة عن هفْوة الرومانسية التي لاحظ لها بها، واختارتْ أن تدافع عن نفسها وتجعل ممّا حدث فشله ومأساته هو وحده، ضحكت كي تتبرّأ وتمضي في طريقها دونَ أن تأسف على شيء.

وغاب عند دكانه عدّة أيام، ثمّ عاد بعد أن تعافى وشفيت أورامُه، وكان خلال هذه الأيام مثارًا للتندّر بين الجيران فيما بينهم، حتى إخوتها الصّغار داخل الشّقة كانوا يطرحون قمصانهم عن أحد أكتافهم ويمشون مشيته ويقولون مثله: طحنًا في بعض؛ ويغرقون في الضحك.

وتفادتْ أن تراه لمدّة يومين بعد أن عاد، ليس بسبب الحرج من أنها تسبّبت له في الضرب المبرح فقط؛ بل أيضًا خوفًا من زلّتها معه في الدقائق الطّاغية في عالم الخيال، خائفة من هذا الممسَك الذي قد يكون مسكه عليها؛ فلعلّ هذا الأعزب المغرور قد استقبل أحلامها الجريئة في الدقائق التي انتظرت عودته فيها، ليس بسبب فطنته وحدسه، ولكن بسبب قوّة ندائها وبثّها.

وعندما رأته من بعد ذلك ابتسمتْ، نعم ابتسمتْ، تلك الابتسامة التي تمسك بها نفسها عن الضّحك منه ومن نفسها، من نفسِها التي اشتهت أن تقيس طولَها بجوار طوله، ولم تعرف أنه لن يقدر على أن يقف

مفرودَ العود عندما يصل؛ أمّا هو، وبما فيه من إعجابٍ راسخ بنفسه، فتملكه يقينٌ بأن هذه الفتاة التي لم تملك نفسها وابتسمت عندما رأته، أحبّته جدًّا، وهي تنتظره، وستظلّ تنتظره للنهاية.

من بعدِ تلك الابتسامة منها التي كان يمكن أن تكون غيرَ جديرة بالتفسير لولا جَمالها، كانت أمّها تقف عند عتبة دكّانه، ولا زالت تستحي من النظر في وجهه بعد ما حدث له، تنتظر انتهاءه من حقيبة ابنها التي يصلحها كما لو كانت لأخيه الصغير؛ لأنّ ابنها ضجر من الذهاب للمدرسة طيلة الأيام الفائتة بحقيبتها الخوص التي علقت بها رائحة الزّغاليل، وهي ترجو أن يلوم أو يقول أيّ شيء يفرغ به ما في نفسه، حتى تعتذر له، وحتى تقول له إنها صارت تكنّ له معزّة لا يتخيّلها. وكان عنده جروٌ صغير أبيض، مجامل أو ضعيف الذاكرة، يلفّ ويدور في الدكان الذي لجأ إليه من رذاذ المطر، معبًّرا عن افتتانه بكلّ التفاصيل، وموقد الإسبرتو، والعلب، والفَرشات، وغابة الأحذية المستعملة التي يشقّ طريقه فيها، ويعود لكلّ ناحية وكلّ علبة، وينظرُ إليها بمسرّة وشغف كأنه يراها من جديد؛ ليعبر عن إحساسه الزائف برحابة الدّكان الضيق وثراء تفاصيله.

عندما قام ومدّ يده لها بالحقيبة بعد أنْ حلف ألَّا يأخذ هذه المرّة أجرًا، تحدث إلى الأمّ، دون مقدمات ودون أي ارْتباك، قال لها وهو يضع يديه في جيبيه وينظر لها كأنه يضعها أمام مسئوليتها، فيما الكلب يلفّ بين ساقيه: إن كانت بنتك لا تنوي العملَ بعد الزواج، وإن كانت لنْ تستاء إن تزوّجت من رجلٍ مثقّف وانشغل عنها بعض الوقت بالقراءة، وإن كانت لن تعكر صفوَ حياتها وحياة زوجها بسبب الغيرة إن تزوّجت من رجل يلفت نظر النساء ولا ذنب له؛ إن كانت كلّ ذلك فيشرفني أن أطلب يدَها منك.

بانَ عليها في اللحظات الأولى الاستبشارُ والحياء، وذلك الامتنان الذي تشعر به الأمّ تجاه أوّل عريس جادّ لابنتها بصرفِ النّظر عن مسار الأمور من بعد ذلك. ورفعت عينيها في عينيه أخيرًا بنظرةٍ مليئة بالامتنان والفحص، ثمّ ابتسمتِ ابتسامة مرتعشة كأنّها معكوسة على صفحة الماء، كانت ملامحُها فيها كملامح روح بيضاء تبكي من غير صوت، وطلبت منه بصوتٍ محشرج ومحبوس مهلةً للتّفكير، وللنظر في أحواله وطباعه قبل أن تعطيه كلمة. قالت ذلك؛ لأنّها تعتقد أنّ هذا ما ترد به الأسر على العريس عندما يتقدّم، أمّا من داخلها فقد سيطرتْ عليها من بعد أن أخذتها المفاجأة رغبةٌ خفيّة جامحة لاحتضانه من شدّة فرحها بسماع هذه الكلمات من شابّ لم يكن في الحسبان؛ ودعاها الشابّ لأن تأخذ هي وبنتها الوقت الكافي.

أمّا هي، وبرغم أنه فقد بسرعة مؤسفة هالة النور التي أحاطت بوجهه، عندما خرج من دكانه كأنه يخرج من سرداب القصص الجميلة الذي يبيت فيه الأبطال، إلّا أنها شعرت ببعض السرور عند سماعها هذا الخبر من أمّها، ولم يكن لديها طاقة على أكثر من هذا القدر البسيط من الترحيب، وحتى أنّ هذا القدر البسيط فاجأها في نفسها وما كانت تتوقّعه، وما إن وجدت أمّها في محيّاها هذا القدرِ من الإشراق؛ حتى أخذت تغذّي روحها بالموافقة تحرضها عليها، بغير ضغط، وبغير عبوس، تذكّرها بأنهم عطشى لرجلٍ غيور؛ لا يهمّ ماذا يعمل، بل المهمّ ماذا يمكنه أن يعمل من أجلك، إنّ المرأة يا بنيّتي يحقّ لها أن تشَعر بالأمان مع رجل تعرض للضرب في سبيلها من عدّة رجال أكثر من شعورها بالأمان مع أيّ رجل آخر، أيّ رجل، حتى لو كان رجلًا ضرب من أجلها الآخرين. إنه صادق وشهم، ومن النّوع الذي لا يبيع الغالي، وهذه دماؤه تشهد له فماذا بعد الدّماء؟! لقد حوّلتْ هزيمته النكراء إلى

اختبار نجح فيه، ولو كان نجاحه على نحوٍ مزرٍ، وجعلت رجوعَه في آلامه أجمل وأكثر ثراءً من ذهابه في غضبه، وجعلت من الخرقة التي مسحتْ بها دمه كفنَ قديس قديم.

وعندما كانت الجميلة تفكّر في الأمر، وتسترجع صورته وهيئته وطريقةَ كلامه، وهي تسمع من أمّها وتهزّ رأسها وتبتسم لها ابتسامة تعطي لتقاطيعها الجميلة إشعاعًا من الحكمة، كان يتّضح لها أنها أبدًا ما عادت قادرة على أن تهيم به، ولكن صارت تفكّر في أن تعتمد عليه. لقد شردتْ فيه كما وضح لها بغير أوهام عذرية؛ فلم تعد ترغب في قياس طولها إلى طوله، ولا في رؤية الخفَر في عيني الفاتح، إنها فقط تنظر في أمر الفتى البسيط كما هو، في صلابته في مواجهة الموقف البائس بغير انهيار، وشعرت أنها هذه هي الشجاعة التي تتطلّبها حياة البسطاء، شجاعة ليس عليها وميض البطولة، شجاعة رجل لا يشتكي، رجل يمكن أن يربّت عليها وتربّت عليه؛ وشردتْ كذلك في حبّه للحياة، وحيويته، وقبوله الجرو الأبيض الذي فرض نفسه عليه وتمسَّح فيه، إنه شابّ بسيط، متفائل، وغير معقّد، وقابل تمامًا لتحدي الحياة، ويمكن الهروب إليه في أغلاطه وأوهامه الشجيّة تحت سقف آخر، بعيدًا عن خوف الأمّ من شر المختبئ وشكواها التي لا تكفّ من الحمْل الثقيل.

إنّه لا يعيش قلقَ الموظفين على التّرقيات، ولا يوجد له مشرف يتضاءل أمامه ويتملقه، ويتحمل تعاليه الأميري السّخيف، كما كان أبوها نفسه، أمين مستودع اللّحوم بمجمّعات الأهرام الاستهلاكية، يتحمل المشرف الأسمر اللّامع الصّلعة، ذا النظارة الطبية، التي تبدو من تحتها عيناه صغيرتين ومقتحمتين، كعيني حيوان زاحف يراقب الكون؛ المشرف الذي كان يمجّد ذاته في الفارق الوظيفي البسيط، لدرجة الترفّع عن النظر مباشرة في وجه أبيها، رغم أن راتبه لا يزيد عنه إلّا بثلاثة جنيهات وأحدَ عشر قرشًا، وكان يعيش ببذخ نفسي ساذج في نعمة الدرجة الوظيفية الزّائدة، رغم أن الأتوبيسات العامّة كانت أحيانًا ما تجمعهما صدفة، ضمْن زحام القابضين على الماسورة، وكان من الواجب على أبيها طيلة الرحلة وحتى نزوله أن يجعله يؤمن بأنه لم يره.

إنّها تفكّر في أشياء أخرى شردت فيها بعد أن طرحت عليها أمّها العرض، وقد أعجبتها هذه الأشياء، وهي الآن تستعجلها معه أو مع غيره؛ إنها ترغب في أن تأتي لبيت أمّها بعد الزواج، وترمي جسدها على الكنبة ويتبادلا الكلام بغير الترقّب والقلق، بعد أن ييأس المهووسون بها، وتنطفئ أنوار الشرفات، وتجافيها مراسيل الحبّ الصغار، وتفتح البوك وترسل أخاها الصّغير بنبرة غير النبرة، ليشتري لهم على حسابها خمسة أكياس كشري بجنيه إلّا ربع من أوّل الشارع؛ أن ترتفع الكلفةُ بينها وبين أمّها كامرأتين، وينمو بينهما هذا الشيء المختلف كالذي بين الأمّ وبنتها المتزوجة، هذا الشيء الجميل الذي يشبه الصّداقة، أن تأتي لبيت العائلة لتلدَ فيه على يد النفس الداية التي ولّدت أمّها، وأن تحلف عليها أمّها وعلى زوجها أن لا تمشي إلّا بعد أن (تربعن).

أمّا أمّها التي عرضتْ عليها الأمر لأوّل مرّة بغير ضغط وبغير عبوس، واكتفت في اليوم الأوّل بأن تغذي روحها بالموافقة؛ فنامت وقامتْ وقد تأجّج بها الإحساس تجاه هذا العريس المجاور الذي لم يكن على البال والخاطر، تعلّقت به كأنها كانت تتمنّاه لها منذ أن كانت رضيعةً في اللفّة. صار هذا الإحساس تجاهه تعصبًا غريبًا مفاجئًا لا تقدر عليه، وفي ذات الوقت تتكتّمه عن الناس؛ لينفردَ بها هذا الإحساس ويعمل فيها ويقلّبها على فراشها وهي تحرّم على نفسها البوح، كأنّ هذا الشيء سرّ سرمدي لن يُقال أبدًا.

وهي الأمّ تشعر بأن هناك شيئًا ما في هذا الكون، مظلمًا وباردًا مثل هذا الكون، يعادي المضيَّ في هذا الأمر، وسيعمل على عرقلته بشتى الطرق، شيئًا معاديًا غائبًا وحاضرًا، بدأ يعمل ضدّها وهي لا تراه، كلما فتشت عنه تغيَّب، وكلما تجاهلته عبَّرَ عن وجوده. كلّ أصواته المبهمة التي تشي بوجوده أخذت توسوس لها في كلام الناس الذين لا يعرفون ما بها، كأنه لبسهم كما تلبس الشياطين البشر، في كلام امرأة من الجيران كانت عندها تتكلم على السجية، وأخذت تتوقّع لهذه الجميلة أن يكون من نصيبها طبيبٌ أو مهندس، وأصرّت على ذلك؛ وإذ بالأمّ تضطرب وتتكر وتسخر من توقّعات الجارة المتفائلة، وتشير بامتعاض لأثاث الشّقة المتهالك، ودائرة الرطوبة على الحائط، وثوب بنتها البسيط، وتنظرُ في وجه بنتها تفتّش فيه بقلق عن بوادر تمرّد؛ فتبتسم لها البنت التي تعرف أمّها جيدًا، كأنها تطمئنها وتعلن لها أنّها لن تتأثر بمثل هذه الأقوال، وأنها من خلفها إن أرادت لهذا الأمر أن يتمّ، ومن خلفها إن تراجعت عنه. كانت الفتاة تتابع أمر الخطوبة باهتمام معقول، وكأنه يخصّ أخرى، ولم يكن لديها مانع أن ينتهي على أي وجه.

وكانت هي وبنتها ذات مرّة في المطبخ عندما تناهى إلى سمعهما من خلال شباك المنور المفتوح صوت إحدى الجارات توبّخ ابنها على لعبه وعدم التفاته للكتب والمذاكرة، ثمّ انفعلت وأخذت تصرخُ وتسبّ بعصبية شديدة وهي تقرصه حتى راح صوتُه من الألم، ثمّ تنبّأت له بصوتها الفضيحة بالعمل جزمجيًّا في المستقبل. تركت كلّ الحِرَفِ ولم تذكر إلّا هذه الحرفة، فأغلقت الأمّ شباك المطبخ بعصبية بيدٍ مهزوزة، ونظرت في ملامح بنتها لترى آثار هذه الكلمات، فأظهرت الفتاة أنها منصرفة في النظر إلى الطعام الذي على النار، تتهرب من إحساسها بالاستياء من تحقير المرأة لمهنةِ عريسها المنتظر؛ ولم تقتنع الأمّ بأن بنتها لم تلتفت لما قالته المرأة ولم تنزعج منه، فقالت مرّة أخرى، كأنها تقول هذا الكلام الذي ليس لديها غيره لأوّل مرّة: الرجل الذي يعرِّض نفسه يا حبيبتي للضرب والسّخرية من أجل شابة، هو رجلٌ نادر في هذا الزمن الذي عزّ فيه الرجال، والعاقلة لا تفرط فيه.

وعندما زارتهم بنتُ الجيران المتعجرفة، ذاتُ الطبع الغليظ التي تأخّر زواجها، والتي ليس لديها ما تعتز به من الجَمال غير شعرها شديد النعومة الذي تقصه قصّة "الكاريه"، والذي يتأرجح طرفان منه على شكل المنجل على خدّيها، ومعها أمّها وبعض صديقات أمّها، وظلّت الجلسة مبهجة مازحة، إلى أن قالت لها إحداهن: ليجعل لك الله نصيبًا في أي عريس يدقّ بابك بدلًا من قعدتك في بيت أهلك، ولو كان هذا الجزمجي الجديد. فشهقت ووضعت كفيها على خديها من الصّدمة، ثمّ أخذت تتخلّل شعرها الناعم بأصابعها وقالت باشمئزاز: إنها لن تصوم وتصوم لتفطر على بصلة.

وسقط وجهُ الجميلة للأرض، من إحساسها بأنّ الآخرين مصرُّون على أن يفسدوا عليها ما بها من الرضا. وعندما ودّعت هي وأمّها الضيفات متثاقلتين، سحبت الأمّ ابتسامة التّوديع مباشرة، وهرولت وأتت بالخرقة التي مسحت بها دمه، ونشرتها في وجْه بنتها، التي وقفت متعجّبة وقلقة من شدّة تعصّب أمّها له.

عند الأمّ، صار الفتى الذي حلَّ بجوارهما بغير ترْتيب، والذي تدخَّل في شيء يخصّهما بغير اتفاق، رجلًا صالحًا بريئًا، تعمل الدنيا بخبثها ومكرها ورسائلها الكيْدية الحقيرة على الحطّ من شأنه وكسْر أنفه، حتى لو من خلال المنور؛ كلّ شيء يا ولداه ضدّك، وإنك لم تعرفني بعد، سأعاندُ فيك كلّ ما يذمّك، وإني معك على الحلو والمرير، وهي لك ولو على نوم الحصير وأكل الحصرم. صار قديسًا لم

يقمْ بأي معجزة غير أنه عرَّض نفسه للضرب المبرّح في شجار غير متكافئ، قديسًا ليس له ما يلهمه إلّا سوء تقديره للأمور، صارت الأمّ تكلم نفسها في الليالي عنه، وتعاني من اضطرابات في مزاجها بسبب الإيمان به؛ حتى بان عليها ذلك الشّوق والشحوب الذي يمكن أن يرتسم على وجه إنسان آمنَ بدين جديد حتى تخلّل هذا الإيمان عظمه ونخاعه وأدقّ شرايينه ووجد فيه ظمأه ورواءه.

وصارت الأمّ بحاجة إلى زوجها المتوفى؛ كي يشدَّ عصَبها، ويعينها في طرد هذا الشيء الذي يحارب الشاب العريس، فمجيئه بهيْلَمان الموت سيسهّل الأمر كثيرًا عليها ويقويها، ويسدّ حاجتها لسرد الحجج، إنها تريد شيئًا آخر غير مدح الشابّ بسبب أنه تعرّض للضرب من أجل الجميلة؛ ذلك لأنه بعد مرور أيام قليلة من عرضها الأمر بطريقة لطيفة وبغير عبوس، بدأت تقلق من ابتسامة بنتها إليها التي تريد بها أن تطمئنها، وبدأت تشعر أن في هذه الابتسامة شيئًا مخيفًا مؤجلًا، وأنّ بنتها قد تتحوَّل هي الأخرى، وتصير من ضمن هؤلاء الذين يحاربون الرجل؛ حتى تكتمل عزلتها فيه ويعتصرها الشقاء؛ لذا كانت تنتظر من زوجها، بحق الخبز والملح والأيام الخوالي، وبحق مَن ترك مِن ذرية ضعاف، أن يأتي لها في المنام بوجهٍ منير ومستدير كالقمر، ويقول: إنه يرفلُ في النعيم ولا ينقصه إلّا رؤيتهم، فقط هو جاء ليرسل رسالةً واضحة من العالم الآخر، ثمّ ينطق بصوتٍ جليل يليق بروح منعَّمة وله صدى: إنها يجب أن تتزوّج من الجزمجي. حسنًا، لماذا يجب أن تتزوّج من الجزمجي؟! فيكرّر كأنه لم يسمعها، إنها يجب أن تتزوج من الجزمجي، ويبدأ صوته في الخفوت، وتأخذ صورته في الاضمحلال حتى يغيب؛ لتقوم هي من نومِها فرحة تشعر بجَمال الدنيا وحلاوة الصّبح بعد أن جاءها الصّواب في منامها، وتبشر بنتها بما رأت؛ فتؤمن البنت به ولا تبالي فيه بالقيل والقال، وتبرأ من أيّ خاطر يخطر لها بالكفر به.

واظبتْ على التّحديق في وجه زوجها في صوره قبيل النوم، بانفعال شديد، كما لو كان سيُبعث من قبر الألبوم، وفي ظنّها أن طولَ النظر إلى صور الموتى يساعد أرواحهم على زيارة الأحياء، ولكنها نظرت لليالي طويلة ولم يأتِ، وعندما لم يفلح معه النظر وحدَه في الصور بدأت تهمس له وهو يطلّ عليها منها: إن استطعت أن تأتي فتعال، فأنا بحاجةٍ إليك بشأن العريس، وكرّرت هذا الرجاء عدّة أيام، بنفس الصوت الهامس والإصرار، ولكن بغير فائدة، حتى بدأ يشوب لهجتها الصّبورة شيء من العتاب، كأنه بدأ ينبعث فيه هذا العتاب بعض آثار الذكريات السيئة، التي تكون بين زوجين ولا تنساها المرأة، وأنهت هذا الأمر بأنْ نظرت له قبيل النوم في ليلة وقالت: هكذا أنت حيًّا وميتًا: تحطّ يديك في المياه الباردة.

وبدأتْ بينهما وبينه تعاملات وديّة خفيفة لا تثير التكهّنات في هذا الحيّ الشعبي، رعتها الأمّ نفسها، وأفهمته بلطف شديد أنّ هذه التعاملات يجب ألّا تكون موضع ملاحظة من الجيران حفاظًا على السّمعة؛ وهو قد رحَّب، وكان كما تحبّ دائمًا، شابًّا لطيفًا، يمنعه كبرياؤه عن التصرّفات المتدنية، وساعدها بلامبالاته الطبيعية في أن يكون وصله بهما ممّا لا يثير الريبة؛ حتى أنها كانت أحيانًا، تحت تأثير هذه اللامبالاة، وتحت تأثير طبيعتها القلقة الموسوسة، تشك في أنّ هناك شيئًا جادًّا صرَّح هذا الشابّ به، حتى أنها قالت له مرّة: أنت قلت لي إنك ترغب في الزواج من بنتي أليس كذلك؟ فابتسم لها ابتسامة الواثق الذي يريد أن يرسلَ رسالة طمأنة؛ وآمنَ بأنهما لا تصدقان نفسيهما من الفرحة.

وكانت الأمّ تشعر بِسرور سرِّي عجيب كسرور المراهقات، وهي تقطع بالموس بعض خيوط حذاء زوجها الذي تحتفظُ به، الذي خاطه الشابّ وسلّمه لبنتها؛ لتذهب به هي من جديد في الغدِ ممزَّقا، لتتسلمه بنتها في اليوم التالي سليمًا وملمعًا بالورنيش. كانت الأمّ متمتعة بهذا الوصْل الهزلي، وتتوقّع أنه بارع وشقي وخفيف، ويعطي ابنتها الجميلة شعورًا بالمغامرة، ويعطيها شعورًا بأنها تعيش قصة حبّ سريّة ورشيقة ستنتهي بالزواج.

هذا الوصلُ اللطيف الذي لم يثرِ الجيران، ليس بسبب دهاء الأطراف، ولكنْ ببساطة بسبب أن الشاب لا يناسب الفتاة، ولا يليق بها، ومن الصعب توقّع أن يتقدَّم لها، والذي اشتكى فيه حذاء الفقيدِ من كثرة ما حلّ به من تخييط وتمزيق، والذي أرادتْ به الأمّ أن تدخل بنتها مثلَها في زمن هذا الشّاب، وأن تدخل من ورائها في عهد الإيمان به، هذا الوصلُ لم ينبت أي زهرة في قلب الشابة، ولا يبدو عليه أن سيُنبت، بل لقد بدأت الجميلة تشعر بنوبات من الانقباض رغمًا عنها. وتكتّمت البنت هذا الانقباض الذي تولَّد فيها من تعاملها السطحي معه عن قرب، مقرّرة أنه ليس أمامها إلَّا أن تستمرّ لعلّها تشعر بشيء آخر. كانت تشعرُ أنه غريب عنها، وأنه لا شيء فيها يحثّها على أن تقترب منه وتضيق المَسافة، كانت تشعر بذلك وهي تسمع منه تلك الكلمات القليلة العادية، التي يقولها لها مرّات وهو منكفئ على الماكينة، ومرّة وهو يرفع وجهه إليها وعليه علاماتُ القلق التي ظلّت مرتسمة، بعد أن رفعه عن خبر العروس التي هربت من عريسها الذي لا تحبّه في ليلة الفرح في صحيفة (قبل الطوفان)، ومرّة وهو ينظر لصورة "جون ترافولتا" المعلّقة في دكانه، ثمّ لنفسه في المرآة الصغيرة بجانب الصورة، ثمّ يتحسّس النونة التي في ذقنه، ويقول لها متعجبًا: يخلق من الشبه أربعين!

والأمّ التي تشعر ببنتها جيدًا، أحسّت بهذا الانقباض الذي تظهر له آثار خفيفة على وجهها وهي عائدة من عنده تحمل حذاء أبيها وتسلمه لها بفتور: ما بكِ؟! لا شيء! لا بل بك؟ أبدًا؛ فازدادت الأمّ عصبيةً في إيمانها بالشاب، وأفرغت طاقتها الإيمانية ومبايعتها له بالتوسّع في إلحاق الضّرر بالحذاء؛ بدأت تفكّ الكعب عن قاعدته، وتحل الخياطة الدّاخلية، وتنزع النعل الداخلي، وتحلّ خياطة الجزأين العلويّين المثقوبين بثقوب الرباط، حتى تشعر هي وبنتها بحجم إنجازاته عندما يعود الحذاء وقد تعافى، هذا الحذاء الذي مات صاحبه وتركه للهوان العاطفي، هذا الحذاء الذي تحمّله الأمّ ما لا يحتمل كوسيلة للإقناع.

وهكذا ظلّت الأمّ تجتهد في إفساد الحذاء، وظلّ الإسكافي يجتهد في إصلاحه، وحتى في المرّة التي عادت فيها البنت في حالة واضحة من الضيق والسّأم لا يمكن إنكارهما، وما زالت تصرّ على أنه ليس بها شيء، لم تستطع الأم أن تبحثَ عن حلّ غير الذي تعرفه، فأخرجت الأمّ أثقالها في حذاء الفقيد بأن مزّقت كلّ خيوط زوجي الحذاء الخارجية والدّاخلية؛ حتى فصلت النّعلين تمامًا عن الجلد، وفصلت قطع الجلد عن بعضها البعض؛ لقد كانت تستغيث به وهي حزينة تبكي وتمزِّق، وتتضرّع له من خلال الحذاء، وتعلن له أنّ الأحوال متدهورة تمامًا، وأنه لا بدّ أن يستجمع كلّ روح الشباب فيه ويعمل شيئًا، لكن كلّ هذا لم يكنْ له عنده غير معنى واحد وهو أنّ الأمّ لا تريد أن تفلته، ولا تريد منه أن ينشغل عنهم، وأنّ الجميلة تحبّه جدًّا.

الأمّ التي ظنّت في البدء أنها نجحت في أخذ الموافقة في دقائق معدودة، ها هي الآن تعاني يوميًّا من وجه فاتر، وجه بنتها التي لا تعلن عن معاناتها، وتحاول أن تخفي أوجاعها عن أمّها الأرملة؛ حتى لا

تؤلم السيدة التي ذهبت في درب هذا الفتى بغير رجعة، ولقد كان استسلام بنتها لها هو أكثر شيء أنهكها، وكان أقسى عليها من أن تعارض.

وتمَعَّنَتْ الأمّ في حالة بنتها، وفكَّرت طويلًا، وهداها تفكيرها إلى أنّ هذا الانطفاء، الذي يبدو عليها عندما ترجع من عنده، يرجع في الأغلب لأنّ بها شيئًا من الغرور بسبب جَمالها الباهر، يجعلها تشفق على نفسها من الزواج من إسكافي، وتصدِّق في نفسها أنها جديرةٌ بطبيب أو مهندس، وتوصَّلت إلى أنّ علاج هذا الغرور المتمكّن منها هو في كسْر النّفْس؛ لا بدّ من شيء يكسر نفْسها ويهيئها لقبول هذا الشابّ بسعادة بعيدًا عن أوهام الجَمال وتأليب المرايا؛ لذلك نصبت الكنبة القديمة، وثبّتتها من وجهها بالمسامير في الحائط بمدخل البيت، ووضعت لها أرففًا من خشب الأبلاكاش، وجعلت منها دكانًا هزيلًا له أربعة أطراف قصيرة مفكّكة في وجوه العملاء هي أرجل الكنبة، وخصصت الجميلة من دون إخوتها الأصْغر سنًّا للعمل كبائعة، تخرج لكلّ مَن ينادي عليها باسمها من النساء والأطفال إلى المدْخل؛ لتبيع لهم: صابون صن لايت للغسيل، ومسحوق سافو، وزهرة الطربوش الزرقاء، والخل، وخميرة البيرة، وإبر وابور الجاز، وكذلك أقراص الأسبرين، بالإضافة للبضاعة الخفيفة على رفّ التسالي مثل: العسلية، والنوجا، والفنضام، ولبان سمارة، وقراطيس اللب.

شعرت الأمّ بأنها توصلت لحلّ رائع، فقيام بنتها الواثقة من نفسها رغم الفقر، ورغم العيش بغير عزوة، بالبيع للكبار والصّغار بالتعريفة والقرش والقرشين يجعلها تتواضع رغمًا عنها، ويضعها في النهاية على أرض الواقع بغير زهو، فتقتنع بأنّها الآن، كبائعة في دكّان حقير، ليست غالية على الإسكافي. وهي قبلت دون تردّد، ولكن على مضض، كأنها تشاهد فتاة أخرى تخرج لبيع الأشياء المعروضة في بطن الكنبة، فقط قالت لأمّها مرَّة واحدة عند بدء عملها، وعلى وجهها ابتسامة فاترة لا مبالية، كأنّها تتوقّع نهاية ما لحلقة من مسلسل تشاهده هي وأمّها: إنه يا أمَّاه لن يقبل ذلك، وإنك ستفضِّين تجارتك.

وتسلّحت- كما كانت تفعل مع كلّ ضيق- بالابتسامة، ظلّت مبتسمة حتى وهي وتبيع لبنات في مثل عمرها تعرف أنهنّ يغرْنَ منها وجئنَ خصيصًا للفرح فيها، حتى وهي تستقبل الشّقيقات الصغريات للشباب المغرمين، الذين بعثوهنّ لشراء الحلوى ببذخ كنوع من المؤازرة للحبيبة في طورها الجديد، حتى وهي تسمع أحد السّفلة الذين رغبوا فيها وهو يمرّ ضاحكًا من الشماتة من وقفتها وامرأة تناديها أنها سترسل لها ولدها لتعطيه ثلاثة أمتار من أستك التّدكيك.

ولقد صدق ظنّها فيه رغم أنها لا تحبّه، بعد أيام قليلة، عملت فيها في هذا الضيق الذي حلّ عليها من أمّها، وهي تشعر داخلها بالحسرة التي يشعر بها إنسانٌ كريم لعبت به الأيام وحطّت به في غير مكانه، فقد أعفاها العريس، في اليوم الرّابع من وقوفها عند الكنبة، وكانت لا تزال تبدو صلبة، بطريقة مخيفة؛ إذ ترك من يده المقالة الصعبة التي غيَّرت مزاجه كرجل حرّ، عن العريس الذي فطن في ليلة الدخلة إلى حيلة أمّ العروس الخبيثة لإخفاء عدم عذرية بنتها، في صحيفة قبل الطوفان، وعبّر للأمّ عن استيائه الشديد من أن تقف عروس المستقبل للبيع في مدخل البيت هكذا، بعنجهيّته الظريفة، وكان ينظر لها نظرة مَن يريد أن يقول لمَن يقف أمامه إنه انكشف على حقيقته. وهذه النظرة المقتحمة، وتلك اللّهجة التي لم تعتدْ عليها المرأة منه، وقوله الذي كان خارج السياق تمامًا: إنه ليس مغفلًا، كلها تحت تأثير شيء واحد فقط وهو المقالة.

ولم يمرّ دقائق على ذلك حتى هرولتِ المرأة بطريقةٍ بلهاء، وأغلقت متّجرها السخيف المباغت، ورفعت كنبتها، بنفس السّرعة التي يهرب بها باعة السّوق من رجال البلدية، وفي قلبها اعتذار عميق إليه تتمنى منه لو نسي زلتها ولم يؤاخذها عليها من بعد ذلك، وأن يغفر لها الغباء الذي سبّبه غلوّها فيه. وكانت تشعر بالغيظ من كونه تركها لليوم الرّابع ولم ينبّهها منذ أوّل ساعة، وكانت تشعر بالغيظ أيضًا من كوْن بنتها فهمته أكثر منها وميَّزت ما يغضبه، رغم أنها هي المؤمنة به وحدَها، وهي التي فعلت ذلك فقط من أجله.

وظلّت الأمّ تبذل أقصى ما عندها من قدرةٍ على التجاهل لكوْنه يخلو من بعض ما تتمتّع به الأسرة، وظلت مستمرة في حربها المتوحدة الهزيلة لتحقير كلّ شيء لا يتمتع به، إلّا أنّ الإسكافي الرصين، الذي لا يحبّ أن ينادي على الباعة، بدأ يستريح معهم ويريهم أعاجيبه، وبدأ يأخذ تدابير ساذجة كي تشعر الجميلة برقيّه وتمدّنه، الذي لا يشعر به أحد سواه، لقد اغتنم علبةَ كروت شخصية من القمامة على حوافّها بُقع، ووضع سيجارته البلمونت على جانب فمه في الدّكان في وقت فراغه، وأخذ يطمس اسمَ صاحبها وأرقام تليفوناته، ويضع بخطّه الجميل اسمه واسم الشهرة (أنكَش)، نعم أنكَش، ذلك الاسم الذي كانت الفتاة تشمئزّ منه، ويزيدها نفورًا من صاحبه، ومن تحت اسم الشهرة رقم تليفون المقهى القريب من دكانه. وأثناء ذهابهما للخردواتي لشراء (الكُلْفة) للثياب التي تفصلها الأمّ الخيَّاطة، مارَّتين من أمامه، استوقفَهما ومدّ يديه الاثنتين لهما، وبكلّ جدية، بنسختين من الكروت بغير أيّ داع، وكلّ واحدة منهما مدّت يدًا متثاقلة، وهي تلهّي نفسها عن التهريج الذي يبدو عليه الأمر لهما.

وفي أحدِ المساءات، لم يفتح دكانه، وأرسل طفلًا رمى ورقةً لهم وهم جالسون في الصّالة وفرّ هاربًا، فيها أن أنكش أصيب في حادثة موتوسيكل مروّعة، وهو في طوارئ القصر العيني بين الحياة والموت يردّد اسم عروسه، فذهبتا للسّؤال عنه بقلّة حيلة، بغير الغمِّ الذي يتخيّله، ولكن تحت تأثير إحساس قوي بالواجب. وكان ما يحير الأم المؤمنة به، والحزينة على شبابه، أنها في برق هذه الفاجعة الذي كشف ظلامًا دامسًا فيها من السلام والرضا، رأتْ في نفسها قدرةً على الصمود إزاء خبر موته إن مات.

ودارتا في المكان كمسكينتيْن تلحظان قسوةَ المكان وسرعة الحركة فيه، وتعرفان أنهما لا تستحقان اهتمام ولطف أحدٍ في هذه الأجواء الأميرية الفظّة، وسألتا هنا وهناك، بطريقة مهذّبة حتى لا يجرحهما أحد، وتيقّنتا أنه لم يدخل المستشفى أيّ رجل يحمل اسمه، وخطر للجميلة أن تسأل عنه الممرّضات باسم شهرته، ونطقت به بصعوبة وهي تبلع ريقَها، وما إن قالته حتى سخرتْ منه الممرضات المستظرفات أمامها بكلّ بجاحة؛ واهتزّ وجدانها، وتأكدت من صدق مشاعرها النّافرة من هذا الاسم الذي حاولت أن تتكيف معه وتعتبره شبابيًّا ومرحًا.

وعادتا للبيت، وأخذت هي تسحبُ جوربها الرّقيق المثقوب من فوق الركبة بفتور، وهي تشعر بالملل والضيق والهزيمة، وأمّها تقول لها بغير شهيّة إنّ حجة الغائب معه، وهي تزيد ضيق أمّها بأن لا تستجيب لمحاولتها لجرّها للتعليق على ما حدث، كانت أمّها تريد منها أن تتواطأ معها وتغضّ الطرف مثلها عمّا يحزّ فيها، لكنها أبت أن تستجيب، وقد قدّمت لها الممرضات الفظّات خدمة جليلة، حينما كشفت لها وقاحتهنّ سذاجة المجهود الذي تبذله هي وأمّها. أمّا الأمّ فكانت مرتبكة، وناقمة، تلعن هذا

الشيء الذي يحاربها في هواها فيه، والذي لبس في ذلك اليوم كالشيطان حتى هؤلاء الممرضات، وسخر من العريس على ألسنتهن الطويلة.

وبعد ساعتين، وكانت قد أنهكت بسبب امتناع بنتها عن التواطؤ معها عندما قالت عدّة مرّات: إن الغائب معه حجته، ولم تهتمّ البنت بالردّ في أيّ مرّة، فاجأ الأسرة بزيارة مسائية بغير أيّ ميعاد، وعندما سمع من أمها ما حدث، بنبرتها المحتشمة، التي لا تخلو من استفسار وعتاب، تصرَّف وكأنه فوجئ، ثمّ شرد وهو يهزّ رأسه ناظرًا للأرض، كأنه يفكّر في شيء ما، وضرب راحة كفّه بقبضته وخمّن بأن ذلك في الأغلب مكيدة من أحد أعدائه، الذين لا وجود لهم في الحقيقة. وتجاهل الأمّ وأخذ يلحّ على الجميلة في السؤال بتفاهةٍ سافرة شعرتْ معها كما لو كانت أكبر منه سنًّا- عن الجزء الذي أصابها ومقدار شعورها بالضّياع عندما قرأت تلك الورقة، وعدد السنين التي كانت ستذهب من عمرها وهي مضربة عن الزواج حتى يلتئمَ جرحها إن كانت وجدته قد أسلم الرّوح في المستشفى؟!

وبعد موضوع الكارت المثير للضّحك، ثمّ قصة الحادثة المثيرة للاشمئزاز، ظنت كلّ منهما على حدّة أنه ربما يتعلم من رصانتهما أنه لا داعي للمزيد من التصرّفات غير الناضجة، فيحاول ألّا يدَّعي أي شيء، إلّا أنه كان يريد منها أن تشعر بأنها فازت من دون الأخريات برجل فتَّاك يحطّم قلوب العذارى، فأرسل إليها خطابًا أنثويًّا ركيكًا من آنسة، رماه تحت الباب، تقول الآنسة فيه: إنه تناهى إلى سمعها خبر مشروع الخطوبة، وهي تهدّد بإلقاء نفسها من الأتوبيس النّهري إن فازت دونها بالزّواج من أنكَش، لأنها لا تستطيع تخيّل الحياة بدونه؛ وكذلك يحتوي هذا الخطاب الجَميل الخطّ على آراء هذه الآنسة المزعومة في الحبّ والإخلاص والموت، وسر جاذبية أنكَش التي لا تقاوم. وجعل في خاتمة الخطاب حكمة شهيرة، يبدو أنه وجدها على ورقة من أوراق التقويم، ولم يفهمها على نحو صحيح، وظنّها مناسبة لختام يتصف بالصرامة والإنذار، وظنّ أن هذه الحكمة تعني أن ذلك الكلام يقال مرّة واحدة فقط، حيث كتب بين قوسين (إنك لا تستطيع أن تضع قدمَك في النهر مرتين)، ومرفق مع الخطاب موس حلاقة مستعمَل على سبيل التهديد.

هذه هي الكوميديا السّوداء التي كانت الأسرة البسيطة المحترمة، والمتقوقعة، تغيب فيها يومًا بعد يوم وهي تبحث عن باب بيت جحا، مدّعية الصبر وراحة البال، ومدّعية أنها لا تشعر بالخوف من المتاهة، ولا تملك إلّا المزيد من التحامق في إنكار الحماقة، والإصرار على خطّتها العبثية للتغاضي، وممارسة أسوأ أنواع التمهُّل.

لقد أزعج الأمّ أنها صارت تراه يتخلّى شيئًا فشيئًا عن وميضه الخاصّ، وينسلخ من كبرياء غموضه المظنون، ثمّ صار يدبّ فيها رغمًا عنها شيء ممّا يدبّ في جوانح بنتها، وكلّ ما في الأمر من فضيلة وثبات أنها تأخّرت فقط، إنه هو، نفس الانقباض، من جهله، وفوضويّته، ورفعه للكلفة، وسوء تقديره لما ينفع أن يقال أمام نساء من بيت طيب محترم؛ وهذا الشّعور تمكّن منها، ولم يأبه بها؛ أنكرته أو أعلنته، بعد حادثة قصر العيني المزعومة وخطاب الشابة الوهميّة، لأنّها كانت في قرارة نفسها مؤمنة تمامًا بعد الموْقفين أنه هو الذي أرسل الطّفل بالورقة، وهو الذي كتب خطاب الآنسة المغرمة التي تهدّد بالانتحار، لقد تمكّن منها هذا الانقباض، وإن ظلّ وجهها أكثر خضوعًا لها، ويتستّر على ما تشعر به في أعماقها. ولقد جزعت كلّ الجزع عندما تأكّدت من وجوده فيها، عندما تأكدت من أن هذا

الانقباض الذي فرَّغت نفسها لمحاربته في بنتها بأدواتها البسيطة، وجعلها تقسو على حبيبتها وتكسر نفسها ولا تلتمس لها عذرًا؛ هو موجود بها هي أيضًا.

الأمّ التي أوهنها الخوف، وتعيش أسيرةً لذكرى خروج النعش حاملًا الرجل المكافح، حرصت على ألّا يلحظ أبناؤها عليها شيئًا من التغيّر، وكبتت آثار انقباضها قدْر ما استطاعت، وظلّت تحارب نفسها من أجل الشاب، وظلت تتحرّك إلى الأمام بطريقة بائسة وعنيدة، حتى بعد أن صارت تعرج من حماقاته، وبعد أن اشتدّ بها الوجع من آلام بنتها المكتومة، وظلّت تتمنى تلك الأمنية التي تبدو بعيدة جدًّا: أن تنقلب الأمور فجأة، ويكوِّر لبنتها رسائل عاطفية ويحشرها في مقدّمة الحذاء كتلك الأوراق التي توضع في الأحذية الجديدة، فتبدأ البنت في فرد هذه الكرات الورقية وقراءتها بعناية وهي تبتسم، وتعضّ شفتها من الخجل، وتلتمع عيناها، ثمّ تدسّها في الخزانة تحت ملابس الشتاء، وتعلن تمسّكها بها، وتقول هو أو لن أتزوّج من أحد أبدًا؛ لكن هذا لم يحدث، ومن الواضح أنه لن يحدث، كلّ هذا فيما كان هو غارقًا في الإعجاب بنفسه، تقوده خفّته وأساريره المنفرجة، حتى اجتمعت عليها آلامها مرَّة وكادت تُهلكها، وأخذت تلفّ وتدور في الشقة كأنها على وشك أن تفتح النافذة وتصرخ في وجه العالم كلّه، وبنتها تراقبها في خوف، ثمّ إنها جلست وفردت ساقيها أمامها في غرفتها، واستغاثت بالطّريقة التي تعرفها: تناولت الحذاء من تحت السّرير، وأخذت تعمل فيها بهيئة امرأة شبه مجنونة، وبنتها تبلع ريقها تخاف أن تتكلّم معها، ثمّ قامت وحملت إليه الحذاء بعينين حمراوين مفكّكًا إلى كعب ونعل وقطع جلدية ورباطين وفرشَة، وكان الرباطان في يدها عبارة عن كرتين من العقدِ الشّديدة، مثل ما فيها من عقد، وتركته ومضت وهي تظنّ أن ما كان يبدو على وجهها من أسى ربما شرح له الأمر، ولكنّه لم يقرأ وجهها، وكذلك لم يستوعب الشّفرة في حال الحذاء، واستلم المكونات وعمل في تجميعها وهو يبتسم؛ كأنه يظنّ أنها وضعته أمام تحدٍّ مهني لا أكثر.

وبعد هذه الاستغاثة، التي ذهبت صرختها أدراجَ الرياح ولا مغيث، بدأت الأمّ تقوم من نومها وتجد على جسمها الأبيض، مرّة في الذراع، ومرّة في البطن، أو الفخذ؛ بقعًا زرقاء مستديرة كالقرش، كأنها من قَرصٍ شديد. تكتَّمتها حتى فاض بها مرّة، وكشفت لبنتها القرصة الأخيرة فوق ركبتها، فقبّلت الجميلة الأثر الأزرق، وبكت وظلّت منكبة عليه بوجهها؛ وماذا بيدي أن أفعل يا أمّاه بعد أن وافقتْ؟ ربّتتْ أمّها على شعرها، ثمّ قالت بصوت خجول كطفلة تعرف أنّ طلبها مستفزّ: ارجعي من عنده سعيدة.

وذاتَ مساء، قريب من هذا الطلب الغريب، كانت الأمّ وبنتها تشاهدان التلفزيون في جوّ من المرح، والبنت تضحك من ضحك أمّها على البرنامج الفكاهي، والأمّ تشعر أن بنتها أوشكت أن تنعم عليها وتعطيها الموافقة وهي تبتسم كما تريد، وكان ظنّها في بنتها صحيحًا، كأنها تقرأ ما في رأسها، فقد رأت الشابّة أن تجعل حذاء أبيها يرقد أخيرًا في سلام تحت السرير، فهي لم تعدْ تشك في أنّ هذا الشاب بدَّل أمّها، وصار من الواجب عليها أن تستجيبَ حتى ترحمها من النّكد وسوء المزاج الذي صاحب تغيرًا بهذا الحجم، وكانت تظنّ أن تكتم العلاقة قد زاد ما بأمها من تعلّق عليل بالعريس، وأنّ حالتها ستكون أفضل عندما يخرج الأمر للعلانية.

في هذه الأجواء التي كانت تشعر الأمّ فيها بالطمأنينة وراحة البال، وهي تتخيّل فرح البنت القريب فوق السطحِ بعد أن تعلن لها موافقة سعيدة ترضيها، وتتخيّل أن طريقتهم في الحياة وفي الكلام بدأت

تؤثر في أنكش وصار شبيهًا بهم، دخل مدخل البيت واستخدمَ حوض الماء في غسل وجهه ويديه، ثمّ قرّر أن يزورهم زيارة عابرة بغير اتفاق، وكان يحرص على ذلك حتى لا تكلّف المرأة نفسها بتقديم أيّ شيء غير الشاي، واستبشرت الأمّ بوجوده في هذا الوقت الذي قرأت في وجه بنتها أنّها تخفي لها الموافقة السعيدة التي ستعلنها قريبًا، وبالفعل لم ينقبض وجه الفتاة، لكنه قام بإفساد كلّ شيء، وجعل من هذه الأمسية أمسيةً مريرة لن تنسياها، فقد أراد أن يشير مرّة أخرى إلى جاذبيته التي لا تُقاوم، وكذلك إلى استقامته، وبضربة واحدة، فلم يجدْ شيئًا يعتزّ به غير أن يذكر وهو يرسم على وجهه ملامح المعاناة والشكوى تعرّضه عدّة مرّات لمضايقات في سينما علي بابا من المخنّثين الذين حاولوا استمالته، سواء من الشباب أو من المسنّين الذين شبّوا على هذا الشيء وشابوا عليه، وأخذ يحكي عن أنفاسهم الحارة في جانب وجهه، ونظراتهم المائعة، وتنهّداتهم العميقة، وقلقلتهم في الجلوس على المقاعد، وتغنّجهم في التعليق على المشاهد السّاخنة، وقرضهم كالسّناجب كعوب أوراق تذاكر السّينما من توترهم وتأهبهم، واختباراتهم المتدرجة في عتمة السينما لاستعداده للقبول.

بعد أن مضى، وقد نال منهما وصفه المقزّز لأشياء من العالم السّفلي للرجال في قاع المدينة، رفعت الأمّ صوت التلفزيون قليلًا، ودخلت الحمّام، ثمّ دخلت الجميلة المبْتلاة من بعدها. كلّ واحدة منهما فعلت نفس الشيء وتكتَّمته عن الأخرى، كلّ واحدة منهما استغلّت ارتفاع صوت التلفزيون من أجل أن تتقيأ في الحمّام في سريّة تامة، وكلّ واحدة منهما حرصت على تنظيف الحمّام جيدًا من أي أثرٍ للقيء، وكلّ واحدة خرجت شاحبة وفاتحة فمها، بعد أن ألقت وجبة الغداء كاملة.

ليلتَها أصاب الأمّ وابنتها صداعٌ شديد تقاسمتاه، وكلّ واحدة منهما ربطت رأسها، وأخذت حبّتين أسبرين، وأخذت كلّ منهما تتأوّه وتربّت على الأخرى تحت سحابة الألم المشترك. هذا الصّداع الذي كاد يصيبهما بالجنون، لم تملكا إخفاءه، ولكن وصل بهم التواطؤ الساذج المثير للضحك إلى درجة مذهلة، عندما طال بهما كلّ هذا الليل في عنائه وآهاته متجاورتين، ولم يتكلما قطّ في سبب ذاك الصداع.

لقد بدأت الأمّ منذ ذلك المساء رغمًا عنها تشعر بأنّها غير قادرة أبدًا على النظر في وجهه، هذا الشيء البسيط الذي يناله منها الباعة في السّوق، ومحصّل الكهرباء، ومَن يسألونها عن عنوان قريب، لم يعدْ هينًا معه، كلّما أرادت ذلك وجدت مشقةً بالغة. لا زالت تكلّمه بما هو معروف عنها في العموم من تهذيب وذوق، لكنّها غير قادرة على النظر إليه. كان هناك شيء منيع ينهك صحّتها بسببه ويمنعها من أن تنظر في وجهه، كان يزيح وجهها عنه، وإن قاومته ووجَّهت وجهَها إليه أرخى جفونها، وحاولت مرّات ومرّات أن تقاومه، وأن تمكّن نفسها من النظر إليه بوجه مستريح، كما كانت تنظر، ولكنّ هذا الشيء غلبها، حتى عجزت فيه واستسلمت له.

لقد وجدت نفسها تمسك بالحقيقة التي تهرب منها، وهي أنّ حربها فيه كانت من حروب المساكين على الفرص المتواضعة في الأيام الشّحيحة، وأن تمسكها به هو تمسك المحرومين بأيّ شيء يظهر لهم فيعظمونه ويبالغون في الحفاوة به. لقد صارت الآن تدرك بشكلٍ أوضح أنها لم تعدْ مقتنعة به أبدًا؛ و(عدم الاقتناع) الذي سكنها، أو الذي كان فيها، لم يسكت، أخذ يعملُ فيها بحدّة، ثمّ صار يباغتها على ألسنة الناس؛ كي يعبر عن وجوده الخفي، ولما غفلت عنه بدأ يعاقبها ويمرضها ويفسد أعصابها؛

وصارت تدرك الآن بشكل أوضح أنه لم يكنْ خيارها كما كانت تظنّ، بل كان مفروضًا عليها، فرضه التشاؤم الذي يقبع داخل المساكين، التشاؤم الذي يفرض ذوقه المنحطّ بكلّ قسوة وصَلف.

وقد حدث أمرٌ بسيط في حياة أيّ أسرة بها فتاة شابة، ولكنّه كان يبدو مثل حدث خارق في عيني الأم المسكينة، وبسبب هذا الحدث شعرت الأمّ كما لو كانت عمياء؛ فوجئت ذاتَ مساء بأنها ترى الألوان وتفاصيل الحجرة من حولها، وشعرت بأن أنكش خفَّ كثيرًا فجأة حتى صار مثل نفخة من دخان لا وزن لها، وشعرت أنه أجوف وغير مقنع على الإطلاق، وأنها كانت واهمة وساذجة للغاية، وأن صوت بطبطة يديه في حوض الماء في المدخل عندما يدخل ليغسلهما بعد أن أغلق الدكان، الذي كانت تفرح به وتطرب من سماعه، لم يكن يفرق في الحقيقة عن صوت بهيمة مسالمة تخوض بجسمها في هدوء في ترعة؛ كلّ هذا شعرت به فور أن تقدَّم للجميلة عريس مناسب رحَّبوا به جميعًا، وأوَّلهم الشابة التي شعرت أنه ردَّ اعتبارها أمام نفسها وأمام أمّها.

في صبيحة اليوم التالي لزيارة العريس المهذّب المثقف، استيقظت الأمّ وقد أنارت السعادة وجهها، وأخذت بنتها لحديقة الأورمان، قالت إنها تريد أن تتنفّس وترى النور والخضرة، وتريد أن تشعر بأنها حقًّا خارج الحي وخارج هذه القصّة التي حبست نفسها فيها، بعيدًا عن كلّ مَن ضايقوها، كانت تريد أن تشعر بأن ما حدث هو ليس إلا حكاية صغيرة ومتواضعة في عالم مدهش وأكثر نظامًا، وأكثر عقلانية، عالم أوسع كثيرًا من دكان أنكش، عالم لا يخلو من الأكاذيب، ولكنه لا يتحمّل ذلك القدر المكثف المبثوث في صحيفة قبل الطوفان.

وفي الحديقة، كانت الأمّ مرحة مثل طفلة، وخفيفة، وكثيرة الغناء، ومشت لأوّل مرّة على العشب حافية، أرادت أن تعبّر عن تمرّدها عليه بالسير هكذا بلا هوادة، بغير حذاء.

كانت تكره أن تذهب وتخبر أنكَش بالعريس، لأنّها ما عادت تتحمّل أن تشاهد عن قرب مرّة أخرى علامات ثقته بنفسه، ولا تطيق أن تسمع نبرة صوتِه الفارغة حينما يضع الصّحيفة من يده، ويكلّمها متأثرًا بآخر الأخبار الكاذبة التي قرأها، ولكنّها قرّرت الذّهاب إليه حتى ترتاح منه.

ألقت الأمّ الخبر بحياء، بصوتِ طفلة محرجة، قالت إنّه لا يوجد قسمة ونصيب؛ فترك الخبر الذي كان يقرأ فيه عن اعترافات امرأةٍ عاشقة بعمل التّفريق الذي عملته بالخردل لتفرق بين عشيقها وخطيبته حتى يعود إليها، فبدأ هذا العشيق يشمئزّ من خطيبته ويشمّ منها رائحة الماشية، وبالفعل فسخ الخطوبة. وقام وضحك ضحكة بريئة، خالية من كلّ شيء، فأعادت عليه الكلام بهدوء وصبر، فصدمَ ولم يصدّق، ونظر قليلًا إلى وجه الأمّ المحرجة، ثمّ لعب في شعر رأسه وفهم بالخطأ أنها في صفِّه وجاءت تستعين به، وهزَّ رأسه وقال: لقد فهمت، لا تخافي، ولن أتخلى عنها حتى تخرج من هذه المحنة. ورجَّح لها أن تكون إحدى فتيات المنطقة ممّن يرغبن فيه، قد أحسّت أنّ هناك خطوبة قادمة، فعملت لبنتها سحر تفريق بينهما؛ لأنها كانت تحبّه جدًّا.

وألحّ على الأمّ في أنّ بنتها وقعت بغير شكّ تحت تأثير السحر الأسود، وأن عليها كأمّ ألّا تهمل هذا الأمر الخطير، وألحَّ في أن تذهبا معه هذا المساء إلى رجلٍ يعرفه يفكّ الأعمال، فشعرت الأمّ بالضجر، وأنها لن تستطيع أن تستمع إلى ترّهاته، فاضطرت أن تحكي بشكلٍ حازم عن العريس الذي جاء وارتضوا به جميعًا، وكيف أن الفتاة وافقت عليه على الفور، وسكتت قليلًا، ثمّ وجدت نفسها

تكمل وتقول بنبرة متحدّية إن بنتها لم تكن تشعر بالتوافق بينهما، وإن تعليم بنتها أعلى من تعليمه، وإنه لم يكن أبدًا من المناسب أن يحدثهما عن الشّواذ الذي يتمحكون به في السينما، وارتفع صوتها وهي تقول له إنّها تقيّأت يومها من بعد ما حكى هذا الكلام الذي لا يقوله عاقل أمام النساء، وإنها عرفت اليوم أن بنتها تقيأت مثلها.

وسكتتْ قليلًا لتسمع آخرَ ما يمكن أن تسمع منه، وهي تشعر بالسّعادة والانتقام وهو يقف أمامها كالمحاصر، فأخذ يتلفّت حوله، وينظر بتعالٍ إلى لاشيء، وهو يردّد دون أن يكون قادرًا على قول جميلة مفيدة: أنا أنكش، أنكش، أنا أنكش أنا!!

بالليل أخذ ينادي على الجميلة من أمام الشّقة، بصوت شبحٍ حزين؛ فشعرت بالضيق والتوتر عندما هبّ صوته المعذّب، وبدا لها وكأنّ موضوعه قديم وانتهى منذ مدّة طويلة، ولم يعد يصحّ له أن يكلمها مرّة ثانية، وبدا لها أنها حتى غير قادرة على تذكر ملامحه بشكل واضح.

رفضتِ الجميلة أن تخرج إليه، فخرجتِ الأمّ وهي تثبت نظراتها فيه، بعد فترة من التوقّف عن النظر إليه، وإن كانت تبدو كنظرات امرأةٍ لا تعرفه، فسلمها مظروفًا لبنتها ومضى.

فضّته الجميلة وهي متردّدة، وكانت تقفُ بين أسرتها وقد شُحِنوا جميعًا بعدوانية تجاهه، فوجدت فيه صورة مقربة لذراعه وقد شوّهتها جراح سيئة، وكتب لها خلف الصورة بخطّه الجميل أنه كان قد وشم اسمها قريبًا ولم يخبرها، وبعد أن اختارت غيره أخذ يكشطُ فيه بسكّين الأحذية الحادة؛ فلم يبقَ له منها غير عاهةٍ والسلام. ولقد أثارت الصّورة خوفها واشمئزازها وتهكّمها، وكان هذا من غبائه، فلم يكن يعرف أنه لا ينبغي للرجل الاعتماد على جراحه مع امرأةٍ مرّتين.

بعدَ أن شفى غليله بالصّورة، خفّف عن نفسه وعنهما الحرجَ في اليوم التالي، فأغلق دكانه على أحذية الرجال والنّساء، وحذاء الأب الذي اهترأ، وأحذية أطفال المدارس وحقائبهم التي تركوها عنده بُغْية الإصلاح، وعلّق لافتة من الكرتون برباط حذاء، ولصقَ عليها قطعة مائلة من شريط لحامٍ أسود، وكتب عليها (عندي حالة وفاء)؛ ولم يعدْ أنكش مرّة ثانية، وظلّت عهدته من الأحذية حبيسةَ غضبه، وظلّت اللافتة للأبد لعبة للهواء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون E-BOOK

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

..رس

ريحُ الهيمان
الخبء
وساوِسُ الحنين
رجلٌ يرقبُ النَّمل في استلقائه
أرضُ اللّواء
الزّحف
خطّ العنقز
المخبرُ في فِتاقه
لهيبُ الأغْنيات
الإبْرةُ والكسْتبان
شجرةٌ لا تقربُها العصافير
جميلُ بثينة
وجهي ووجهه
ليلة القدر
الدّيك الحمّصي
ودَّة
أنكَش